د. أحمد محمد صافي المستغانمي

جواهر الدرر في علم مقارنات السور

رؤية تأصيلية للروابط المضمونية واللفظية لمجموعات الأسر القرآنية





دار ابن كثير

جواهر الدرر
في علم مقارنات السور

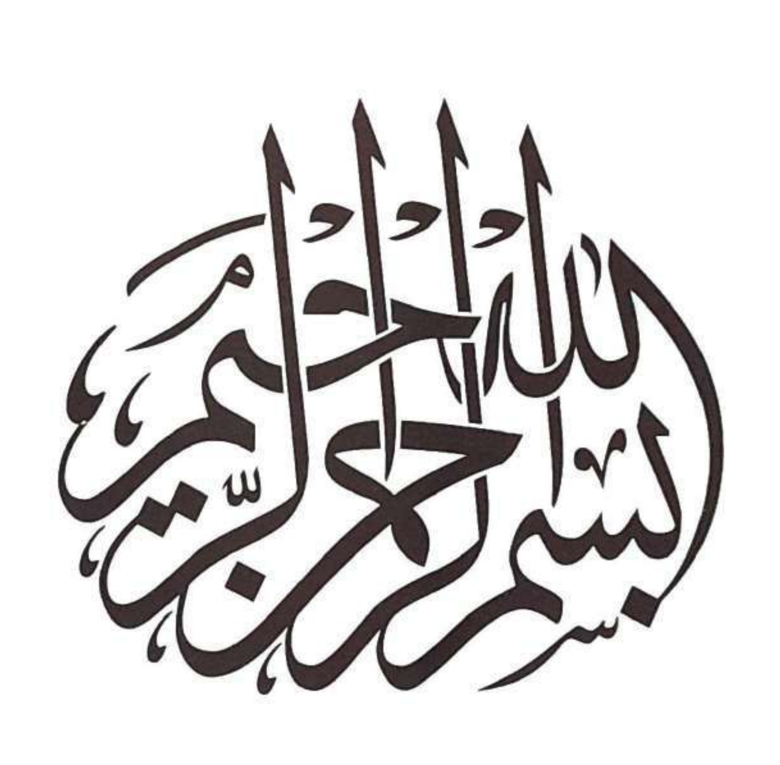
جواهر الدرر في علم مقارنات السور

رؤية تأصيلية للروابط المضمونية واللفظية لمجموعات الأسر القرآنية

تأليف

د. أحمد محمد صافي المستغانمي

دار ابن كثير


بسم الله الرحمن الرحيم





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ ﴾

[الرّعد: ٣١]

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[الحشر: ٢١]



خطّة الكتاب

المقدمة

المدخل: ظاهرة التّجاذب اللفظي في نسيج السورة القرآنية

الفصل الأوّل: **السُّور المتشابهة المطالع**

المبحث الأول: سُوَرُ الحمد لله

المبحث الثاني: سورتا النّساء والحج

المبحث الثالث: سور ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾: المائدة، والحجرات، والممتحنة

المبحث الرابع: السّور المسبّحات

المبحث الخامس: سورتا الفرقان والملك

المبحث السادس: سور ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾: الأحزاب، والطلاق، والتحريم

المبحث السّابع: سورتا القيامة والبلد

المبحث الثامن: سورتا المطففين والهمزة

الفصل الثاني: **السور المتشابهة الفواصل**

المبحث الأوّل: سورتا الإسراء والفرقان

المبحث الثاني: سورتا الكهف والجنّ

المبحث الثالث: سور طه، والنجم، والأعلى، والليل، والضحى.

الفصل الثالث: السّورُ المُفتَتَحة بأنساق تعبيريّة متشابهة

المبحث الأول: أسرة والصافّات صفًّا، والذاريات، والمرسلات، والنّازعات

المبحث الثاني: أسرة الحاقّة، والقارعة.

المبحث الثالث: أسرة سُوَر: الواقعة، والتّكوير، والانفطار، والانشقاق، والزّلزلة

* * *



المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات، وتتحقّق الغايات، وتُقضى الحاجات، وأصلّي وأسلّم على المبعوث رحمةً للعالمين، وسراجًا منيرًا للسائرين سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه والمقتفين آثاره إلى يوم الدّين.

قبل بسط القول في المقاربة التفسيريّة التي يتناولها هذا البحث، يحسنُ أن أُقدّم بين يدي القارئ الكريم نبذة مختصرة عن الجهود والمقاربات السّابقة التي أُجريت في حقل الدّراسات القرآنيّة المتعلّقة بالسّورة القرآنيّة، والوقوف عند علم المناسبة الذي تردّد كثيرًا على أفواه وكتابات كثير من الباحثين قديمًا وحديثًا.

والهدف من هذا المدخل هو تحقيق أمرين:

أوّلهما إبراز جهود السابقين الذين اجتهدوا في حقل السّورة القرآنيّة، وإيضاح المجالات التي بحثوها، والإضافات التي أنتجتها قرائحهم وأقلامهم.

وثانيهما: التّوصّل إلى إيضاح عناصر المقاربة التّفسيريّة التي يقدّمها هذا البحث.

وسوف أختصر كل كلام أو تحليل فيما هو معروف ومُسلّمٌ به لدى الباحثين في علوم القرآن تفاديًا للتّكرير والإطالة.

باديَ ذي بدء أقول: أغلبُ التّفاسير التي عالجت سور القرآن الكريم وآياته، منذ بروز اجتهادات كبار التّابعين، مُرورًا بالإمام ابن جرير الطّبري والزمخشري والرّازي والنيسابوري وابن كثير والقرطبي، وصولًا إلى علماء العصر الحديث أمثال آلالوسي البغدادي وجمال الدين القاسمي وابن عاشور والشّيخ الشعراوي وغيرهم؛ هي أعمال بحثيّة عُنِيَ أصحابُها - رحمهم الله تعالى - بالتّفسير التّحليلي الذي يهدف إلى تجلية معاني آيات الذّكر الحكيم بشرح ألفاظه، وسبر معانيها المعجميّة والسياقيّة، وإعرابها، ودراسة أبنيتها الصّرفيّة، وإبراز جماليّاتها البلاغيّة، والصّور التي تحملها بالانضمام إلى أخواتها في الجملة الواحدة والسّياق الواحد، دون أن ننسى اهتماماتهم في استخراج الأحكام الشّرعيّة من مظانّها، والتّنصيص على التّوجيهات الخلقيّة والتّربويّة التي تحملها النّصوص القرآنيّة، وبيان المكّي منها والمدني، مع ذكر أسباب النّزول، وترتيب النّزول، والقضايا الفرعيّة الأخرى التي يُعنى بها التفسير التحليلي بشكل عام.

وهذا النّهج الذي انتهجه علماء التفسير السّابقون هو نهج سليم وصحيح ولا غبار عليه؛ حيث إنّه ساعد قديمًا، وهو يساعد حديثًا على فهم نصوص التّنزيل؛ إلّا أنّ الدّراسة الفاحصة لنصوص التّنزيل، والباحثة عن أسرار إعجاز النّص القرآني، تُثبتُ أنّ ثمّة جوانب أخرى تحتاج إلى بيان وتجلية؛ إذ إنّ جماليّات النّص القرآني لا تنحصرُ في شرح المفردات المستعملة، وإعرابها، وبيان أبنيتها الصّرفية، وفهم كل جملة على حدة، واستنباط الأحكام فقط؛ وإنّما ثمّة جوانب أخرى كانت تقضّ مضاجع كثير من العلماء، وتُبعد الكرى عن أجفانهم وهم يتدبّرون هذا النّص المعجز، وهم يتساءلون: أين يكمنُ

إعجاز القرآن الكريم؟ أهُوَ في ألفاظه المختارة؟ أم في تراكيبه البديعة؟ أم في صوره الرّائعة؟ أم في مطالعه البارعة؟ أم في مقاطعه وخواتيمه الشّائقة الماتعة؟ أم في ثروته اللّغويّة الغنيّة الثّريّة؟ أم في قدراته التعبيريّة الفائقة، التي لا يستطيعها أمّي لم يقرأ ولم يكتب طوال حياته؟ فأين يختفي وأين يتجلّى هذا الإعجاز العظيم الذي يسيطرُ على كل قارِئ، ويغزو وجدان كل مستمع ومنصت للذّكر، ولكن لا تُدرك صورتَه الأذهانُ بوضوح، ولا تُعبّر عنه القرائح بإبانة وتبيين، ولا تكتبُ عنه الأقلام بيسر وانسيابيّة؟

واستجابة لهذا الهاجس الذي لا يتوقّفُ، غاصت عبقريّاتُ كثيرٍ من الباحثين في الحقل القرآني تتلمّس مواطن الإعجاز، ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ الأديبُ اللغوي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطّابي في رسالته الموسومة: بيان إعجاز القرآن، واللغوي عليّ بن عيسى الرّمّاني في رسالته: النُّكت في إعجاز القرآن، وعلّامة البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني في رسالته الشّافية، وكتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، والفخر الرّازي (محمد بن عمر ت ٦٠٦هـ) الذي أدرك كثيرًا من الأسرار والجماليّات المتعلقة بالتّناسب بين آيات الذكر وسوره في تفسيره الجليل الموسوم بـ (مفاتيح الغيب).

ثمّ جادت أرض الأندلس المعطاءة بابن الزّبير الغرناطي (أحمد بن إبراهيم ت٧٠٨هـ)، الذي أفصح وأبان عن كثير من جماليّات آي الذّكر الحكيم، وأرسى بأبحاثه وكتاباته أركان علم توجيه المتشابه اللّفظي في كتابه (مِلاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل)، وعلم تناسب السّور في كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن).

ثم توالت الكتابات في هذا الشّأن تترى تمشي على استحياء إلى

أن قيّض الله تعالى لعلم المناسبة جِهبذًا من جهابذة القرن التّاسع الهجري هو الإمام البقاعي (إبراهيم بن عمر ت ٨٨٥هـ) ، الذي فاضت قريحتُهُ بكتابه الجليل: (نظم الدّرر في تناسق الآيات والسّور) الذي صال فيه وجال ، وأتى بالغزير الرّائق في المناسبات بين الآيات والسّور.

ثم جاء دور الجلال السّيوطي (ت٩١١) ، الذي اقتفى آثار سابقيه فجمع وأحسن تلخيص ما سبق في كتابه (تناسق الدّرر في تناسب السّور).

ولدى التّأمّل والبحث في تراث الأقدمين ، يتّضح أنّ دراساتهم تمحورت حول المناسبات بشكل عام: المناسبة بين الآية القرآنية وأختها ، والمناسبة بين السّورة وسابقتها في التّرتيب ولاحقتها ، والمناسبة التي تربط مطلع السّورة بختامها ، والمناسبة بين اسم السّورة ومضمونها العام أحيانًا، إلى غير ذلك ممّا يتعلّق بعلم المناسبة ، الذي أوضحه ابن الزّبير الغرناطي في كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن) ، وأبرزه الجلال السّيوطي في كتابه (تناسق الدرر).

هذا ، وقد فتح الفخر الرازيّ باب القول بالوحدة الموضوعيّة للسّورة القرآنيّة ، حيثُ إنّه تحدّث في معرض تفسيره لسورة فصّلت عن الغرض العام للسّورة ، حيث ذكر بأنّه يتعلّق بالقرآن الكريم؛ فمن مطلعها يواجهنا قوله تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [فصلت: ١ ـ ٣] ، وقبيل نهايتها جاء قوله جلّ شأنه: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ

وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وفي وسطها سجّل القرآن علاقة المشركين بالوحي المنزّل وموقفهم منه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

جاء في (مفاتيح الغيب): «وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السّورة أنّ المقصود من هذه السّورة هو ذِكرُ الأجوبة عن قولهم ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]؛ فتارة يُنبّهُ على فساد هذه الطّريقة، وتارة يذكرُ الوعد والوعيد لمن لم يُؤمن بهذا القرآن ولم يُعرض عنه، وامتدّ الكلامُ إلى هذا الموضع من أوّل السّورة على التّرتيب الحسن والنّظم الكامل، ثمّ إنّه تعالى ذكر جوابا آخرَ عن قولهم ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ...﴾ فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]»[1].

يدلّنا هذا الحديث أنّ الفخر الرّازي تفطّن في وقت مبكّر لوحدة موضوع السّورة القرآنيّة، وهي نظرة فاحصة ودقيقة لم يكن معاصروه من علماء التّفسير يأبهون بها؛ إلا أنّ الأمر لم يتجاوز هذا الحد، ولم يجعل الفخر الرّازي هذا الأسلوب ديدَنه في تفسيره جميع سور القرآن الكريم، إذن لوصلنا منه خيرٌ كثيرٌ في هذا الحقل القرآني الخصب، وهذا يدلّ أيضًا على أنّ المسألة لم تنضج في ذهنه في ذلك الزّمن المبكّر وهو نهاية القرن الخامس الهجري.

ثمّ جاء ابن الزّبير الغرناطي كما أسلفت، ولكنّه نظر إلى النّص القرآني من زاوية توجيه المتشابه اللّفظي، ومن زاوية التناسب بين السّور القرآنية، حيث إنّه أبرز في كتابه (البرهان في تناسب سور

---

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٧، ص ٥٦٩.

القرآن) المناسبات التي تربط بين السّورة وسابقتها ولاحقتها ، وتحدّث في الوقت نفسه عن المضامين التي تحملها بعض السّور بشيء من الإيجاز. واستمرّ التّفسير التّحليلي في المهيع ذاته ، وبالأسلوب ذاته إلى أن برز في عالم الكتابة والتّدوين كتاب (نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسّور) ، الذي نادى فيه الإمام البقاعي بأنّ السّورة القرآنية ذات موضوع واحد ، وبأنّ آيات السّورة الواحدة يربطها رابط واحد ، وهي كالعِقد الذي تتناسق حبّاته ولآلئه في اتّساق وانسجام؛ وعلى الرّغم من أنّ وحدة موضوع السّورة كانت أوضح في ذهنه إلّا أنّه [أي: الإمام البقاعي] لم يلتزم بمنهج الكشف عن الغرض العام للسّورة في بداية تفسير كلّ سورة ، وإنّما اكتفى بالحديث العام عن السّورة ، وعن أهمّ ما تناولت ، وعن كونها من القرآن المكّيّ أو المدني ، وأَولى عناية خاصّة بإبراز المناسبات بين الآيات في السّورة الواحدة ، حتى اشتهر أسلوبه في بداية كل فقرة: ولمّا كان. . . . ، ولمّا كان كذا. . . في الوصل بين الآيات ، وإيجاد الخيوط الدّقيقة التي تقرّب بين معانيها.

واستمرّ الحال على هذه الطريقة في التّفسير إلى أن جاء الشّيخ محمد عبده والشّيخ رشيد رضا اللّذان اتّفقت نظرتهما ، ونادیا بأعلى صوتيهما بأنّ لكل سورة قرآنية غرضها العام الذي تدور حوله المعاني والمضامين الجزئية التي تحفل بها ، والأمر ذاته ينطبق عليهما حيث إنّهما بقيا في جانب التّنظير ، ولم ينتقلا إلى التّطبيق العملي لإيجاد الرّوح العام ، الذي يحكم كلّ سورة فيما درساه من سور القرآن الكريم ابتداء من فاتحة الكتاب إلى سورة هود.

وتأثّر بهذه النّظرة بعض علماء مصر الفطاحل أمثال الدكتور محمد عبد الله درّاز ، والشيخ محمد محمد المدني ، والشيخ محمود

شلتوت ، وشيخ الأزهر مصطفى المراغي وغيرهم رحمهم الله جميعًا .

والذي تحسن الإشارة إليه أيضًا في هذه المقدّمة ، أنّ الصّورة كانت أوضح ما تكون في ذهن الشّيخ محمد محمد المدني ، الذي استطاع بتوفيق من الله تعالى ثم بذهنه الثّاقب أن يجمع مضامين سورة النّساء تحت غرض عام هو تنظيم المجتمع الإسلامي ، حيث إنّه كتب كتابه القيّم : المجتمع الإسلامي كما تنظّمه سورة النساء(١) .

وهذا السّلوك هو عين ما توصّلت إليه جهود الباحثين المعاصرين في حقل التّفسير الموضوعي ، والذي أصبح اليوم قضيّة تكاد ترقى إلى المسلّمات العلميّة ، وهي أنّ لكل سورة موضوعَها العام الذي تنضوي تحت مظلّته مواضيع فرعيّة ، وأنّ لكل سورة شخصيّتها التي تتفرّدُ بها عن سواها ، ولها إيقاعها الصّوتي ، وملامحها ومعالمها البارزة التي تُميّزها وتدلّ عليها .

وما زالت الجهود تتعاقب وتتوالى في حقل التّفسير الموضوعي ، الذي عُنِيَ بالكتابة فيه كثيرٌ من أساتذة الجامعات ، ووجّهوا طلاب الدّراسات العليا للكتابة فيه . ومن شاء مزيدًا من البسط في هذا الموضوع فَلْيَعُدْ إلى مطالعة ما جاء تحت عناوين : التفسير الموضوعي ، وعلم المناسبة ، والوحدة العضوية للسّورة القرآنية وما يشاكلها ويقاربها من عناوين .

---

(١) كتاب المجتمع الإسلامي كما تنظّمه سورة النساء ، ألفه الشيخ الدكتور محمد محمد المدني ، وطبعته وزارة الأوقاف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة التعريف بالإسلام التي يشرف عليها محمد توفيق عويضة . سنة ١٩٦٢م الموافق لـ ١٣٨٢ هـ .

فحوى المقاربة التّفسيريّة الجديدة:

كل الحديث السّابق الذي تمّ تقديمه في إيضاح علم المناسبة بين الآيات والسّور، ومن خاض فيه من العلماء قديمًا وحديثًا، لا يتعلّق بشيء ممّا يُرادُ إيضاحه في السّطور القليلة الآتية.

وقبل الخوض في شرح المقاربة التّفسيريّة الجديدة أقول:

١ ـ نوع الإعجاز اللّغوي الذي تُعنى به هذه المقاربة يتعلّقُ بتشابك المضامين وتقاطع الأثواب اللّفظيّة للسّور القرآنيّة التي تنتمي إلى أسرة واحدة؛ فالقرآنُ الكريم سوَّرَهُ الله العليم الحكيم سُوَرًا. تطول السّورة منه فتتجاوز آياتها المائتين، وتقصُرُ ليكون مقدارُها ثلاث آيات مثل سورة الكوثر، وهي في مجملها تنقسم إلى: الطِّوال والمئين والمثاني والمفصّل.

٢ ـ تتميّزُ سُوَرُ القرآن الكريم بأنّها أُسَرٌ ومجموعات مثل أسرة ﴿الٓمٓ﴾ المكوّنة من البقرة وآل عمران والعنكبوت والرّوم ولقمان والسّجدة، وأسرة الحمد لله المكوّنة من الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر، وأسرة ﴿الٓر﴾، وأسرة الطواسين، وأسرة آل حَميم، وأسرة المسبّحات السّبع، وغيرها من السّور التي تتشابه مطالعُها وتنضوي تحت مظلّات خاصّة.

٣ ـ تبدأ بعض سور القرآن الكريم بأحرف مُقَطّعة مثل (ألم، ألر، وكهيعص، ويس، وص، ق) وغيرها، وهي تسع وعشرون سورة، وتبدأ خمس وثمانون سورة، وهي القسم الثّاني من القرآن، بكلام عربيّ مفهوم منسوج على طريقة العرب في تأليف كلامهم.

وهذه المطالع المتنوّعة والمتعدّدة تثير جملة من الأسئلة في ذهن كل قارئ متدبّر في نصوص التّنزيل، وطريقة تسويره، منها:

١ ـ لماذا ثمّة سورٌ تتشابه مطالعُها إلى حد التّقاطع أحيانا مثل مَطلعي الشّعراء والقصص: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؟ و﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، و﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١ ـ ٢]؟

٢ ـ لماذا قسّم الله تبارك وتعالى السّور القرآنيّة إلى مجموعات؟

٣ ـ لماذا تبدأ بعض السّور القرآنيّة بأحرف مقطّعة، وتبدأ بقيّة السور وهي خمس وثمانون سورة بكلام واضح الألفاظ ظاهر الدّلالة؟

٤ ـ لماذا ثمّة سورٌ تتشابه فواصلُها من البداية إلى النّهاية مثل: سورة الأعلى وسورة واللّيل؟ وثمّة سورٌ أخرى تتعدّدُ فواصلُها؟

٥ ـ لماذا ثمّة سورٌ تبدأ بنفس الأنساق التّعبيريّة والتّراكيب اللّغويّة من غير أن تتشابه موادُّها المُعجميّة مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾، وغيرها من السّور التي تتشابه أنساقها التّعبيريّة في مطالعها، وتختلف موادّها المعجميّة؟

هذه خمسة أسئلة محوريّة وجيهة، تُجيبُ هذه المقاربة ـ بإذن الله تعالى ـ عن أربعة منها، ويُجيبُ كتاب «الأساور المُرصّعة في أسرار الأحرف المقطّعة» عن السؤال الثالث منها.

وتجليةً للفكرة أقول: إنّه من المسلّمات البدهيّة عند أهل العلم بالوحي أنّه ليس ثمّة تعبير في القرآن الكريم يُمكن استبدالُهُ بنظيره أو مقاربه. ليس ثمّة لفظٌ هو حَشوٌ يمكن الاستغناء عنه في التّعبير القرآني. ليس ثمّة حرفٌ من حروف المعاني أو فعلٌ أو اسم يُمكن استبداله بمقاربه أو نظيره الذي يفيد نفس المعنى في لسان العرب. ليس ثمّة أسلوبٌ يمكن تعويضُهُ بأسلوب مماثل أو مقارب لإفادة

دلالات متقاربة أو متناظرة. هذه مسلّمات ـ كما أسلفت ـ لا أحدَ من العامّة يجهلُها فضلًا عن أهل العلم والتّخصص. قال جلّ شأنه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]، وقال تبارك اسمه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

قال الإمام ابن عطيّة الأندلسي شارحًا وجه إعجاز القرآن الكريم وتحدّيه للفصحاء والبلغاء: «ووجـهُ إعجازه أنّ الله تعالى قد أحاطَ بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كلّه علمًا، فإذا ترتّبت اللّفظة من القرآن علِم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلِيَ الأولى، وتُبيّن المعنى بعد المعنى، ثمّ كذلك من أوّل القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهلُ، والنّسيانُ، والذّهول، ومعلومٌ ضرورةً أنّ بشرًا لم يكن قطّ محيطًا.

فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النّظر يبطل قولُ من قال: «إنّ العرب كان من قدرتها أن تأتي بمثل القرآن، فلمّا جاء محمدٌ ﷺ صُرِفوا عن ذلك وعجزوا عنه».

.. والصّحيح أنّ الإتيانَ بمثل القرآن لم يكن قطُّ في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصورُ البشر في أنّ الفصيحَ منهم يصنع خطبةً أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزالُ ينقّحها حولًا كاملًا، ثمّ تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامّة فيُبدّل فيها ويُنقّح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنّظر والبدل. كتابُ الله لو نُزِعت منه لفظةٌ ثمّ أُدير لسانُ العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن

مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذّوق، وجودة القريحة، ومَيْز الكلام»[١].

وحين يتعلّق الأمر ببدايات السّور القرآنيّة، لا بدّ للباحث أن يستصحب الطّريقة ذاتها في تحليل نصوص التّنزيل وتدبّرها، ودراسة المطالع والتّفكّر فيها. لماذا ـ مثلًا ـ تتشابه سورتا الفرقان والملك في مطلعيهما ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى . . . . .﴾، وتختلفان عن مائة واثنتي عشرة سورة أخرى تبدأ ببدايات مغايرة؟ أمِن المعقول أن يكون ذلك من قبيل الصُّدف أو من قبيل التّفنن والإبداع في توظيف اللّغة من دون أن يكون وراء ذلك التّنوّع في التّعبير حكمة أو قصد؟!

تعالى الله أن يكون في كلامه حرفٌ أتى في غير الموضع اللائق به. تعالى الله العليم الحكيم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء أن يكون في كلامه تكرير لمجرّد التّكرير أو لمجرّد التّفنن. تعالى الله أن يكون في كلامه تعبيران متماثلان أو متقاربان يؤدّيان الدّلالة نفسها من غير زيادة أو نقصان.

إذن ثمّة حِكَمٌ وأسرارٌ وراء تشابه المطالع، وتشابه الفواصل، وتشابه الأنساق التّعبيرية في المطالع. والبحث المتأنّي والتلاوة المتدبّرة تقودان إلى اكتشاف روابط وطيدة، وأواصر وثيقة، ووشائج قربى توجد بين السّور المتشابهة المطالع. هناك نسيج لغويّ موحّد يجمع سورتي الفرقان والملك، ويُميّزهما عمّا سواهما من سور القرآن الكريم، ويجعلهما تنتميان إلى أسرة واحدة كأنّهما أخوان أُرضِعا من لبان واحد أو توأمان انحدرا من سلالة واحدة ومن رحم واحدة؛ فهما تشتركان في الثّوب اللّفظي، في الألفاظ المستعملة،

---

(١) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، ج١، ص ٥٢.

في أنساق تعبيريّة تخصّهما. تلتقيان في بلورة مضامين معرفيّة متقاربة. تعرضان الموضوعات نفسها. أحيانا تُكمّل إحداهما الأخرى، وتارة تُفصّل إحداهما ما أوجزته قسيمتها من نفس الأسرة القرآنية، وطورًا تُجيب إحداهما عن سؤال ورد في نظيرتها، وهذا من ثمرات هذه الطّريقة في تناول النّص القرآني.

وهذا الكلام لا ينطبق على سورتي الفرقان والملك، وإنّما ينطبق على جميع السّور التي تتشابه مطالعها. ولا يسعني في هذا المدخل الممهّد للبحث إلا أن أقرّر هذه الحقيقة التي سيجد القارئ بعد صفحاتٍ صدقَها، ويتبيّن صوابها، وهي أنّ جميع السور التي تنتمي إلى أسرة واحدة، أي: التي تتشابه مطالعها مثل أسرة (الحمد لله)، وأسرة المسبّحات، وأسرة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وأسرة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وأسرة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وغيرها، كلّ أسرة لها مميّزاتها التعبيرية، ولها وشائجها المضمونيّة، ولها أنماطها وأنساقها اللغويّة، ولها قاموسُها اللّغويّ الذي يميّزها. وكل أسرة قرآنيّة تتمتّع بذات الأوصاف التي تتميّز بها الأسر البشريّة أو الكائنات الحيّة التي تنحدر من السّلالة نفسها أو من الأرومة ذاتها.

هل هذا الحديث ينطبق فقط على السّور التي تتشابه مطالعها؟ الجواب: لا، ثمّة اعتبارٌ آخر راعاه البيان القرآني هو السّور التي تتشابه فواصلها، حيث إنّ الدراسة الكاشفة أثبتت أنّ ثمّة أواصر تجمعها، وأنساقًا تعبيريّة تُوحّدها، وعلاقات تقوم بينها، وذلك ما سوف نراه ونلمسه في دراسة السّور التي تنتهي فواصلها بالألف المقصورة اللّيّنة مثل (طه، والنجم، والأعلى، والليل، والضّحى)، ومثل أسرة سورتي الكهف والجنّ اللّتين تنتهي أغلب فواصل الآيات فيهما بالدّال المفتوحة مثل: (أبدًا، أمدًا، ملتحدًا)، أو تنتهي آياتها

بكلمات لها نفس الميزان الصّرفي مثل (عجَبًا ، شططًا ، رهقًا. . . .) وغيرها.

وليست الوشائج والعلاقات الوثيقة بين المضامين والأثواب اللّفظيّة للسّور القرآنيّة متعلّقة فقط بما سبق ذكره ، وإنّما ثمّة أيضًا نوع آخر يتميّز بنفس الميزة ، وهو السّور التي تتشابه الأنساق التّعبيريّة في مطالعها من دون أن تتشابه موادّها المعجميّة من مثل: سورتي الحاقّة والقارعة اللّتين تشتركان في النّسق التّعبيري: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ والسّور التي بدأت بالمطالع القسميّة مثل: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ و﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ ، و﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ ، و﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ وأمثالها.

هذا ، ولست أروم في هذا البحث أن أستقصي جميع السّور المتشابهة المطالع ، وجميع السّور المتشابهة الفواصل ، وجميع السّور ذات الأنساق التّعبيرية المتشابهة في بداياتها بالدّراسة والتحليل ؛ فهذا أمر صعب المنال ، وغير ميسور الآن ، وإنّما حسبي في هذا الكتاب الذي أَعُدُّهُ باكورة البحث في علم المقارنات بين السّور ؛ أن أُؤصّل لهذا النّوع من التّحليل اللغوي لمجموعات الأسر القرآنيّة. حسبي أنّي أفتح الباب على مصراعيه أمام الباحثين للولوج في لجّة المقارنات بين السّور القرآنيّة ، وإيجاد العلاقات التي تربطها ، وإيضاح المناسبات التي تجمعها ، والوشائج التي تميّزها عن أخواتها ، والهندسة اللغويّة التي تشيّدها وتبنيها.

وإنّني لعلى يقين بأنّ النّظر من هذه الزّاوية في السّور القرآنيّة سيثير قضايا وأسئلة كثيرة تؤدّي إلى مزيد من الفهم لنصوص التنزيل ، وتوطّد الإيمان في قلوب المؤمنين ، وتبرهن بالأدلّة القاطعة والحجج

السّاطعة بأنّ هذا القرآن هو كلام الله المعجز الذي لا تنتهي غرائبه ، ولا تنفد عجائبه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو بهذه المواصفات التي لا تُلحَق ، تنزيل من حكيم حميد عليم بكل شيء.

قد يقول قائل: كيف اعتبرتَ هذا النّوع من التّحليل لمطالع السّور القرآنية ودراسة أثوابها اللّفظيّة مندرجًا تحت مسمّى الإعجاز اللّغوي أو البياني للقرآن الكريم؟ أوَكلّما فكّر مفكّر أو كتب كاتب شيئًا عن الذّكر الحكيم ؛ يُعَدُّ من الإعجاز؟

وإجابة لهذا السّائل الكريم أقول: بالمثال يتّضح المقال. هبْ أنّ كاتبًا مُبدعًا يُتقنُ اللّغة التي يكتب بها ، وقد أُوتِيَ فصاحة وبيانًا ، وله ثروة لغويّة غنيّة ، وإحاطة بنحو تلك اللغة وصرفها وقواعدها التّعبيرية ، هبْ أنّ هذا الكاتب طُلِبَ منه أن يكتب مقالات متنوّعة في جريدة أو مجلّة ذات شأن يقرأها المثقّفون ، ويعتاد النّشر فيها العلماء والفلاسفة والمفكّرون؛ فكتب في كل أسبوع مقالًا جيدًا ، مرّة حول شباب الأمّة ، وثانية حول ضرورة الأخذ بأسباب النّجاح ، وثالثة حول النّشاط الرياضي ، واستمرّ في كتابة هذه المقالات الرّائعة طوال عشر سنوات أو يزيد. ثم جئنا نتدبّر ونحلّل ما كتب هذا الكاتب المتميّز: أوَيستطيع هذا الكاتب أن يراعي المواضيع التي طُلب منه الكتابة فيها ، وفي الوقت ذاته يراعي أن تحمل مقالاته بصمات محدّدة ، وكلّها في المقام الأسمى من التعبير ، ويجعل كل مجموعة من المقالات تتميّز في شكل أسرة تتشابه في أثوابها اللفظيّة ، وتتناسق أساليبها ، وتتعانق ألفاظها في انسجام واتّساق ، مشكّلة أُسَرًا ومجموعات ، لكل مجموعة روح تتفرّد بها ، ونسيج يوحّدها ، وألفاظ خاصّة بها ، وتعابير وأنساق لا توجد في غيرها؟ أيكون من

السّهل أن يقدّم كاتبٌ هذا النّوع من الإنتاج الفكري واللّغوي؟

.. لا أظنُّ أنّ أيّ عاقل أُوتِيَ مثقال ذرّة من عقل أو أُوتِيَ أثارة من التفكير المنطقي الصّحيح يخالفني في قولي: إنّ هذا المرام صعب، وإنّ هذه العقبة كأداء، وإنّ هذا المطلب لا يستطيعه بشر محدود القوى، متلفّع بدثار القصور البشري، ومتسربل بكساء العجز الإنساني، وملفوف بلحاف النّسيان الجِبِلّيّ، وتحجبُه عوائق الزمان والمكان عن أن يحيط علمًا بموضوعه الذي يعالجه أو أن يكتب بلغة يستحضر جميع خصائصها، ويراعي جميع تقنياتها في كتاباته وإبداعاته. إنّ هذا النّوع من الكلام المعجز لا يصدر إلا عن إلّه وسع كلّ شيء علمًا.

أظنّ أنّك قد علمت الآن، أخي القارئ الكريم، أنّ الزّاوية التي ينظر منها هذا البحث في السّور القرآنية ليست هي ذات الزّوايا التي نظر منها الذين درسوا علم المناسبة بين السّور، والمناسبات بين الآيات على غرار ما فعل الفخر الرازي وابن الزّبير الغرناطي والبقاعي ومن اقتفى آثارهم من القدماء والمعاصرين.

إنّ الدراسات والكتابات السابقة كانت حول المناسبات بين المطالع والخواتيم، وبين العلاقات التي تربط بين السّورة وسابقتها ولاحقتها في الترتيب المصحفي، ولم تتعرّض لدراسة الرّوابط التي تربط بين السّور التي تتشابه مطالعها، والسّور التي تتشابه فواصلها، والسّور التي تتشابه الأنساق التعبيرية في بداياتها. لم تتعرّض للهندسة اللّفظيّة التي تُميّز كلّ أسرة قرآنيّة، ولم تُبرز الأثواب اللفظيّة التي تكسو كلّ أسرة، ولم تقف على الخصائص التّعبيريّة التي تتفرّد بها كلّ أسرة.

إنّ هذا البحث يؤسّس علمًا جديدًا هو علم مقارنات السّور ، وهو بحر لا ساحل له ، عميقٌ عُمْقَ البيان القرآني الذي صاغته العناية الإلهيّة على أعلى مستويات الإبداع .

بقي أن أشير إلى أنّ اتّباع هذا المهيع من التّحليل والتّفكير ، وإبراز الرّوابط التي تجمع بين السّور التي تنتمي إلى أسرة قرآنيّة واحدة ؛ يُسهم في إثراء الأبحاث المتعلّقة بتفسير القرآن الكريم ، حيث إنّ كثيرًا من الآيات وقف عندها المفسّرون ورَوَوْا فيها أقوالًا تصل أحيانا إلى حدّ التّضارب ، ولا يستطيعون التّرجيح بينها. وهنا أقول: إنّ دراسة الأسر القرآنية والنّظر في الصورة الكبيرة للمجموعات يؤدّي في نهاية البحث إلى ترجيح بعض الأقوال التي طالما ذكرها العلماء ووقفوا متوجّسين: هل يرجّحون هذا القول أم ذاك ، ولماذا؟ وما المرجّح الذي يُسوّغ هذا الفهم ويجعله هو المراد أو الأقرب إلى الصّواب؟

بل إنّ تطبيق هذه الطّريقة في تحليل النّصوص ودراستها يجيب عن أسئلة مُحيّرة جاءت في بعض السّور القرآنيّة ، ومرّت عليها الأذهان سنين طويلة بل قرونًا متطاولة ولم تنتبه إلى الإجابة عنها ، وهذا سرّ القرآن الذي لا تنتهي عجائبه ، ومن خلال قراءة الفصول القادمة ستتبيّن صحّة هذا الكلام.

ولا أبالغ إذا قلت: إنّ هذا المنهج في تحليل النّصوص والسّور القرآنيّة ، سيفتح أبوابًا من التّفكير لدى الأجيال التي ستأتي بعدنا ، وسيُغدق القرآن الكريم عليها عطاءاته التي لا تنتهي ، ويُفيض عليها من أسراره التي لا تنفد؛ لأنّ لكل عصر صولاته وجولاته ، ولكل زمن تقنياته ووسائله ، ولكل جيل مبتكراته ومخترعاته وأساليبه التي

يقرأ بها هذا النّص المعجز.

ولتسهيل شرح هذه المقاربة، وبسط الحديث فيها قسمت هذا البحث إلى: **مدخل** تحدّثت فيه عن ملمح التّجاذب اللّفظي الذي تتميّز به كلّ سورة قرآنيّة، ثم خصّصت **الفصل الأوّل** للحديث عن السّور المتشابهة المطالع، و**الفصل الثاني** للحديث عن السّور المتشابهة الفواصل، و**الفصل الثالث** للسّور المتشابهة الأنساق التّعبيريّة في بداياتها.

ثم لخّصت نتائج هذه الطريقة من التحليل والقراءة للنّص القرآني **بخاتمة** موجزة تفتح أبواب البحث أمام الباحثين المعاصرين واللاحقين.

والله أسأل أن يوفقنا لما يُحبّه ويرضاه، ويسدّد خطانا في دراسة نصوص التّنزيل، والوقوف على كثير من أسراره وجواهره ولآلئه، وأسأله جل ثناؤه أن يمدّنا جميعًا بالصّدق والإخلاص في خدمة كتابه الجليل، آمين.

* * *

كشف ترتيب نزول سور القرآن الكريم
في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة

قال مجد الدين الفيروز آبادي رحمه الله: «اتَّفقوا على أنَّ أوّل السُّور المكِّية: اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ، ثمَّ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ، ثمَّ سورة المزمِّل، ثمَّ سورة المدَّثِّر، ثمَّ سورة تبَّت، ثم إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، ثم سَبِّحِ اسْمِ رَبِّكَ الأَعْلَى، ثمَّ والليل إِذَا يغشى، ثم وَالفَجْر، ثم وَالضُّحَى، ثمَّ أَلَمْ نَشْرَح، وَزعمت الشِّيعة أنَّهما واحدَة، ثمَّ وَالعَصْرِ، ثم وَالعَادِياتْ، ثم الكوثر، ثم أَلهاكم، ثم أَرأَيت، (ثم الكافرون)، ثمَّ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ، ثم الفلق، ثم النّاس، ثم قل هو الله أَحد، ثمَّ وَالنَّجْم، ثم عَبَس، ثم القَدر، ثمَّ والشمس وَضُحَاهَا، ثم البروج، ثم وَالتِّينِ، ثم لإِيلَافِ، ثم القارعة، ثم لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة، ثم ويْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، ثم وَالمُرْسِلَاتِ، ثم ق والقرآن المجيد، ثم لَا أُقْسِمُ بهذا البلد، ثم والسّماء والطارق، ثم اقْتَرَبَتِ السَّاعَة، ثم ص، ثم الأَعراف، ثم قُلْ أُوْحِيَ، ثم يس، ثم الفرقان، ثم الملائكة، ثم مريم، ثم طه، ثم الواقعة، ثم الشّعراءُ، ثم النّمل، ثم القَصَص، ثم بني إسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم يوسف، ثم الحِجْر، ثم الأَنعام، ثم الصَّافَّات، ثم لقمان، ثم سبأ، (ثم الزمر)، ثم المؤمن، ثم (حَم السّجدة)، ثم (حَم عسق)، ثم الزّخرف، ثم الدُّخَان، ثم الجاثية، ثم الأَحقاف، ثم الذّاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم النَّحلِ، ثم سورة نوح، ثم سورة إبراهيم، ثم سورة الأَنبياءِ، ثم قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون، ثم (الم السَّجدة)، ثم الطّور، ثم

(تبارك الملك)، ثم الحاقّة، ثم سأل سائل، ثم عَمَّ يَتَسَآءَلُون، ثم النّازعات، ثم إِذَا السّماء انفطرت، ثم إِذَا السّماء انشقّت، ثم الرُّوم، ثم العنكبوت، ثم المطفِّفين. فهذه خمسٌ وثمانون سورة نزلت بمكّة[١].

وذكر هذا التّرتيب بتمامه الزركشي رحمه الله في «البرهان في علوم القرآن» (١/ ١٩٣ ـ ١٩٤) إلا أنّه قال آخره بعد ذكر سورة الروم: «وَاخْتَلَفُوا فِي آخِرِ مَا نَزَلَ بِمَكَّةَ، فَقَالَ ابن عباس: الْعَنْكَبُوتِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَعَطَاءٌ: الْمُؤْمِنُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين.

فَهَذَا تَرْتِيبُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بِمَكَّةَ، وَعَلَيْهِ اسْتَقَرَّتِ الرِّوَايَةُ مِنَ الثِّقَاتِ، وَهِيَ خَمْسٌ وَثَمَانُونَ سُورَةً.

أما السّور المدنية: فذكروا أنَّ أَوَّل ما نزل بالمدينة: سورة البقرة، ثم سورة الأَنفال، ثم سورة آل عمران، ثم الأَحزاب، ثم الممتحنة، ثم النّساءُ، ثم إذا زلزلت، ثم الحديد، ثم سورة محمد ﷺ، ثم الرّعد، ثم الرّحمن، ثم هَلْ أتى عَلَى الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم إِذا جاءَ نصر الله، ثم النّور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التّحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصّف، ثم الفتح، ثم التّوبة، ثم المائدة.

قال الفيروز آبادي رحمه الله: «فهذه جملة ما نزل بالمدينة. ولم نذكر الفاتحة لأَنَّه مختلَف فيها: قيل أُنزلت بمكة، وقيل بالمدينة؛ وقيل بكلٍّ مرة»[٢].

---

(١) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز، ج١، ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٢) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز، ج١، ص ٩٩.

جدول ترتيب السّور حسب النّزول وفق ما جاء في الرواية السابقة

١	العلق	٢٠	الفلق
٢	القلم	٢١	الناس
٣	المزمل	٢٢	الإخلاص
٤	المدثر	٢٣	النجم
٥	الفاتحة	٢٤	عبس
٦	المسد	٢٥	القدر
٧	التكوير	٢٦	الشمس
٨	الأعلى	٢٧	البروج
٩	الليل	٢٨	التين
١٠	الفجر	٢٩	قريش
١١	الضحى	٣٠	القارعة
١٢	الشرح	٣١	القيامة
١٣	العصر	٣٢	الهمزة
١٤	العاديات	٣٣	المرسلات
١٥	الكوثر	٣٤	ق
١٦	التكاثر	٣٥	البلد
١٧	الماعون	٣٦	الطارق
١٨	الكافرون	٣٧	القمر
١٩	الفيل	٣٨	ص

٣٩	الأعراف	٥٩	الزمر
٤٠	الجن	٦٠	المؤمن
٤١	يس	٦١	فصلت
٤٢	الفرقان	٦٢	الشورى
٤٣	فاطر	٦٣	الزخرف
٤٤	مريم	٦٤	الدخان
٤٥	طه	٦٥	الجاثية
٤٦	الواقعة	٦٦	الأحقاف
٤٧	الشعراء	٦٧	الذاريات
٤٨	النمل	٦٨	الغاشية
٤٩	القصص	٦٩	الكهف
٥٠	الإسراء	٧٠	النحل
٥١	يونس	٧١	نوح
٥٢	هود	٧٢	إبراهيم
٥٣	يوسف	٧٣	الأنبياء
٥٤	الحجر	٧٤	المؤمنون
٥٥	الأنعام	٧٥	السجدة
٥٦	الصافات	٧٦	الطور
٥٧	لقمان	٧٧	الملك
٥٨	سبأ	٧٨	الحاقة

٧٩	المعارج	٩٧	الرحمن
٨٠	النبأ	٩٨	الإنسان
٨١	النازعات	٩٩	الطلاق
٨٢	الانفطار	١٠٠	البيّنة
٨٣	الانشقاق	١٠١	الحشر
٨٤	الروم	١٠٢	النصر
٨٥	العنكبوت	١٠٣	النور
٨٦	المطففين	١٠٤	الحج
٨٧	البقرة	١٠٥	المنافقون
٨٨	الأنفال	١٠٦	المجادلة
٨٩	آل عمران	١٠٧	الحجرات
٩٠	الأحزاب	١٠٨	التحريم
٩١	الممتحنة	١٠٩	الجمعة
٩٢	النساء	١١٠	التغابن
٩٣	الزلزلة	١١١	الصف
٩٤	الحديد	١١٢	الفتح
٩٥	محمد (القتال)	١١٣	التوبة
٩٦	الرعد	١١٤	المائدة



المدخل

مَلمَحُ التّجاذبُ اللّفظيّ في السّورة القرآنيّة

يتميّزُ التّعبيرُ القرآنيّ بملامح وسمات تعبيريّة خاصّة تجعلهُ يتفرَّدُ مُتساميًا على جميع الأصناف الأدبيّة والأجناس التّعبيريّة المعروفة لدى قرّاء العربيّة وكتّابها ، ولا غَرْوَ في ذلك ولا عجب فَهُوَ تنزيلُ ربّ العالمين الذي أحاط بكلّ شيءٍ علمًا. والملمحُ الذي تتناولُهُ هذه المقاربةُ البحثيّةُ هو مَلمَحُ التّجاذب اللّفظيّ في السّورة القرآنيّة.

قد يتبادرُ إلى ذهن القارئ بادئَ ذي بدء أنّه موضوعٌ قريبٌ مِمّا تناولته أقلامُ باحثين سابقين تحت مُسمّيات الاختيار اللّفظي ، أو جودة انتقاء المفردة القرآنيّة ، أو ما يُشبِهُ ذلك من عناوين قريبة من هذا التّعبير ، ولكنّه في الحقيقة غيرُ ذاك ، إذْ إنّه يتمايزُ عنها ، ويتفرَّدُ بانطلاقه من رؤية جديدة في دراسة الثّوب اللّفظي للسّورة القرآنيّة

وتجليةً لموضوع البحث أقول: ليس المرادُ بيانَ جودة انتقاء الكلمة القرآنية من حيثُ دلالتها على المعنى المراد ، ومن حيثُ تناسقها مع أخواتها في السّياق الذي وردت فيه ، فهذا موضوع تناوله القدامى والمحدثون في كتاباتهم ، وقرّره نحاريرُ التّفسير وجهابذة البلاغة القرآنيّة في أسفارهم ، ومُفادُ قولهم في هذا الشّأن أنَّ الكلمة القرآنية دقيقةٌ في بابها ، مُفعَمةٌ بالدّلالات والإيحاءات في سياقها ،

ولا يمكن استبدال كلمة بأختها ، ولو أنَّ الباحث المجتهد أدار لسان العرب بُغيةَ أن يجد كلمةً تُعوّضُ كلمة قرآنية ، وتكون أحسن منها موقعًا ، وأفضل تناسقًا مع السّياق والموضوع الذي جاءت تُعبّر عنه ؛ ما هو بظافر ببغيته حتّى يلِجَ الجملُ في سمّ الخياط.

قال الرّاغب الأصفهاني متحدّثًا عن المفردة القرآنيّة ومناسبتها لموضعها الذي وردت فيه: «ألفاظُ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدتُه ، وواسطتُه وكرائمُه ، وعليها اعتمادُ الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مَفْزَعُ حُذّاق الشّعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم. وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقّات منها ، هو بالإضافة إليها كالقشور والنَّوى بالإضافة إلى أطايب الثَّمرة ، وكالحثالة والتِّبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»[1].

وفي المعنى ذاته ، قال ابن عطيّة الأندلسي: «ووجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علمًا ، وأحاط بالكلام كلّه علمًا ، فإذا ترتّبت اللفظة من القرآن علِمَ بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تليَ الأولى ، وتبيّن المعنى بعد المعنى ، ثمّ كذلك من أوّل القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنّسيان والذّهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرًا لم يكن قطّ محيطًا؛ فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا النّظر يبطل قول من قال: إنَّ العرب كان في قدرتها أنْ تأتي بمثل القرآن ، فلمّا جاء محمد ﷺ صُرِفوا عن ذلك وعجزوا عنه. والصَّحيح أنَّ الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطُّ في قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر في أنَّ الفصيح منهم يضع خطبة

---

(١) الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، د ت ، ص ٤ .

أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثمّ لا يزال ينقّحُها حولًا كاملًا ، ثمّ تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامّة فيبدّل فيها وينقّح ، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنَّظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثمَّ أُديرَ لسانُ العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد[١]» .

وقبل إيضاح معالم هذا الملمح ، أُشيرُ - كما أسلفت - إلى أنَّه لا يتعلّقُ بالاختيارات اللّفظيّة في القرآن الكريم وجودة انتقائها فقط ، وإنّما يتعلّقُ بالعلاقات التي تربطُ بين الألفاظ المستعملة في التّعبير القرآني في السّياق الواحد والسّورة الواحدة .

ولتحقيق هذا الغرض توسّلت بهذه **المقدّمة** الموضحة لموضوع البحث ، ثم خصّصت **المطلب الأوّل** من هذه المقاربة لرؤية في المصطلح ، و**المطلب الثاني** لدراسة ملمح التّجاذب اللّفظي للمادّة المعجميّة الواحدة ، و**المطلب الثالث** لدراسة ملمح التّجاذب اللّفظي للموادّ المعجميّة المتقاربة ، و**المطلب الرّابع** لبيان دور ملمح التجاذب في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم ، ثم أنهيت هذه المطالب **بخاتمة** ملخّصة لملمح التجاذب اللفظي في السورة القرآنية بشكل عام ، والله الموفق .

❊ ❊ ❊

---

(١) ابن عطية الأندلسي ، عبد الحق بن غالب ت ٥٤٢هـ ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ ، ج١ ، ص ٥٢ .

المطلب الأول
رؤية في المصطلح

مصطلح المصاحبات اللغوية:

يدور على ألسنة الباحثين والنّقّاد في الكتابات اللغوية والأدبيّة المعاصرة مصطلح «المصاحبات اللغوية»، ويُقصَد بهذا المصطلح ظاهرة تكرُّرِ اصطحاب كلمات مع كلمات أخرى في سياقٍ محدّد، وعند تكرّر هذه الظّاهرة في مواضيع وأساليب متنوعّة ترتبطان في ذهن المتلقّي ارتباطًا شرطيًّا، إذ يُصبح ينتظر سماع اللفظة الثانية بمجرد سماعه للّفظة الأولى. ومن التعريفات لهذه الظّاهرة اللغوية: «الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغةٍ ما بكلمات أخرى معيّنة دون غيرها»[(١)].

وبما أنَّ هذه الظاهرة تتعلّقُ بمفردات تنحدرُ من موادّ معجميّة مختلفة؛ فإنَّ هذا المصطلح لا يتعلّقُ بما نحن بصدد تحريره في هذا البحث.

مصطلح التّجاذب اللفظي:

التّجاذبُ لغةً من «جذب الشّيء يجذِبُه جذْبًا وجبذه، على القلب، واجتذبه إذا مدّه، وعن سيبويه: جذبه: حوّله عن موضعه، واجتذبه: استلبه، وجاذبتُهُ الشّيء: نازعته إيّاه»[(٢)].

---

(١) ينظر: «علم الدلالة»، د. أحمد مختار عمر ص ٧٤، و«وصف اللغة العربية دلاليًّا»، د. محمد يونس ص ١٠٣، و«التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه»، د. كريم زكي حسام الدين، دار غريب، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٣٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة جذب.

وجاء في أساس البلاغة: «تجاذبوا أطراف الكلام، وكانت بينهم مُجاذباتٌ ثمّ اتّفقوا»[(١)].

وقد جنحتُ إلى اختيار مصطلح **التّجاذب** لسببين:

أوّلُهما: قصورُ مصطلح «المصاحبات اللّفظيّة» عن التّعبير عن الظّاهرة المراد الحديث عنها؛ حيثُ إنَّ المصاحبات اللّفظيّة أو المتلازمات اللّفظيّة كما يُسمّيها آخرون، تُطلَقُ على أنواعٍ من العلاقات التي تربِطُ بين الألفاظ؛ فهو ينطبِقُ على الألفاظ المترادفة المتقاربة، والألفاظ التي بينها تطابُقٌ في المعنى، أو بينها تقابلٌ، أو يجمعها السّياقُ اللّغويّ المعتادُ بين النّاس، أو العهدُ الذّهنيُّ بين المتخاطبين، وغيرها.

أمّا مصطلحُ التّجاذب فأعني به تجاذب الألفاظ المنبثقة من معينٍ لغويّ واحد، أي: الألفاظ التي تكون مشتقّةً من مادّةٍ مُعجميّةٍ واحدة، وقد تتّحد أو تختلف صيغُها مثل: عالِم، وعلّام، وعليم، وعلّامة، ومعلّم، وما انحدر من جذر مادّة (علم)، ثمّ تكون مستعملةً في سياقٍ واحد أو سورةٍ بعينها متناغمةً مع محورها الرّئيس، ومنسجمةً مع جوّها العام، وخصائصها اللّفظيّة الأخرى، ونعني به أيضا تجاذب المواد اللّفظيّة التي تنتمي إلى حقل دلاليه واحد مثل الغرام والتّدمير والتّتبير والإمطار والإغراق في سورة الفرقان.

وثانيهما: أنَّ مادّة (جذب) أدلُّ على المعنى المراد التّعبير عنه في الأسلوب القرآنيّ، حيثُ يجدُ القارئُ المتدبّر تجاذُبًا فعليًّا بين الألفاظ

---

(١) الزمخشري، أساس البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، مادة جذب.

التي تصدُرُ من معينٍ مُعجميٍّ واحد.

تحسنُ الإشارةُ إلى أنَّ ملمح التّجاذب اللّفظي، تأتي أهمّيّتُهُ أيضًا من جهتين:

أوّلًا: من كونه وسيلةً لتوجيه كثيرٍ من مسائل المتشابه اللّفظي التي وردت في الذّكر الحكيم، ووقف عندها الباحثون مليًّا قديمًا وحديثًا مُتدبّرين ومتأمّلين.

وثانيًا: من كونه يُساعِدُ في إيضاح الثّوب اللّفظيّ للسّورة، وأيقوناتها اللّفظيّة التي تتردَّدُ فيها، وتصبغُها بصِبغتها التي يعرِفُها بها القرّاء والمستمعون.

* * *

المطلب الثاني

التّجاذب اللّفظي للمادّة المعجميّة الواحدة

وفيما يأتي جملةٌ من الأمثلة المتنوّعة على تجاذب المادّة المعجميّة الواحدة في السّورة الواحدة، وبيانٌ لأهميّة هذا الملمح في تجلية مضامين النّصوص القرآنيّة ودلالات الألفاظ في السّياق الواحد:

المثال الأوّل: الجار والمجرور (على آثار):

ورد التّعبيرُ بالجار والمجرور (على آثار) في سورة الكهف في معرض توجيه نبيّنا محمّد ﷺ بألّا يُهلِكَ نفسه على آثار قومه إن لم يُؤمنوا بالقرآن الكريم؛ فليس يُطلَبُ منه تحقيقُ النّتائج وإدراكُها، وإنّما هو مُكَلَّفٌ بالتّبليغ، والله خالقُ الخلق هو وحده الذي يهدي من يشاءُ، ويُضلُّ من يشاء وَفقَ حكمته ومشيئته. قال جلّ شأنه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

ومنطوقُ الآية أنَّ الله تبارك وتعالى شبّه نبيّه محمّدًا ﷺ وقومه «حين تولّوا عنه ولم يُؤمنوا به، وما تداخله من الوَجْد والأسف على تولّيهم، برجلٍ فارقه أحِبَّتُهُ وأعزَّتُهُ فهو يتساقطُ حسراتٍ على آثارهم، ويبخَعُ نفسَه وَجْدًا عليهم، وتلهُّفًا على فراقهم»[١].

والملاحَظُ هو استعمال شبه جملة (على آثارهم) بمعنى: المشي على خُطاهم، واقتفاء آثارهم أسفًا وتحسُّرًا عليهم.

في الوقت ذاته، جاء هذا التّعبير عينُهُ في سورة الكهف ذاتها قُبَيل

---

(١) الزمخشري، محمود جار الله، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ج٣، ص ٧٠٣.

نهايتها في سياق الحديث عن موسى عليه السّلام وفتاه ، حين طلب منه موسى عليه السّلام أن يُحضِرَ الطّعام لهما ، فتذكّر الفتى بعد نسيان ، وقال: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٦٣] ، ثم جاء الوصف القرآنيّ لعودتهما: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٤ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٤ ـ ٦٥].

والذي يعنينا في هذا الوصف قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ ، ما معنى هذا التّعبير في هذا السياق؟ ولماذا هذا الاختيار؟

قال الإمام البيضاوي: «﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾: فرجعا في الطّريق الذي جاءا فيه ، ﴿ قَصَصًا ﴾: يقصّان قصصًا ، أي: يتّبعان آثارهما اتّباعا أو مُقتصّين حتى أتيا الصّخرة» [١] ، وأوضح الشّهاب الخفّاجيُّ ذلك في حاشيته قائلا: «فرجعا هو معنى ارتدّا ، والذي جاءا فيه يُعلَمُ منه كونه على أثر الأوّل» [٢].

من المؤكّد أنَّ هذا التّعبيرَ جاء مناسبًا للمعنى المراد ، وهو تعبيرٌ عربيٌّ فصيحٌ معهودٌ استعمالُهُ لدى العرب الفصحاء في كلامهم ومخاطباتهم ، ولكنَّ السؤال الذي يتبادرُ إلى ذهن كل متدبّرٍ في الذكر الحكيم: لماذا تكرّر توظيف هذا التعبير (على آثار) مرّتين في السّورة ذاتها، مرّة في بدايتها (الكهف: ٦)، ومرّةً في نهايتها (الكهف: ٦٤)،

---

(١) البيضاوي ، ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ج٣ ، ص٢٨٧.

(٢) الشهاب الخفاجي ، أحمد بن محمد بن عمر ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي على تفسير البيضاوي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج٦ ، ص ١١٩.

علمًا أنّنا لا نجدُ حضورًا لهذا التعبير في سورة الإسراء قبلها ، ولا في سورة مريم بعدها مثلا؟ علمًا أنَّ هذا التّعبير (على آثار) تكرَّرَ في القرآن الكريم كلّه ٧ مرّات (المائدة: ٤٦) ، (الكهف: ٦) ، (الكهف: ٦٤)، (الصافات: ٧٠)، (الزخرف: ٢٢)، (الزخرف: ٢٣)، (الحديد: ٢٧).

أقول: إنَّ هذا التّوظيف يدلُّ على القصد ، ويدلُّ على ظاهرة التّجاذب اللّفظي في البيان القرآني ، وأنَّ الله تبارك وتعالى اختار أن يصبغَ ثوبَ سورة الكهف بهذا التعبير دون سواه مِمّا يُرادِفُهُ أو يُقارِبُهُ.

المثال الثاني: مادة (ردد):

وإذا جئنا إلى الفعل (ارتدا) المنحدر من المادة المعجميّة (ردد) ، نجد أنّه في الآية السّابقة الذِّكر جاء متوافقًا ومُنْسجمًا مع الثَّوب اللّفظي للسُّورة أيضا ، حيث لم يقل (فرجعا على آثارهما...) ، وإنّما قال ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾؛ ذلك لأنَّ هذه المادّة المعجميّة لها حضورٌ واضِحٌ ومقصودٌ في مواضع من سورة الكهف ، فقد جاء على لسان ذي القرنين متحدّثًا عن الذي ظلم ، والظّلمُ هنا بمعنى الكفر ، بأنَّهُ يُرَدُّ إلى ربّه فيُعَذِّبُهُ عذابًا نُكرًا فظيعًا: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧].

والتّعبيرُ ذاتُهُ تكرَّرَ على لسان صاحب الجنّتين الذي قاده غرورُهُ واعتزازُهُ بجنَّتيه إلى إنكار السّاعة ، وادّعى أنّه على فرض قيام السّاعة فإنَّ مآله فيها سيكونُ حسنًا: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٥ ـ ٣٦].

فانظر كيف عبّرَ بقوله ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ ﴾ ، ولم يقل: (ولئن رُجعتُ)

كما جاء على لسان الكافر المنكرِ للبعث في سورة فصّلت: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠].

أقول: من المؤكّد أنَّ ثمّةَ ما يدعو إلى هذا التّنويع في توظيف الألفاظ المتقاربة من النّاحية المعنوية، ولكن أيضًا لا ينبغي أن نغفل عن النّاحية اللّفظيّة والصّوتيّة؛ فإنَّ ديدنَ التّعبير القرآني أن يُحافِظَ على ملمح التّناسق والتّناغم بين الألفاظ المستعملة في السّورة الواحدة، وفي السّياق الواحد، والدّليل على ذلك أيضًا: توظيف مادّة (رجع) في موطن ثانٍ من سورة فصّلت. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢١]؛ ولا وجود لهذه المادّة في سورة الكهف.

المثال الثالث: المصدر الموصوف (حِجْرًا محجورًا)

الحِجرُ في اللغة معناه المنع، ومنه سُمِّيَ العقلُ «حِجرًا»، لأنّه يمنع صاحبه من الوقوع في الخطأ الذي لا يليقُ بعاقل أن يقع فيه[١]؛ فهو بوصلةٌ تُرشدُ صاحبَها إلى الطّريق الصّواب الذي ينبغي اتّباعُهُ، وتبيّنُ له مزايا كلّ فعل، ومساوئَ كلّ فعل. قال تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥].

أمَّا التّعبيرُ القرآنيّ (حجرًا محجورًا) فهو مصدرٌ موصوف باسم مفعول مُشتَقٍّ من المادّة ذاتها، وقد ورد استعمالهُ في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢]، ومعنى هذا الـمُركَّب الوصفي في هذا السّياق: واذكر يا محمد يومَ يرون الملائكةَ رُؤيةً ليست على الوجه الذي طلبوه، والصّورة التي

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حجر.

اقترحوها ، بل على وجه آخر ، وهو يوم ظهورهم لهم حين الموت ، أو عند الحشر؛ فإنَّهم يُمنَعون البُشرى يومئذ ، ولسوف يقولون عند مشاهدتهم الملائكة: حِجْرًا محجورًا على وجه الاستعاذة ، أي: اجعل بيننا وبين جهنَّم حِجرًا مانعًا ، وهي كلمةٌ كانوا يقولونها عند لقاء العدوّ ، وهجوم نازلة بهم[1].

وجاء في القرطبي قولٌ آخرُ مُفادُهُ أنَّ التّعبير (حجرًا محجورًا) يكون على لسان الملائكة حين يراهم الكافرون ، أي: حين حضور الموت أو يومَ الحشر ، قال: «يريد تقول الملائكةُ: حرامًا مُحرّمًا أن يدخُلَ الجنّة إلّا من قال لا إلهَ إلا الله ، وأقامَ شرائعها»[2].

وأيًّا ما كان القائلُ لهذا الكلام؛ فالمعنى هو الدّعاء أن يجعلَ الله تعالى بين الكافرين والبُشرى حجرًا محجورًا ، أو أنَّ الكافرين يلوذون بالله تعالى قائلين: اجعل بيننا وبين النّار حِجرًا محجورًا.

والذي تجدرُ الإشارةُ إليه في هذا المقام أنَّ هذا التّعبير لم يَرِدْ في القرآن كلّه إلّا في سورة الفرقان. ولو أنّه تمَّ توظيفُهُ مرّةً واحدةً لأمكن لقائلٍ أن يقول: إنَّ هذا التّعبير مِمّا يخُصّ سياق سورة الفرقان وحدها ، أو من الكلام الذي لا تستعمله العرب كثيرًا في كلامها ، لكنَّ اللافت للانتباه أنَّ هذا التعبير تكرَّرَ في السّورة ذاتها في موضع الحديث عن البرزخ ، الذي جعله الله تعالى بين الماء العذب الفُرات والماء المِلح الأُجاج.

---

(١) انظر: البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج ٤ ، ص ١٢٢.

(٢) القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤ ، ج ١٣ ، ص٢٠.

قال جلّ شأنه: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣]، ومعنى (حجرًا محجورًا) في هذا السّياق هو ذاتُ المعنى المراد من لفظ «البرزخ»، أي: الحاجز الذي يمنع من اختلاط الماءين: الماء الحلو الفرات، والماء المِلح الأُجاج. قال القرطبي: «(وجعل بينهما برْزخًا)، أي: حاجزًا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه، كما قال في سورة الرّحمن: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٠]، و(حِجرًا محجورًا)، أي: سِترًا مستورًا يمنعُ أحدهما من الاختلاط بالآخر؛ فالبرزخ الحاجز، والحِجر: المانِع»(١).

وكما ذكر القرطبي، فلقد جاء التّعبيرُ عن الحاجز بين البحرين في سورة الرّحمن بقوله: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٠]، بذكر (البرزخ) دون إضافة المركّب الوصفيّ (حِجرًا محجورًا)، وهذا يدعو القارئَ المتدبّرَ إلى التّساؤل: لماذا هذه الإضافة في سورة الفرقان دون سورة الرّحمن؟

من المؤكّد أنّ النّاحية المعنويّة مقصودة، فالتّعبيرُ في سورة الفرقان يدلُّ على شِدّة الحِجر والمنع؛ فالبحران لا يلتقيان أبدًا، والبرزخ الذي جعله الله بينهما لا يسمحُ بشيءٍ ولو قليل من الاختلاط. أقول: والذي سوّغ هذا الاستعمال في الفرقان أيضًا هو أنّ الكافرين يلوذون بهذا التعبير ليدفعوا عنهم النّار يوم يرون الملائكة في ذلك المشهد العصيب، ولا يُنجيهم جُؤارُهم ولا اصطراخُهم، ولا تلفُّظُهم بعبارة (حجرًا محجورًا).

فالذي دعا إلى توظيف هذا المُركّب الوصفي في مقام الحديث عن

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٣، ص٥٩.

البرزخ هو التّشابه بين المقامين، فالكفّار يريدون ويتمنّونَ أن يكون الحاجزُ مانعًا قويًّا بينهم وبين جهنّم، والله جلّ جلالُهُ قد جعل في الواقع حاجزًا قويًّا ومانعًا فاصلًا بين البحرين في الدّنيا، وهذا التّشابه بين المقامين أدّى إلى التّجاذب بين التّعبيرين في السورة ذاتها، وهذا ما نقصد إليه حينَ نتحدَّثُ عن ظاهرة التّجاذب اللّفظي في السياق الواحد، وفي السّورة الواحدة.

المثال الرابع: مادة الاستبشار

عُرضَت قِصّةُ نبيّ الله لوطٍ عليه السّلام مع قومه في عدد من السّور القرآنيّة كالأعراف، وهود، والحِجر، والشّعراء، والنّمل، والعنكبوت وغيرها، والذي أودُّ التّوقُّفَ عنده في هذه القصّة، هو وصف القرآن لكيفيّة مجيء قوم لوط عليه السّلام إليه بعدما علموا بقدوم ضيفه عليه، حيث جاء وصفهم في سورة هود بأنّهم جاؤوا يُهرعون: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: ٧٨]، وجاء وصفُ مجيئهم في سورة الحِجر بأنّهم أتوا بغرض الاستبشار أي: البحث عن خبر يسرّهم: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧].

أمّا في سورة هود، فالذي يتبادرُ أنَّ التّعبيرَ جاء على الأصل، حيثُ رَكَّز على عجلتهم وسُرعة مجيئهم إلى بيت لوطٍ عليه السلام استعجالًا منهم ليبطِشوا بضيفه، وينالوا منهم سوءًا.

أمّا في سورة الحِجر، فجاء وصفُهم بأنَّهم جاءوا يستبشرون ويتأكّدون من الفريسة التي وقعت بين أيديهم إشباعًا لرغباتهم الحيوانيّة وشهواتهم المسعورة، ووصفُهم بأنَّهم جاؤوا يستبشرون لا يتناقضُ مع مجيئهم مُسرعين، بل إنّهم أتَوهُ مُسرعين، وكانوا في الوقت ذاته يتطلّعون إلى معرفة حقيقة ضيفه، مِن أيّ جهةٍ جاؤوا؟ مَنْ هم؟ ما غرضُ زيارتهم؟

فما جاء في سورة الحِجر من حيثُ المعنى هو مُكمِّلٌ للوصف الذي وُصِفوا به في سورة هود؛ إلّا أنَّ هذا الفعل (فعل الاستبشار) الذي تمّ وصفُهم به في سورة الحِجر ؛ قد جاء أيضًا متناسقًا ومُتناغِمًا مع فعل الاستبشار ، الذي تسربلت به قصّةُ إبراهيم الخليل عليه السّلام في سورة الحِجر ثلاث مرّات في سياقٍ واحد. قال جلّ شأنه: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٥٦].

فالملائكةُ بشّروا إبراهيم عليه السّلام بغلام: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ﴾ ، فأجاب إبراهيم: ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِى . . . ﴾ ، ثم أعادت الملائكةُ تأكيد حديث البُشرى: ﴿ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

قلت: هذا الحضورُ المُكَثَّفُ لمادّة الاستبشار والبُشرى في قصّة إبراهيم عليه السّلام ؛ هو واحدٌ من المسوِّغات التي رجّحت توظيف الفعل (يستبشرون) في قصّة لوط عليه السّلام. قلت: هو عاملٌ من العوامل ، ولم أقل: هو العاملُ الوحيد الذي رجّح هذا التّوظيف؛ إذْ لا يستطيعُ أحدٌ أن يحصر أسباب أيّ استعمال في النّصّ المعجز بما يراه ، فإنَّ لله جلّ ثناؤه في القرآن الكريم أسرارًا لا يُحصيها العدُّ ، ولا يُحيطُ بها الوصفُ ، ويكفينا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

وهذا اللّونُ من توظيف المادّة اللّغويّة ذاتها في السّورة الواحدة ؛ هو عينُ مَلمح التّجاذب اللّفظي ، الذي تُعنى هذه المقاربةُ بتوضيحه وتجليته عن طريق إيضاح كيفية الاستعمال في مقامات تعبيريّة مختلفة.

المثال الخامس: مادّة (وفّى)

من المعلوم من الدّين بالضّرورة أنّ الله تبارك وتعالى يجزي يوم القيامة كلّ عامل بما عمل، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ. وقد تنوّعت أساليبُ التّعبير عن هذا المعنى في القرآن الكريم، حيث ورد التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ١٩]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ومثيلاتها من الآيات.

والذي يستوقِفُ قارئَ الذّكر الحكيم مجيءُ هذا المعنى في ثوب توفية الأعمال في سورة هود. قال جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١]، والمعنى: أنّ الله تبارك وتعالى يُوفّي كلّ عامل جزاءً مناسبًا لما عمل، وهو خبيرٌ بالظّواهر والبواطن، لا يعزُبُ عن علمه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

جاء في أنوار التّنزيل: «وإنّ كلًّا: وإنّ كلّ المختلفين المؤمنين منهم والكافرين.... لمن الذين يُوفّينّهم ربُّك جزاءَ أعمالهم»[١]، وجاء في مفاتيح الغيب: «المعنى: أنّ من عُجّلت عقوبته، ومَن

---

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج٣، ص١٥٠

أُخّرت ، ومَن صدّقَ الرُّسلَ ، ومَنْ كذّب ، فحالُهم سواءٌ في أنّه تعالى يُوفّيهم جزاءَ أعمالهم في الآخرة ، فجمعت الآيةُ الوعدَ والوعيد؛ فإنّ توفيةَ جزاء الطّاعات وَعدٌ عظيمٌ ، وتوفيةَ جزاء المعاصي وعيدٌ عظيم» [١] . .

والسّؤال الذي يقفزُ إلى الذّهن مباشرة: لماذا التعبير بمادة (التّوفية) في هذا المقام؟

والجواب ، والله أعلم بأسرار التنزيل ، أنَّ التّوفية معناها إعطاء الإنسان العامل حقّه بِدقّة متناهية ، فلا أحد يستطيع أن يُجادِلَ أو أن يدّعِيَ بأنّه ظُلِم في وزن أعماله؛ فالموازينُ التي تُوضعُ يومَ القيامة هي الموازين القسط ، والذي يُحاسبُ على جميع الأعمال هو الله تعالى العدل ، والمعيار الذي تُقاسُ به الأعمالُ وتوزن هو معيار الذّرّة والخردل: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]؛ فلا اعتراضَ أبدًا على الحكم الصّادر عن الملك الحقّ المبين؛ من هنا جاء حديثٌ عن توفية الأعمال بالموازين الدّقيقة.

هذا عن الجانب المعنوي ، أمّا إذا جئنا إلى الجانب اللّفظي فلا يسعُنا إلّا أن نقول: إنَّ هذا التّوظيف لمادة (وفّى) هو متناسبٌ ومتّسقٌ لفظيًّا مع توظيف المادّة ذاتها في قصّة شعيبٍ عليه السّلام مع قومه في أمره إيّاهم بإيفاء الكيل ، ونهيهم عن بخس النّاس أشياءهم: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥]؛ حيثُ إنّ لفظي (الإيفاء

---

(١) الفخر الرازي ، محمد بن عمر ، مفاتيح الغيب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ ، ج ١٨ ، ص ٤٠٥.

بالكيل، وعدم البخس) من أسرة الكلمات التي يُكثِرُ التّجار استعمالها، وقد كان أهل شعيب كذلك، وكان نبيُّهم شعيب عليه السّلام أيضا تاجرًا صادقًا وأمينًا، ومن الذين لا يُطفِّفون في الميزان.

وفي السّورة ذاتها جاء خطابُ الله تعالى مسلّيًا نبيّه ﷺ بأنّه سيجزي المشركين الذين يصدّون عن دين التّوحيد ويُوفّيهم نصيبهم غيرَ منقوص: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

ولسائلٍ أن يسأل: لماذا ورد التعبير في آية الإسراء عن توفية العاملين أعمالهم بفعل التّعجيل: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [الإسراء: ١٨]؟ والجواب شبيهٌ لما مرّ بيانُهُ مع الأمثلة السّابقة من مناسبة المعنى المعجمي لمقام الخطاب؛ فلا أحدَ يُنكِرُ أنَّ النّفسَ البشريّةَ تُحبُّ العاجلَ من المتاع على حدّ قول حكماء العرب: «والنّفسُ مُولَعةٌ بحبّ العاجل»، وهذا أيضًا يتناسبُ معنويًّا ولفظيًّا مع ما قرّرته آيةُ سورة الإسراء: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

ولا يخفى على المتدبّر في لغة التّنزيل أنَّ هذا التّوظيفَ، علاوةً على كونه يحملُ الدّلالات الدّقيقة المرادة منه؛ فإنَّه يُضفي على النّص مسحةً من الجمال مبعثُهُ التّناسقُ والتّجاذُبُ بين الألفاظ المتفرّعة عن جذر لغويّ واحد، وهذا يقودنا إلى التّأكيد على حقيقة من روائع حقائق الأسلوب القرآني، ألا وهي تفرُّدُ كل سورة بِصِبغة لغويّة خاصّة، أي: بجملةٍ من الألفاظ التي لا تتكرّرُ، وبجملة من الألفاظ التي تتكرَّرُ وتكون مشتقّةً من مادّة مُعجميّة واحدة، ويتمّ استعمالها في أبنية دقيقة تتناسبُ مع الدّلالات المراد التعبير عنها في هذه السورة أو تلك، وتتّسقُ مع الجوّ العام الذي يُخيّمُ عليها.

المثال السادس: مادّة (وزع)

مادّة (وزع) معناها كفُّ النّفْسِ عن هَواها. وزعه ووزع به يَزَعُ ويَزِعُ وَزْعًا: كفّه فاتَّزَعَ هو أي كَفَّ، وكذلك وزِعْتُه. والوازِعُ في الحرْبِ: المُوكَّلُ بالصُّفوفِ يَزَعُ من تقدَّم منهم بغير أَمره. ويقال: وزعت الجَيْشَ إذا حَبَسْت أَوَّلَهم على آخرهم[1].

وهذه المادّة من الموادّ المعجميّة القليلة الاستعمال؛ إذْ تكرّرت في نصوص التّنزيل خمس مرّات: ثلاثٌ منها في النَّمل في الآيات: (١٧) (١٩) (٨٣)، ومرّة في فصّلت (١٩)، وخامسةً أخرى في الأحقاف (١٥). وقد جاءت في صيغة المضارع المبني للمجهول ثلاث مرّات، وفي صيغة الأمر المراد به الدّعاء مرّتين. وفيما يأتي تفصيلٌ لورود هذا الفعل في سورة النَّمل:

جاء هذا الفعل في قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، وفي قوله جلّ ثناؤه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩]، وفي قوله تبارك اسمه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣].

الملاحَظُ أنَّ الفعل (يُوزَعون) في الموضع الأوّل معناه: «يُحبَسون بحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا»[2]. أمّا معنى الفعل ذاته في الموضع الثّاني: فمعناه: أوزعني: «اجعلني أزعُ شُكرَ نعمتك عندي، أي: أكُفّه وأرتبطه لا ينفلتُ عنّي بحيث لا أنفكّ عنه»[3].

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة وزع.
(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج٤، ص١٥٧.
(٣) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص ٣٥٧، وأنوار التنزيل، ج٤، ١٥٧.

وجاء في المفردات: «يوزعون: إشارة إلى أنّهم مع كثرتهم وتفاوتهم لم يكونوا مُهمَلين ومُبعَدين كما يكون الجيش الكثير المتأذّى بمعرّتهم بل كانوا مسوسين ومقموعين» (١).

أمّا الفعل (يوزعون) في الموضع الثالث، فقد قال الزّمخشري في إيضاح معناه: «يُحبَسُ أوّلهم على آخرهم حتّى يجتمعوا فيُكَبْكَبوا في النّار» (٢)، والمعنى ذاته كرّره بعده عددٌ من المفسّرين.

إذا استصحب القارئ الكريم في ذهنه أنَّ الفعل (وزع) لم يُستعمل في القرآن إلّا خمس مرّات: ثلاثٌ منها في النّمل، ومرّة في فصّلت (١٩)، ومرّة في الأحقاف (١٥)؛ علِمَ ما يُعطيه الحضورُ المكثّفُ لهذا الفعل القليل الاستعمال في سورة واحدة، وما يُضفيه على ثوبها اللّفظي من تناسق واتّساق، وعَلِمَ المغزى المراد من قولنا إنَّ ثمّةَ تجاذُبًا بين الألفاظ في السّورة الواحدة، وهذا ما يطبَعُها بطابع خاص.

أضف إلى جمال الاتّساق في استعمال اللفظ الواحد، دقّة توظيف (حتّى) الابتدائيّة مع الفعل (أَتَوْا) في قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل: ١٧ - ١٨]، وإتباعها بالفعل (جاء) في قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ [النمل: ٨٣ - ٨٤]. فانظر كيف جاء التّعبير حين مرور سليمان على واد النّمل بالفعل (أتوا) بعد (حتّى) الذي يمثل سهولة إتيانهم، وانظر كيف وصف مجيء النّاس يوم الفزع بالفعل (جاؤوا) بعد (حتّى)، والذي يجعلك تلتفت إلى هذا الجمال هو مجيء الفعلين المختلفين من حيث

---

(١) الراغب، المفردات في غريب ألفاظ القرآن، مادة وزع.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ٣٨٥.

المادّة (أتوا ، وجاءوا) ، والمتقاربين من حيثُ المعنى بعد عبارة (فهم يوزعون حتّى).

المثال السابع: مادة الاستفزاز

الفعلُ (استفزَّ) هو استفعل من (فزز). جاء في لسان العرب: «فزَّهُ فزًّا ، وأَفَزه: أفزعه وأزعجه ، وطيَّرَ فؤاده. واستفزّه من الشّيء: أخرجه ، واستفزّه: ختله حتّى ألقاهُ في مهلكةٍ. واستفزّه الخوفُ: أي: استخفّه»(١).

وقد وردت هذه المادّة اللّغويّةُ في سورة الإسراء ثلاث مرّات في ثلاثة مواضع مختلفات ، ولم تردْ في القرآن كلّه إلا في الإسراء.

قال جلّ ثناؤه مخاطبًا إبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال الفخر الرّازي: «يُقالُ: أَفَزهُ الخوفُ واستفزَّهُ ، أي: أزعجه واستخفّه. وصوتُهُ دعاؤُهُ إلى معصية الله تعالى. وقيل: أراد الغناء واللّهوَ واللّعب»(٢).

قال البيضاوي: «واستفزِز: واستخفف من استطعتَ منهم أن تستفِزَّهُ ، والفزّ الخفيف. بصوتك: بدعائك إلى الفساد»(٣).

والمادّة المعجميّةُ ذاتها (فزز) تكرّرت في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] ، والمعنى: «وإن كادوا: وإن كاد أهلُ مكّة.

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة: فزز.
(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج٢١ ، ص ٣٦٧.
(٣) البيضاوي ، أنوار التّنزيل ، ج٣ ، ص ٢٦٠.

ليَسْتَفِزّونكَ: لِيُزعِجونكَ بمعاداتهم. من الأرض: من أرض مكّة»[١].

وقال أبو السّعود العمّادي: «أي: كادَ أهلُ مكّةَ (ليستفِزّونك): أي: ليُزعِجونك بعداوتهم ومكرهم (من الأرض) أي: الأرض التي أنت فيها، وهي أرضُ مكّةَ»[٢].

نظيرُ ذلك أيضا مجيء هذه المادّة في وصف ما جناهُ فرعونُ على بني إسرائيل في مصر، حيثُ إنّه كان يُدبّرُ لإخراجهم من أرض مصر، ويُزعِجهم ويُرهِبهم، ويستأصل شأفتَهم من البلاد التي كان يُهيمنُ عليها بطُغيانه، ولكنَّ إرادةَ الله شاءت أن يكونَ هو الطّريد وهو الغريق، وأن يُخرِجه من قصوره ومدائنه، ويتبع مع حشد من جنوده موسى ومن خرج معه من بني إسرائيل، وكانت نهايته مأسويّةً بعيدًا عن أهله وأسرته: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

قال الشّوكاني في تفسير هذه الآية: «أراد فرعونُ أن يُخرِجَ بني إسرائيلَ وموسى ويُزعِجَهم من الأرض، يعني: أرض مصر بإبعادهم عنها. وقيل: أرادَ أن يقتلهم، وعلى هذا يُرادُ بالأرض مطلقُ الأرض، وقد تقدّم معنى الاستفزاز، فأغرقناه ومن معه جميعًا: فوقعَ عليه وعليهم الهلاكُ بالغرق، ولم يُبقِ منهم أحدًا»[٣].

مِمّا سبق يتجلّى بأنَّ الفعل (استفزّ) جاء بمعانٍ متقاربة هي: الاستخفاف والإزعاج والإخراج من الأرض. والذي يعنينا في هذا

---

(١) البيضاوي، أنوار التّنزيل، ج٣، ص ٢٦٣.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٥، ص ١٨٨.

(٣) الشّوكاني، فتح القدير، ج٣، ص ٣١٢.

المقام هو توظيف هذه المادّة (فزز) ثلاث مرّات في مواضع متقاربة في سورة واحدة وهي سورة الإسراء، وعدم ورودها مرّةً أخرى في القرآن كله. وهذا ما سمّيته في هذه المقاربة بالتّجاذب اللّفظي في السّورة القرآنية الواحدة، وعليه يُمكننا القول: إنَّ الفعل (استفزّ) على وزن (استفعل) هو مُكوّنٌ أساسيّ للثّوب اللّفظي الخاص بسورة الإسراء، ولا يلحقنا أيّ انتقاد أو بأس من إصدار هذا التّقرير والمسألةُ واضحةٌ وضوحَ الشّمس في رابعة النّهار.

* * *

المطلب الثالث

التّجاذب اللّفظي للموادّ المعجميّة المتقاربة

علاوةً على التّجاذب اللفظي الذي يحصل بين الصّيغ المختلفة للمادّة المعجميّة الواحدة في السّورة الواحدة؛ فإنَّ ثمّةَ نوعًا آخرَ من التّجاذب ميدانُهُ الموادّ اللّغويّة المتقاربة، وأعني بالمتقاربة التي تكون من باب التّقارب في المعنى، وعدلتُ عن تسميتها بالموادّ المترادفة نظرًا لما يكتنِفُ قضّيّة التّرادف في اللغة من اختلاف في الرّؤى، وتبايُنٍ في المواقف بين أهل العلم باللغة[1]، وإن كنت أميلُ إلى القول بعدم وجود التّرادف خصوصًا فيما يتعلّق بألفاظ القرآن الكريم؛ فليس ما نراه ونقرأه في نصوص التّنزيل من قبيل التّرادف، وإنّما كلّ كلمة وكل صيغة تحملُ دلالة خاصّة بها لا يؤدّيها غيرها ولا مقاربُها ولا مرادفها.

قلت: النّوع الثّاني من التّجاذب الذي أعنيه، هو التّجاذب بين الألفاظ المتقاربة في المعنى في السّورة الواحدة، وهذا النّوع يعلو خطّه البياني في بعض السّور إلى أن يصبح ظاهرةً لفظيّةً بيّنةً تلفِتُ النّظر، وقد ينخفض إلى نقطة لا يكاد يُبصرها إلّا الحاذقون في هذا الفنّ، وفيما يأتي أمثلة مُوضِحة لهذا المعنى:

المثال الأوّل:

تتميّزُ سورة الزّخرف بمحورها العام، الذي لا يخرُج عن المحاور

---

(١) انظر: بحث الترادف وأشباه الترادف في القرآن الكريم، من كتاب: دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ١٠١.

التي يتناولها القرآن المكيّ بشكل عام من توحيد الله تعالى ، ونبذ الشّرك ، وضرورة اليقين باليوم الآخر ، والتّنويه بالقرآن الكريم ، والتّنويه بالذي أُنزِلَ إليه ، مع ذكرٍ لمقتطفات من القصص الذي يخدم محورها العام. والذي تجدرُ الإشارة إليه أنّ تسمية السّورة باسم الزّخرف الذي معناه الذّهب له دلالاتٌ كثيرة؛ فليس لأجل ورود لفظ (الزخرف) فيها فقط تمَّ تسميتُها بهذا الاسم ، وإنّما المتدبّرُ في آياتها يجد أنَّ ذكر الزّخرف والذّهب وأسرتهما يُمثّلُ ملمحًا بارزًا من ملامح ثوبها اللّفظي.

وفيما يأتي عرض سريعٌ لكيفية ورود ألفاظ هذه الأسرة في السّورة:

*** الحِلية:**

يُطلَقُ لفظ (الحِلية) ويُرادُ به ما يُتَزَيَّنُ به من مصوغات أو أحجار ثمينة ، وجمعه حِلًى ، وحليّ ، وحِليات[1]. وقد تمَّ توظيفُ هذا اللّفظ في القرآن الكريم أربع مرّات: في الرّعد (١٧) ، والنَّحل (١٤) ، وفاطر (١٢) ، وفي الزّخرف (١٨).

والذي يعنينا في هذا المقام هو قوله تعالى في سورة الزّخرف: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٧ ـ ١٨].

تتحدّثُ هذه الآيةُ عن وضعٍ كان يعيشُهُ أهلُ الجاهليّة حين يرزقُ الله أحدَهم أنثى؛ إذ كانوا يتشاءمون من ولادة الأنثى ، وتُساوِرُهم الوساوسُ وظنون السّوء حين تضعُ زوجُ أحدهم أنثى ، وهم يعتقدون أنَّ الذّكرَ أفضلُ من الأنثى ، وهي مَجلبةٌ للعار والشّنار ، وكان الغلاظُ

---

(١) انظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة حلي.

الجُفاةُ منهم لا يستنكفون عن وأدها حيّةً؛ فجاءت هذه الآيةُ تنعى عليهم ذلك الفعلَ الشّنيعَ، وتُقبّحُ ذلك الجُرْمَ الفظيعَ، وتصِفُ الحالة التي يكون عليها المولودُ له من انقباض صدرٍ، وسواد وجهٍ، وامتلاء نفسه بالغيظ والرّفض لهذا المولود الجديد، ويُصبحُ يتوارى عن أبناء قومه استحياءً من المصيبة التي حلّت به، وينشغلُ فكرُهُ في كيفيّة التّخلّص منه: ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ [النّحل: ٥٩]، أي: أيُبقيها حيّةً ويتحمّلُ العارَ المتوقَّع الذي سيلحقُ به أم يئِدُها حيّةً ويتحمّلُ وزرَها يوم القيامة؟ ألا إنّها الحياةُ البئيسةُ التي كان يعيشها الجاهليّون، ويتمرّغون في حمأتها وأرجاسها.

ومحلُّ الشّاهد هنا هو قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾، وهذا التّعبيرُ كنايةٌ عن الأنثى؛ إذ هي التي من شأنها أن تُحلّى بأنواع الحلية وأن تُنَشَّأ فيها، وتوظيفُ لفظ (حِلية) في هذا التّعبير يتناسقُ ويتّسقُ مع أسرة ألفاظ الزّخرف لأنَّ من الحلية ما يكون ذهبًا، ومنها ما يكون فضّة أو غيرها. والذي يدعونا إلى القول بأنَّ هذا التّجاذب اللّفظيّ مقصودٌ؛ هو أنَّ التّعبير عن الأنثى في سورة النّحل جاء صريحًا ومباشرًا بلفظ الأنثى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨].

* **المترَفون:**

يُطالِعنا في سورة الزّخرف أيضا حديثٌ عن المترَفين في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]. والمترفون هم الأغنياء الذين وسّع الله تعالى عليهم في أسباب العيش، وأذاقهم من أصناف النِّعم فهم يتقلّبون في رغد العيش، واللّفظُ من مادّة التّرفُّه

التي تُطلَقُ على التّوسّع في النّعمة[١].

ومن مُسوّغات ذِكْرِ لفظ (المترفين) في هذا السّياق، أنَّ التّاريخَ يشهدُ أنَّ كثيرًا من المترفين كانوا يُقاطعون دعوات المرسلين، ويُجاهرونهم بالعداوات، ويستميتون في الصّدّ عن هدايات السّماء، مُتذرّعين بأوهام واهيات، وحجج داحضات مثل زعمهم تقليد الآباء والأُمّهات، وغير ذلك من الأعذار المهلهلات. ولا يخفى أنّ المترفين هم الذين يكون بين أيديهم النّصيب الأوفى من أصناف الأموال من ذهب وورِق ونقود وغيرها؛ لذا فإنَّ ذِكرَ المعارضين هنا في سورة الزّخرف بعنوان المترفين؛ يتناسقُ مع ملمح من ملامحها البارزة المتمثّل في اعتزاز المشركين وأصحاب المال بأموالهم ومقتنياتهم، التي يعتزّون بها دون احتفال بجانب المبادئ والقيم.

*** رجل عظيم:**

نظيرُ ذلك وصف اعتراض مشركي قريش على رسالة محمد ﷺ، واقتراحهم أن يُنزل الله تعالى القرآن على رجل عظيم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهذا القول منهم يعكسُ نظرَتهم المادّيّة للأمور؛ فهم لا يزِنون الأمورَ بمعيار الأخلاق الفاضلة، والمبادى السّامية التي يتّصِفُ بها الدّاعي إلى الله تعالى، بل لا يرقبون إلّا أن يكون الدّاعي من الطّبقة الغنيّة المترفة، التي تتعاظم بالجاه والسّلطان وحطام الدّنيا الزّائف.

ووصفُهم الرّجل بوصف العظيم «رَجُلٍ عَظيمٍ» في مقترحهم؛ يدلُّ بمفهوم المخالفة أنّهم كانوا يصفون محمدًا ﷺ بضدّ ذلك الوصف غير اللّائق ذِكرُه. واللّافت للانتباه أنّهم في سورة الزّخرف اعترضوا بأنَّ

---

(١) انظر: الراغب، المفردات، مادة ترفه.

المنزَل عليه ليس رجلًا عظيمًا، وهذا الموضع الوحيد الذي جاء اعتراضُهم فيه بهذا الوصف، وأمّا في المواضع الأخرى، فإنّ اعتراضاتهم كانت لا تخرج عن وصفه بالشّعر والكهانة والسّحر والجنون وغيره.

والذي سوّغ استعمالَهم هذا الوصف في هذا الموضع هو أنَّ جوّ سورة الزّخرف ـ كما علمت ـ مُترَعٌ ببيان احتفال الكافرين بالمال، واعتزازهم بالذّهب وزخرف الدّنيا الزّائل، فمن الطّبيعي أن يصفوا محمّدًا ﷺ فيها بأنّه ليس من الموسومين بمعايير العظمة المادّيّة.

وإتماما لهذا المعنى، جاء التّذييل يوضح لهم بأنَّ رحمة الله خيرٌ مما يجمعون: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]. وفي هذا التّعبير ما فيه من سمات شخصيّاتهم وملامحها؛ فهم قومٌ يقترحون مقترحات تلبّي فقط ميولهم المادّيّة وأهواءهم، وتعكسُ حبّهم للمال، وتوقيرهم للذين يجمعونه، ولا يخفى أنَّ الحديث عن جمع المال أيضًا هو ممّا يتناسب مع سورة الزّخرف وملمح الزّخرف والذّهب الخاص بها.

*** أسورة/ أساورة:**

والأمرُ ذاتُه يتجلّى في جانب القصص في سورة الزّخرف، إذ دأب فرعون على وصف موسى عليه السّلام بالجنون والسّحر والافتراء، وهذا ما يلْحظهُ قارئُ القرآن في كثير من المواضع التي وردت فيها مشاهدُ من قصّة موسى عليه السّلام. أمّا في سورة الزّخرف فالمشهد الذي ورد فيها جاء فيه احتفاءٌ بالمال وبالملك؛ ففرعونُ خرج على قومه بثوب الكبرياء والعظمة، وتعمّد في خطابه لقومه أن يُبيّنَ لهم

أنّه هو الذي يملك مصر ، ويتمتّعُ بخيراتها ، ويستحوذُ على قصورها وبساتينها وأنهارها : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزّخرف: ٥١ ـ ٥٣].

ذكر المفسّر أبو السّعود أنَّ ذكر (الأساور) أو (الأسورة) على اختلاف القراءتين هو كناية عن التّمليك. جاء في إرشاد العقل السليم: «فهلّا أُلقِيَ إليه مقاليد الملك إن كان صادقًا لما أنَّهم كانوا إذا سوّدوا رجلًا سوّروه وطوّقوهُ بطوقٍ من ذهب. وأسورةٌ جمع سِوار ، وقرِئَ (أساور) جمع أسوار بمعنى السّوار»[1].

وحين اعترض فرعونُ على رسالة موسى عليه السّلام لم يتّهمه بالسّحر كما كان شأنه في قوله: ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١] ، ولم يرْمِه بالجنون كما رماه في الشّعراء في قوله: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧] ، ولم يلقّبه بالسّاحر كما في قوله: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وإنّما تحدّاه في مقام سورة الزّخرف بأنّه ليس من أهل المال ، ولا يملك الإتيان بالملائكة مقترنين ، وليس لديه أسورةٌ يتزيّنُ بها وتدلّ على ملكه وإمساكه بزمام الأمور ، وباختصار فقد عيّره بأنّه خِلْوٌ من المال ، لا يملِكُ من حطام الدّنيا وبريقها شيئًا ، وفي ظنّه أنَّ هذا الوصفَ يُزري بموسى عليه السّلام ويُنقصُ من شأنه.

ومن نافلة القول أنَّ هذه المعايير الفرعونيّة الماديّة لا قيمة لها في

---

(١) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، ج٨ ، ص ٥٠ .

المنظور الإسلامي، والذي يعنينا هو بيان اتّساق نوع المطالب المذكورة في سورة الزّخرف، مع ملمح حبّ المال والزّخرف الذي يحتفي به الجاهليّون المادّيون في جميع الأعصار والأمصار.

* **زخرف/ فضّة:**

يُطالِعنا في سورة الزّخرف أيضا لفظتا (زخرف) و(فضّة) في سياق واحد. وإذا ذهبنا إلى المعاجم اللّغويّة؛ فإنَّ لفظ (زخرف) يُطلَقُ ويرادُ به الذّهب. جاء في المفردات: «الزّخرُفُ الزّينةُ المزوَّقةُ، ومنه قيل للذّهب: زُخرف، وزُخرف القول: المزوّقات من الكلام»[1]. وجاء في لسان العرب: «الزّخرف: الزّينة. ابن سيده: الزّخرُف: الذّهبُ. هذا الأصل، ثمّ سُمّي كلّ زينة زخرُفًا، ثمّ شُبِّهَ كلُّ مُمَوّهٍ مُزَوَّرٍ به. وبيتٌ مُزَخرَفٌ، وزَخْرَفَ البيت زَخرَفَةً: زيَّنه وأكمله. وكلُّ ما زُوِّقَ وزُيِّنَ فقد زُخرِفَ»[2].

جاءت الكلمتان (زخرف) و(فضّة) في معرض الحديث عن طبقة المُترَفين من المشركين الذين يعتدّون بالمال، ويقيسون الأمور بمقياس المادّة: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

ومعنى الآية كما جاء في مفاتيح الغيب: «لولا أن يرغب النّاسُ في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرّزق لأعطيتُهم أكثر

---

(١) الراغب، المفردات، مادة زخرف.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة زخرف.

الأسباب المفيدة للتّنعُّم ، **أحدها**: أن يكون سقفُهم من فضَّة ، **وثانيها**: معارجُ أيضًا من فضَّة عليها يظهرون ، **وثالثها**: أن نجعل لبيوتهم أبوابًا من فضّة وسُرُرًا أيضًا من فضَّة عليها يتّكئون» ، ثُمّ فسّر (الزّخرف) بأنَّه الذّهب أو الزّينة[١] .

ثُمَّ أوضح أنَّ سبب سَوْق هذا الكلام هو تصحيح المعتقدات الجاهليّة التي كانت سائدةً ومنتشرةً لدى المشركين المخاطَبين بالقرآن الكريم ، وفي هذا الرّدّ إبطالٌ لظنّهم أنَّ الرَّجل الغنيَّ أَوْلى بمنصب الرّسالة من محمّد ﷺ بسبب فقره ، فبيّن الله تعالى أنَّ المال والجاه حقيران عنده ، وأنَّ حصولهما لا يفيد حصول الشّرف الدّائم ، وإنّما متاع الدّنيا إلى زوال.

والشّاهد في هذه الآيات هو توظيفُ كلمتي (فضّة) و(زخرف) في سياق بيان حقيقة الحياة الدّنيا ، والكَشف عن أنَّ ميزان المادّيّات غيرُ مرعيٍّ عند الله تعالى ، وإنّما معاييرُ الإيمان الصّحيح والقيم النّبيلة هي التي ينبغي أن تحكم النّاس في الحياة الدّنيا ، وبناءً على الالتزام بها تُقاسُ سعادةُ الإنسان وشقاوتُهُ.

❊ صحاف من ذهب:

ويزدادُ الباحثُ تيقُّنًا من ظاهرة التّجاذب اللّفظي بين الكلمات المتقاربة في السّورة الواحدة؛ حين تقعُ عينُهُ على مشهد تكريم المتّقين في الجنّات في نهاية سورة الزّخرف ، حيث يُطالِعُه وصف الصّحاف التي يأكل منها المكرَّمون بأنّها من ذهب ، وتُمثّلُ هذه الآيةُ قمّة سامقة من ذُرى وصف النّعيم الذي يُجازي به الله الكريم أولياءه؛ إذ لم يرِد لفظ (صحاف) في القرآن الكريم كلّه إلّا في هذه الآية

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج٢٧ ، ص٦٣١ .

الكريمة، والذي يزيد هذا المشهد روعة أنَّ هذه الصّحاف هي من ذهب، فأين أوصاف متاع الدّنيا من أوصاف نعيم الآخرة! قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

كما هو واضح في كثير من آي الذّكر الحكيم، لقد جاء وصفُ نعيم الآخرة بأوصاف متنوّعة؛ فبعضُ الآيات جاء فيها ذِكرُ الأكواب مطلقةً بدون وصف: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩]، وبعضها وصفت الأكواب والآنية بأنّها من فضّة: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥ ـ ١٦]. ولكنَّ اللافت للانتباه في سورة الزّخرف أنَّ الصّحاف من ذهب، والصّحاف جمع (صحفة) التي هي بهيئة الجَفنة التي يأكل منها خمسةُ أشخاص. جاء في فتح القدير: «الصِّحاف جمع صحفة وهي: القصعة الواسعة العريضة. قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة وهي تُشبعُ عشرة، ثم الصَّحفة وهي تُشبع خمسة، ثم المكيلة وهي تُشبع الرَّجلين والثلاثة، والمعنى: أنَّ لهم في الجنّة أطعمةً يُطافُ عليهم بها في صحاف الذَّهب، ولهم فيها أشربة يطاف عليهم بها في الأكواب وهي جمع كوب. قال الجوهري: الكوب: كوز لا عروة له، والجمع: أكواب»[1].

وأُضيف بأنَّ الأكواب المُتَحدَّث عنها هنا هي أكوابٌ من ذهب، لأنَّ وصفها محذوف دلّ عليه الوصف السّابق، وهذا كثيرٌ في التعبير القرآني، والتّقدير: يُطافُ عليهم بصحافٍ من ذهب وأكواب من ذهب على شاكلة قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرّعد: ٣٥].

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج٤، ص٦٤٥.

من الأمثلة السّابقة يتبيّنُ للمتدبّر في التّعبير القرآني أنَّ ظاهرة التّجاذب اللّفظي بين الألفاظ المتقاربة المعنى مقصودةٌ وشائعةٌ في سور القرآن الكريم ، بل تُمثّلُ ملمحًا بارزًا من ملامح السّور وخصائصها اللّفظيّة.

المثال الثاني: أسرة القصم والتّفريق والإهلاك:

من الكلمات المتقاربة التي حفِلَت بها سورةُ الأنبياء: **القصمُ**، **والدَّمغ**، **والزّهوق**، **والجُذاذ**، **والقَذف**، **والتّقطُّع**، **والحصيد**. والمتأمّلُ في هذه الألفاظ يجد أنّه يجمعها ـ على تفرّقها ـ معانٍ منها: التّقسيم والتّفريق والإهلاك وتصيير الشّيء من حالة الوجود إلى حالة العدم ، أو من حالة الحياة إلى حالة الموت.

وهذه الألفاظ هي في جملتها أساليبُ من طرق الإهلاك ، الذي تكرّر ذِكرُهُ في سورة الأنبياء ثلاث مرّات:

قال تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦] ، وقال جلّ شأنه: ﴿ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩] ، ، وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

وفيما يأتي وقفات قصيرةٌ مع دلالات هذه الموادّ المعجميّة في القواميس والمعاجم العربية وكتب التّفسير حتّى يتّضح مدى التّقارب أو الاختلاف بين دلالاتها.

● **القَصم**: القصم لُغةً «دقُّ الشّيء. يُقالُ للظّالم: قصمَ اللهُ ظهرَه. ابن سيده: القصمُ كسرُ الشّيء الشّديد حتّى يبين»[1]. وجاء في

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قصم.

الكشّاف في موضع تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]: «القصم أفظع الكسر، وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم»[١].

● **القَذف**: هو رَميُ الشّيء وإلقاؤه بشِدّة. جاء في تاج العروس: «قَذَفَ بالحِجارَةِ يَقْذِفُ - بالكسرِ - قَذْفاً: رَمَى بِها. يُقالُ: هُم بَيْنَ حاذِفٍ وقاذِفٍ؛ فالحاذِفُ بالعَصَا والقاذِفُ بالحِجارةِ. نقله الجَوْهَرِيُّ. ويُقالُ أَيضا: بين حاذٍ وقاذٍ على التَّرخِيم. وقال اللَّيْثُ: القَذْفُ: الرَّمْيُ بالسَّهْم والحَصَى والكَلام وكُلِّ شيءٍ، وقَوْلُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨]. قالَ الزَّجّاجُ: مَعْناه: يَأْتِي بالحَقِّ ويَرْمِي بالحَقِّ، كما قالَ تَعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]»[٢].

● **الدّمغ**: جاء في لسان العرب: «الدِّماغُ حَشْوُ الرَّأْسِ، والجمع أَدْمِغةٌ ودُمُغٌ وأُمّ الدِّماغِ الهامةُ وقيل الجلدة الرَّقِيقةُ المشتملة عليه، والدَّمْغُ كسر الصَّاقُورةِ عن الدِّماغ، دَمَغَه يَدْمَغُه دَمْغًا فهو مَدْموغٌ ودَمِيغٌ، والجمع دَمْغى. ودَمَغَه أَصابَ دِماغَه، ودَمَغَه دَمْغًا شَجَّه حتى بَلَغَتِ الشجّةُ الدّماغ واسمها الدَّامِغةُ»[٣].

● **الزّهوق**: الزُّهوقُ في لغة العرب الهلاك والاضمحلال. جاء في لسان العرب: «زهَقَ الشيءُ يَزْهَقُ زُهوقًا فهو زاهِقٌ وزَهوقٌ: بطَل وهلَك واضْمَحَلّ. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وزهَقَ الباطلُ: إذا غَلَبَه الحقّ»[٤].

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص١٠٥.
(٢) الزّبيدي، تاج العروس، مادة قذف.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة دمغ.
(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة زهق.

وقد جاءت هذه الموادّ المعجميّة الثلاث: (قذف) و(دمغ) و(زهق) في سياق واحد في قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

جاء في أنوار التّنزيل: «﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾: إضرابٌ عن اتّخاذ اللّهو وتنزيهٌ لذاته عن اللّعب. أي: بل من شأننا أن نُغلّبَ الحقَّ الذي من جملته الجِدُّ على الباطل الذي من عَداده اللّهوُ. (فيدمغُهُ): فيمحقُهُ. وإنّما استعارَ لذلك القَذفَ وهو الرّميُ البعيدُ المستلزِمُ لصلابة المرمى، والدّمغُ الذي هو كسرُ الدِّماغ بحيثُ يشقّ غشاؤهُ المؤدّي إلى زهوق الرّوح تصويرًا لإبطاله به ومبالغة فيه»[1].

● **الجُذاذ**: من الجَذّ. و«الجَذُّ كسر الشّيء الصُّلْب. جَذَذْتُ الشّيءَ كسرتُه وقطَعْتُه، والجُذاذُ والجِذاذُ ما كسر منه، وضمُّهُ أفصحُ من كسره، والجَذُّ القَطْع، وجَذَّهُ يَجُذُّهُ جَذًّا فهو مجذوذ وجَذيذ، وجَذَّذَه فانْجَذَّ وتَجَذَّذ، وفي التنزيل: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]، فسّره أبو عبيد: غير مقطوع»[2].

وقد ورد لفظ (جُذاذ) في قوله تعالى: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧ ـ ٥٨] في وصف الطريقة التي كسّر بها إبراهيم الأصنام التي كان يعبُدُها قومه؛ فإنّه لم يكتف بتحطيمها أو إسقاطها من مواضعها، وإنّما جعلها جُذاذًا وقِطعًا مبالغةً منه في دحض الشّرك والأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ.

---

(١) البيضاوي، أنوار التّنزيل، ج٤، ص ٤٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة جذذ.

● **التّقطُّع**: مصدر الفعل (تقطّع) المضعّف الذي يفيد ببنيته كثرة القطع. وقد جاء توظيفُ هذه المادّة في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]. والمعنى: «تفرّقوا في دينهم الذي قضى الله به عليهم، ودعاهم إليه فصاروا فيه أحزابًا»(١). ولا يخفى على العليم باللّسان العربي أنَّ المرادَ تصويرُ شدّة تفرّقهم إلى فرق وأحزاب كثيرة.

وَوَصْفُ تفرّقهم بالتّقطّع من باب التّشبيه. قال الشيخ محمد الطّاهر ابن عاشور: «والتّقطُّعُ مُطاوعُ قطع، أي: تفرّقوا. وأسند التّقطُّع إليهم لأنّهم جعلوا أنفسهم فِرَقًا فعبدوا آلهةً مُتعدّدةً واتّخذت كلُّ قبيلةٍ لنفسها إلهًا من الأصنام مع الله، فشبّهَ فِعلَهم ذلك بالتّقَطُّع»(٢).

● **حصيد**: الحصيد هو الزّرع المحصود. والحصدُ جزّ الزّرع والنّبات بالمِنجل لا باليد. ولفظ (حصيد) على وزن (فعيل) بمعنى مفعول، وقد جاء توظيف هذه المادّة في قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]. أي: جعلناهم مثل الحصيد، شبّههم به في استئصالهم واصطلامهم، كما تقول: جعلناهم رمادًا، أي: مثل الرّماد.

جاء في التّحرير والتّنوير: شُبّهوا بزرعٍ حُصِدَ، أي: بعد أن كان قائمًا على سوقه خضِرًا؛ فهو يتضمّنُ تشبيههم قبلَ هلاكهم بزرعٍ في حسن المنظر والطّلعة»(٣).

---

(١) القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج٧، ص ٤٨١٢.
(٢) ابن عاشور، التّحرير والتنوير، ج١٧، ص ١٤٢.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧، ص ٢٨.

مِمّا سبق استعراضه من ألفاظ (**القصم** ، **والدَّمغ** ، **والزّهوق** ، **والجُذاذ** ، **والقَذف** ، **والتّقطُّع** ، **والحصيد**) ، والتي هي في معظمها متقاربةٌ في إفادة معنى التّقطيع والتّفريق والحصد والإهلاك ، يتبيّنُ القارئَ بوضوح لا يدعُ مجالًا للشّك أنَّ التّجاذبَ بين الكلمات المتقاربة في دلالاتها شيءٌ لافتٌ للانتباه ، وهو ملمحٌ مرعيّ في الأسلوب القرآني.

* * *

المطلب الرّابع

دور ملمح التجاذب في توجيه المتشابه اللفظي

المثال الأول: تنوّع التعبير في مقولة إبليس:

بعدما استيقن إبليس بأنَّ مأواه النّار، طلب من الله تعالى أن يُنظِرَه إلى يوم يُبعثون، وأقسم بأنّه لن يألُوَ جهدًا في إضلال بني آدم إلّا المُخلَصين منهم، وقد جاء هذا المعنى في أثواب تعبيريّة شتّى منها قولُه تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠]، وجاء على لسان إبليس في سورة (ص): ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]، وأنطقه جلَّ ثناؤُهُ في سورة الإسراء بقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، بينما جاء في سورة الأعراف في المشهد ذاته أنّه حلف قائلًا: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

قد يسأل سائلٌ: ما الكلام الذي قاله إبليس فِعْلا؟ أهو الكلام الذي جاء على لسانه في سورة الأعراف، أم في سورة الحجر، أم في سورة الإسراء، أم في سورة ص؟

والإجابةُ عن هذا التّساؤل تندرجُ ضمن الحديث الذي أدلى به الباحثون في علوم القرآن والتّفسير خلال تناوُلِهم أسبابَ تنوّع التّعبير في القصص القرآني بشكل عام. ذكر صاحبُ التّحرير والتّنوير في المقدّمة السّابعة جملةً من أسباب تنوّع الأسلوب في عرض القصّة

القرآنيّة الواحدة منها: تجنُّبُ التّطويل في الحكاية الواحدة، حيثُ يقتصر على موضع العبرة منها في موضع، ويذكر آخر في موضع آخر، فيحصل من مُتفرّق مواضعها في القرآن كمالُ القصّة أو كمال المقصود منها، ومنها أن يكون بعضُ القصّة المذكور في موضع مناسبًا للحالة المقصودة من سامعيها، فإنّها تارةً تُساقُ إلى المُشركين، وتارةً إلى أهل الكتاب، وتارةً تُساقُ إلى المؤمنين، وتارة إلى كليهما... وبذلك تتفاوتُ بالإطناب والإيجاز حسب المقامات[١].

وهذا الكلامُ وجيهٌ وسديدٌ في عمومه، وهو صادرٌ عن عَلَمٍ من أعلام التّفسير والبيان، ولكنّه لا يشفي غليل الباحث المتطلّع إلى سبر أغوار المتشابه اللّفظي؛ فلا يكفي القول بأنَّ التّعابير المتشابهة التي تُعبِّرُ عن الموقف الواحد، وعن المشهد الواحد، جاءت كذلك لبيان التّفنُّن في العبارة القرآنيّة، وتنشيط ذهن القارئ والسّامع كما ورد في التحرير والتنوير في مواضع[٢]، أو لاختلاف العِبرة المسوق من أجلها الخبرُ أو القِصّة، أو أَنَّ هذا التّنوُّعَ في العبارة هو لمراعاة مقامات الخطاب، فالحديث الذي يُوَجّه لأهل الكتاب، غيرُ الحديث الذي يُوَجّهُ للمؤمنين، وما يخاطَبُ به المنافقون لا يُناسبُ أن يُخاطَبَ به المؤمنون، هذا صحيح ولكن لا يكفي.

والذي أراه، وتحملُ هذه المقاربةُ البحثيّةُ جزءًا منه، هو أنَّ كثيرًا من الأثواب التّعبيريّة المتنوّعة في البيان القرآني، وكثيرًا من أسرار المتشابه اللّفظي مردُّها إلى مراعاة الجوّ العام للسّورة التي ورد فيها التّعبير، وإلى الخصائص التَّعبيريّة التي تتميّزُ بها السّورة التي ورد فيها

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص ٦٩.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص ١١٦.

التّعبير، وثوبها اللّفظيّ العام؛ فإذا جئنا إلى المقولات التي جاءت على لسان إبليس في الآيات السّالفة الذِّكر، فإنّك حين تتدبّرُ في فهم معانيها، وتتمعَّن في مدلولات ألفاظها، وطريقة نظم تراكيبها اللّغويّة بأعين علوم البلاغة الثّلاثة، وبمنظار الرّؤية الشّاملة التّكامليّة للثّوب اللّفظيّ للسّورة القرآنيّة، فإنّك واقفٌ بتوفيق الله وهدايته على مِفصل الأمر ومِحزّه، وفيما يأتي ذِكرٌ لبعض أسباب اختلاف العبارات التي جاءت على لسان إبليس؛ ففي سورة الحِجر أقسم قائلًا: بسببٍ مِمّا أغويتني، لأُزَيِّنَنَّ لهم إلا عبادك منهم المُخلَصين، ولا يخفى أنَّ تزيين الأعمال السّيّئة هي من تلبيس إبليس؛ فهو يجتهد في الوسوسة، وإلقاء الخواطر الشّيطانيّة، وتزيين كل ما من شأنه أن يجذِبَ الإنسان المكلّف إلى ما يَغمِسُهُ في حمأة المعاصي والمحرّمات.

الذي يشدُّ انتباهَ القارئَ في هذه الآية هو قَسَمُ إبليس على أن يُزيّن للنّاس، فلماذا التّزيين في هذا المقام؟ عند التّدبّر في سورة الحجر والنّظر في آياتها نظرة شاملة؛ يجد القارئُ أنَّ التّزيين ورد فيها في موضع آخر وهو تزيين البروج للنّاظرين: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]، فكأنَّ إبليس الذي طُرِدَ من رحمة الله تعالى يقول بلسان حاله ومقاله: إذا كنت يا ألله زيّنتَ البروج للنّاظرين، وطلبت من عبادك النّظر والتأمّل في هذا الكون العظيم للاستدلال به على وحدانيّتك وعظمتك وتفرّدك بالخلق، فإنّي سأسعى جاهدًا لإغواء عبادك، وتزيين ما حرّمت عليهم في أعيُنهم، ولا يخفى ما في هذا التّصرُّف من إبليس من عناد وجحود، وقد كانَ كُفرُهُ كُفرَ إباءٍ واستكبار، وقد أنظره الله تعالى بوعد منه جلّ ثناؤه إلى يوم يُبعثون.

وجاء في آية الحجر نفسها (٣٩) أنّه في خطابه لله تعالى قال:

﴿ رَبِّ ﴾ ، وهذا يتناسبُ مع ذكر لفظ الرّبوبيّة في بدء قصّة آدم وإبليس في سورة الحجر التي مطلعُها هو : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨]؛ بينما جاء في كلام إبليس في سورة (ص) أنّه أقسم بعِزة الله : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣] ، والقسم بعزّة الله تعالى في هذا الموضع من سورة (ص) يتناسبُ مع العِزّة والشّقاق التي وصف الله تعالى بها أهلَ الكفر في مَطلَعها : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص: ١ ـ ٢] ، ويتناسقُ ذلك أيضًا مع قول أحد الخصمين اللّذين تقاضيا إلى داوود عليه السّلام حيثُ قال أحدهم: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٣]؛ حيثُ استعمل لفظ (عزّني) ولم يقل: غَلبني أو بزّني ، أو حاججني أو ما يقارب معناها. وجاء حَلِفُهُ في هذه الآية على إغواء بني آدم لا على التّزيين ، وهذا يتناسبُ مع دور إبليس العام ، وصفته التي يتميّزُ بها وهي الإغواءُ والوسوسة.

بينما جاء في حديثه في سورة الإسراء قولُه: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ. . . ﴾ ، وهنا يتبادرُ هذا السؤّال: لماذا اعترضَ إبليسُ في هذا الموطن من سورة الإسراء وأبدى عدمَ رضاه عن تكريم الله تعالى لآدم عليه السلام؟ أقول: لأنّ سورة الإسراء هي سورة تكريم الإنسان؛ حيثُ ورد فيها البيانُ الإلهيُّ العظيم الذي قرّرَ الله العليم الحكيمُ فيه تكريمَ بني آدم كلّهم: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ ومن هنا أيضا أمر الله سبحانه وتعالى المسلم في السّورة ذاتها أن يقول لوالديه أو لأحدهما إذا بلغ أحدُهما أو كلاهُما الكِبرَ عنده ، أن يقول لهما قولًا كريمًا ، ولم يقل: قولًا معروفًا ، أو قولًا ليّنًا ، وإنّما يقولُ: (قولًا كريمًا) مُراعاةً للجوّ العام

لسورة الإسراء التي يُعَدُّ التّكريمُ أيقونةً من أيقوناتها اللّفظيّة، وهذا هو عينُ التّجاذب اللّفظي الذي تُوَصِّلُ له هذه المُقاربةُ التفسيريّة.

ومن التّجاذب اللّفظي في الآية ذاتها (الإسراء: ٦٢) تحديد إبليس بأنَّه سيجتهد في إضلال ذريّة آدم واحتناكها و«الاحتناك هو: الاستيلاء، أي: لأستوليَنَّ عليهم بالإغواء والإضلال. قال الواحدي: أصلُهُ من احتناك الجراد الزّرع، وهو أن تستأصلَه بأحناكها وتُفسِدَهُ، هذا هو الأصل، ثُمَّ سُمّيَ الاستيلاءُ على الشّيء وأخذُهُ كلّه احتناكًا. وقيل: معناهُ: لأسوقَنَّهم حيثُ شئت، وأقودنَّهم حيثُ أردت»[1]، ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢]. فلماذا تمَّ اختيارُ لفظ (ذرّيّته) في هذا السياق تحديدًا دون المواضع السّتة الأُخرى التي وردت فيها قصّة آدم وإبليس؟ والجواب أنّ في مطلع سورة الإسراء، وجّه الله تبارك وتعالى الخطاب إلى بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، وأطلق عليهم عنوان (ذرية من حملنا مع نوح) في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٢ ـ ٣]، فكأنَّ إبليس العنيد، انتقامًا من الذّريّة التي اصطفاها الله تعالى وبيّن لهم بأنّهم من ذريّة قومٍ صالحين، والأَوْلى بهم أن يُحافِظوا على منهج سلفهم الصّالح من الأنبياء والمرسلين؛ عزم أن ينتقِم من ذريّة آدم، واستعمل اللّفظ ذاته (ذريّة). فانظر، يا رعاك الله، إلى عظمة الاتّساق والتّناسق في انتقاء الألفاظ واستعمالها، بل انظر إلى تناغمها وتجاوبها فيما بينها.

وإذا جئنا إلى حديث إبليس في سورة الأعراف، فإنّه أقسم بأنّه

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج٣، ص ٢٨٦،

يقعد للصّالحين في صراط الله المستقيم ليُضِلّهم ويُبعِدَهم عنه: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

ويستوقفُ كلَّ قارئ عمليّةُ قعود إبليس في الصّراط المستقيم، ولماذا هذا الاختيار هنا؟ والجواب المؤكّدُ الذي لا ريبَ فيه: هو أنَّ هذا الاختيار ـ علاوة على أسرار أخرى الله يعلمها ـ يُلبّي ملمح التّجاذب اللّفظي، الذي تتسربل بها السّور القرآنيّة جميعها حتى غدا ملمحًا هامًّا وعاملًا أساسًا في توضيح كثير من الفروق الدّقيقة المتعلّقة بالمتشابه اللّفظي.

قلت: إنَّ هذا الاختيار: أوّلًا يخدم المعنى المراد في سورة الأعراف، وهو أنَّ إبليس لا يألو جهدًا في الإفساد بين المؤمنين وزرع الضّغينة والشّنآن بينهم، فهو يقعُدُ في طريقهم مُتَرَصِّدًا لكل حركاتهم وسكناتهم، وفي الوقت ذاته يتناغم ويتّسق مع نظيره المستعمل على لسان نبيّ الله هود عليه السلام حين قال لقومه ناهيًا ومُؤدّبًا: ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وهكذا يلحظ القارئ المُتدبِّرُ في كلام الله تعالى، أنَّ ظاهرة التّجاذب اللّفظي تُسهم في تجلية كثير من الإشكالات والمسائل العويصات، التي ظلّت رِدحا من الزّمن تُؤرِّقُ كثيرًا من التّالين لكلام الله تعالى.

المثال الثاني: مادّة (مزق)

تتحدَّثُ كثيرٌ من الآيات في القرآن الكريم عن استنكار الكافرين للبعث، وتعجّبهم من أن يُعيدهم الله تعالى إلى الحياة يوم القيامة،

وإحالتهم النّشور بعد أن تصبح عظامهم بالية، ونخرة، ورميمًا، وترابًا. والمُلاحظ أنَّ التّعبير عن هذا المعنى جاء بأساليبَ متنوّعة، وقوالبَ تعبيريّة شتّى؛ فتارةً جاء على ألسنة الكافرين: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠]، وطورًا قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١١]، وثالثة قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، ورابعة أخرى قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، وهي كلّها تعابيرُ تصبُّ في مورد واحد، ولكن ـ كما أسلفت ـ تختلفُ أثوابها اللّفظيّة، ويتميَّزُ بعضُها عن بعضٍ بإضافاتٍ هي في مجملها تتوافقُ مع أجواء السّور والمقامات الخطابيّة التي وردت فيها.

والذي يعنينا في هذا المقام ما تردَّدَ على لسان الذين كفروا في سورة سبأ حيث قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]؛ حيثُ استعمل الكافرون عبارة (مُزِّقْنا كلَّ مُمزَّقٍ) للتّعبير عن تفرّق عظامهم بعد الموت، ودخولها في مراحل البِلى والتّفتت والتّحلّل.

جاء في فتح القدير: «﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قال بعضٌ لبعضٍ، ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمدًا ﷺ، أي: هل نُرشِدكم إلى رجلٍ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: أي: يُخبِرُكم بأمرٍ عجيبٍ، ونبإٍ غريب هو أنّكم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، أي: فُرِّقتُم كلَّ تفريقٍ، وقُطِّعتُم كلَّ تقطيع، وصِرْتُم بعدَ موتِكم رُفاتًا وتُرابًا، ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: تُخلقون خلقًا جديدًا، وتُبْعثون من قبوركم أحياء، وتعودون إلى الصّور التي كنتم عليها»[1].

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج٤، ص٣٥٩.

وهذا المعنى هو ذاته الذي عبّر عنه المفسّرون السّابقون في أسفارهم[١]. والذي يستوقفُ المتدبّرَ في هذه الآية الكريمة هو البحثُ عن مسوّغ توظيف عبارة ﴿مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ في هذا السّياق دون غيره من المواضع التي سبق ذِكرُها وأمثالها من الآيات المتحدّثة عن استنكار الكافرين البعث بعد الموت.

والسّببُ، والله أعلمُ بأسرار التّنزيل، أنَّ الذين كفروا الذين جاء ذِكرُهم في سورة سبأ هم من أشدِّ الكافرين كُفرًا وإنكارًا للبعث والنّشور؛ فقد جاء وصفُهم بأشدّ أوصاف الكفر وأعماله، وبأنّهم مُعاجزون؛ فقد جاء وصفُهم بأنّهم سَعَوْا للتّعجيز بصيغة الماضي، ويسعون للتّعجيز بصيغة المضارع، أي: أنَّ شأنهم المعاجزة، والبحث عن أيِّ سبب أو مُستَنَدٍ يُمكنهم الاتّكاء عليه لدحض حجج الإسلام وآياته النّاصعات: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [سبأ: ٥]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨]، وهم موقنون أنَّ السّاعة لا تأتيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ [سبأ: ٣].

وجاء وصفُهم أيضا بأنّهم لا يؤمنون بالآخرة، وبأنّهم منغمسون في ضلال بعيد: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨]، وهم يفتخرون بمتاع الدّنيا وحُطامها، وكثرة الأولاد والأموال: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] وغير ذلك من صفات أهل الكفر والإشراك؛ فمن الطبيعي أن يكونوا من الذين يستبعدون بشِدّة العودة بعد الممات، والوقوف بين يدي الله الواحد

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٥٦٩، والجامع لأحكام القرآن، ج١٣، ص٢٢٨.

الدّيّان ، من هنا جاء قوله تعالى: ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ مُعبّرًا عن شدّة استبعادهم لأمر النّشر والبعث بعد الموت ، بأن وصفوا تفتُّتَ عظامهم وتعرُّضَها للبلى بالتّمزيق الذي تتعرّضُ له الأوراقُ فيجعلها إربًا إربًا.

هذا من النّاحية المعنويّة ، أمّا من النّاحية اللّفظيّة ، فهذا التّعبير يتجاذبُ كثيرًا مع النّتيجة التي حاقت بأهل سبإ حين دَعَوْا على أنفسهم قائلين: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩]؛ فكان جزاؤهم أنّ عاقبهم سبحانه فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

جاء في التّحرير والتّنوير: «والتّمزيقُ: تقطيعُ الثّوب قِطعًا ، استُعيرَ هنا للتّفريق تشبيهًا لتفريق جامعة القوم شذرَ مذرَ بتمزيق الثّوب قِطعًا»[(١)].

فانظر كيف تجاذبَ التّعبيران ، حديثُ الكافرين أنَّهم لا يرجعون بعد أن يُمَزَّقوا كلَّ مُمَزَّقٍ ، وحديث الله تعالى عن أهل سبأ الذين مزّقَهم كلّ مُمَزّق ، وليس التّشابه مقصورًا على المادّة المُعجميّة فقط ، وإنّما يكمن التّطابقُ في توظيف التّركيب اللّغوي نفسه ، وإن شئتَ فانظر إلى ما يُحدثه التعبير بـلفظ (كل) ، وإضافة المصدر الميمي (مُمَزّق) إليها في الجملتين.

مِمّا سبق عرضُهُ يتبيّنُ بجلاء لا يقبلُ أثارةً من شكّ أنَّ ظاهرة التّجاذب اللّفظي مَلمحٌ لفظيّ بارزٌ ، وسمةٌ لفظيّةٌ متأصّلةٌ في التّعبير القرآني بشكل عام ، وفي كل سورة قرآنيّة بشكل خاص. وكما أنَّ الله تبارك وتعالى أنزل القرآنَ كلّه بلسانٍ عربيّ مبين ، وكلّ ألفاظه منتقاةٌ

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج٢٢ ، ص١٧٨.

من معين لسان العرب ، كذلك دلّ الاستقراءُ أنَّه جلَّ ثناؤه خصَّ كلّ سورة بطابع أسلوبيّ خاص ، وبثوبٍ لفظيّ مُكوّنٍ من لبنات لفظيّة متّسقة مع جوّها العام ، متجاذبةً فيما بينها ، وفي أحيان كثيرة تتفرّد بها سورةٌ بعينها دون أن تتكرَّرَ في سور أخرى ، وهذا يؤدّي إلى إضفاء مسحة جماليّة على نصوص التّنزيل المعجز.

والآن أخي القارئ ، أقول: أمّا بعدُ ، فإذا توصّلنا بالأدلّة التي سبق عرض نماذج منها إلى أنّ كلّ سورة قرآنيّة تنفرد بثوب لفظيّ خاص ، يُعرّفُ بها ، ويُميّزها عن أخواتها ، فما بالنا حين نجد سورتين تتقاطعان في نفس الثّوب اللّفظيّ ، أي: تشتركان في كثير من الألفاظ ، والأنساق التّعبيريّة التي لا توجد في غيرهما؟ وتشتركان في كثير من المضامين والموضوعات؟ ما قولنا حين نجد أنّ مجموعة من السّور تتقاطع وتشترك في كثير من الألفظ والتعابير ، وفي الوقت ذاته تكون هذه السُّوَرُ متشابهة في مطالعها ، أو متشابهة في فواصلها ، أو متشابهة في الأنماط التعبيرية التي تبدأ بها؟ أفلا يدعونا هذا التماثل في الأثواب اللفظيّة إلى مزيد من الدّراسة والتّدبّر في هذه الأسر إلى أن نجد الخيوط التي تربط بينها ، وإلى أن نجد الهندسة التي تتحكم في أبنيتها وأنسجتها التّعبيرية؟

هذه الأسئلة ومثيلاتها تُحاول الفصول والمباحث الآتية الإجابة عنها بإذن الله تعالى.

* * *

الفَصْلُ الأَوَّلُ

السُّور المتشابهة المطالع





المبحث الأول

سُوَرُ الحمد

(الفاتحة، وفاطر، والأنعام، وسبأ، والكهف)

١ ـ أنزل الله تبارك وتعالى خمس سور افتتحها بإسناد الحمد لذاته العليّة، وهي الفاتحةُ (٥نزولًا)، وفاطر (٤٣ نزولًا)، والأنعام (٥٥ نزولًا)، وسبأ (٥٨ نزولًا)، والكهف (٦٩ نزولًا)، وَفقَ ترتيب النّزول المُعتَمد عند أئمّة علوم القرآن[1]:

والسُّوَرُ الخمسُ تتفاوتُ من حيثُ الطّولُ والقِصرُ؛ إذْ تُعَدُّ فاتحةُ الكتاب من قصار السّور لاشتمالها على سبع آيات، وتُعَدُّ الأنعام من الطوال، والكهف من المئين، وسبأ وفاطر من المثاني.

٢ ـ وغنيٌّ عن البيان، والحديثُ يدورُ حولَ شخصيّة السّورة القرآنية، أن أُقرِّرَ ما سبق أن ذكره علماءُ التّنزيل، وقرّروهُ في أسفار علوم القرآن والتّفسير من عظمة فاتحة الكتاب، وعُلُوِّ شأنها بين سور القرآن كلِّها؛ فهي فاتحةُ الكتاب، وأمُّ الكتاب، وأمّ القرآن، والسَّبع المثاني، وسورة الحمد، وسورة الكنز، والشّافية، والوافية،

---

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ج١، ص ٢٤٩.

والواقية ، والكافية ، وسورة الصّلاة ، وغيرها من الأسماء التي أفاض في عرضها علماء التنزيل[١] ، وكثرةُ الأسماء دليلٌ على شرف المسمّى ، ويكفيها تقدُّمًا على أخواتها المكّيّات والمدنيّات أن قدَّمها الله تعالى في المصحف الشريف على الزّهراوين وبقيّة سور القرآن الكريم ، ولا صلاةَ لمن لا يقرأُ بها ، وكلُّ صلاة خلت من تلاوتها فهي خِداجٌ ، خِداجٌ ، خِداج.

٣ ـ جمعت الفاتحةُ الكلّيّات الإيمانيّة الكبرى لدين الإسلام ، فهي عناوينُ للدّين الخاتم الذي اصطفاهُ الله للإنسانيّة جمعاء إلى أن يرِثَ الله الأرض ومن عليها ، والكلّيّات الإيمانية الكبرى هي:

الإيمانُ بالله تعالى ، وبكونه ربًّا للعالمين.

الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلا.

الإيمانُ باليوم الآخر ، وإقامة الجزاء فيه.

إفراد الله بالعبادة والاستعانة ، فلا معبود بحقّ إلا الله ، ولا مُستعانَ به إلا الله تعالى.

الله تعالى هو الهادي إلى الصراط المستقيم.

الصراط المستقيم الذي أوضح القرآن الكريم والسنّة الصّحيحة معالمَهُ هو صراطُ الأنبياء والمرسلين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

التنفير من سلوك السّبل الملتوية التي سلكها المغضوب عليهم (اليهود) والضّالّون (النصارى).

٤ ـ وهذه الكليّات الإيمانية الكبرى جاء ذِكرُها وتفصيلُ القول فيها

---

(١) انظر السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج١ ، ص ٧٠ ، ٧١.

في كثير من السّور المكيّة والمدنيّة، والذي يعنينا في هذا المقام هو بيانُ الخيوط الرّابطة، والأعمدة الهندسيّة القويّة التي تقومُ عليها سُوَرُ الحمد الخمس: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر. ولقد أسلفت القول: إنَّ السور القرآنيّة ذات المطالع المتطابقة يُوحِّدُها ويربطُ بين نسيج كلٍّ منها رباطٌ قويٌّ من المضامين والمحتويات والألفاظ يجعلُها تنتمي إلى أسرةٍ واحدة، وليس من قبيل الصّدفة أن تبدأَ سوَرٌ بعينها ببدايات متطابقة، وتُفتَتَحَ سور أخرى بافتتاحيات مختلفة، ثم لا ينتبِهُ القارئُ المتدبّرُ والمستمِعُ المُنصِتُ إلى ما يجمعها وما يربِطها، بل عينُ الحكمة والرّشاد أن يتطلّع الباحث إلى ما يجمع بين السّور التي تكون مطالِعها متشابهة ومتطابقة، وعدمُ فعل ذلك هو مظنّةُ التساؤل والاستفسار.

سورةُ فاطر تعريفٌ بربّ العالمين:

٥ ـ فبعد أن يتلُوَ القارئُ سورة الفاتحة، ويُقِرَّ بأنَّ جميعَ المحامد، وبأنَّ جميع أنواع الشّكر والثناء مُستَحَقَّةٌ لله تعالى وحدَه لا شريك له، إله العالمين وربّ العالمين، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، جاءت فاتحة سورة فاطر تُعرِّفُ بربِّ العالمين بأنَّه هو فاطر السّماوات والأرض: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

٦ ـ والحمد لله ربّ العالمين، فهو المتصرِّفُ في شأن الملائكة: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

٧ ـ ولمّا قرّرَ القارئُ في تلاوته، وتقرّرَ في ذِهن المستمِع المتدبِّر ووِجدانه أنَّ الله تعالى هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، جاءت

الآيةُ الثانية من فاطر تُوضِحُ مدى سعة رحمة الله وشمولها ووصولها للعالمين: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

٨ ـ ثمَّ توالت غالبيةُ آيات سورة فاطر تُعَدِّدُ النِّعَمَ العظيمة، والآلاء الجسيمة التي سخّرها الله المُنعِمُ الوهّابُ في الكون، يرُبُّ بها خلقَه، من إنسان، وحيوان، وجماد.

قال جلَّ شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

٩ ـ ثُمَّ ذكَّرت السّورةُ بتكذيب الأقوام السّابقين لرُسُلِهم السّابقين، وطمأنت محمدًا ﷺ بأنَّه ليسَ أوّلَ نبيٍّ يُكَذّبُ، بل هو واحدٌ من كوكبة الأنبياء والمرسلين الذين كُذِّبوا وأُوذوا وازدُجروا: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [فاطر: ٤].

١٠ ـ ثُمّ جاءت إشارةٌ خاطفةٌ تُبيِّنُ صِحَّةَ وعد الله بأنَّهُ واقعٌ لا محالةَ، فاللهُ وعدَ في آياتٍ من الذِّكر بأنَّهُ باعثُ الخلقَ وجامِعُهم ليومٍ لا ريبَ فيه للحساب والجزاء، ولا يتصرَّفُ حينئذٍ أحدٌ إلّا بإذنه، فهو الإلهُ الفردُ الأحدُ الملِكُ المُتصرِّفُ في يوم الدّين، وهذا ما تُصرِّحُ به آيةُ الفاتحة ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾؛ فلا مالِكَ سواه، والكلُّ سوفَ يقفُ بين يديه لينالَ جزاءَ ما قدَّمَ؛ فهذا الوعدُ حقٌّ لا مِريةَ فيه، وهذه حقيقةٌ إيمانيّةٌ كبرى ينبغي لكلّ مؤمنٍ الإيمانُ بها، بل يجبُ عليه أن يعتقِدَ يقينًا بوقوعها، ويعقِدَ عليها في سويداء قلبه، وهذا معنى كَوْنِ هذه الحقيقة رُكنًا من أركان العقيدة الإسلاميّة، ومِن ثَمَّ جاءت الآيةُ الخامسةُ من سورة فاطر تُنادي النّاسَ جميعًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ

ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]، وكأنّي بالآية الكريمة تُنادي النّاسَ جميعًا: اعتقِدوا اعتقادًا جازِمًا بالبعث في اليوم الآخر، وبالوُقوفِ بين يدي الله تعالى؛ فلا تغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا فأنتم مُنتقِلون إلى دار القرار والخلود.

١١ - وبعدَ حديثٍ مُقتضَبٍ عن الشّيطان، وإيضاح عداوتِه للمؤمنين، وبيان سوء مصير الكافرين، ومُواساة الرّسول ﷺ بأنَّ كُفْرَ مَن كفرَ لا يضرُّهُ شيئًا: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨]، بدأت جولةٌ كبيرةٌ على صفحات سورة فاطر تُعدِّدُ نِعمًا كثيرةً يرُبُّ الله تعالى بها عبادَه، وهي في حقيقتها تفسيرٌ لمعنى ربوبيّة الله للعالَمين: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، والقارئُ الرّشيدُ يحمَدُ الله تعالى عندما يقرأُ بيانَ كلِّ نعمة:

فالحمدُ لله؛ فهو الذي ﴿ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

والحمدُ لله الذي أعزَّ عباده المؤمنين بالإيمان؛ فهو العزيزُ الغالبُ، ومَنْ ابتغى العِزّةَ في غير شِقِّ المؤمنين فقد ضلَّ عن سواء السّبيل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠].

والحمدُ لله على أنْ خلقنا في أحسن تقويم أسوياء: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١].

والحمدُ لله الذي سخَّرَ البحرين، وجعلَ فيهما نِعمًا وخصائصَ ينتفِعُ بها النّاسُ أجمعون: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢].

والحمدُ لله على بديع خلقه في الكون، وتسخيره للشّمس والقمر، وجَعْل الخلق يذوقون بَرْدَ اللّيل وراحةَ الجسم في جُنح الظّلام، وينتفعون بوهج الشّمس، ويستثمرون ضياءها وطاقتها في إعمار الأرض في النّهار: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣].

١٢ ـ ثُمَّ شرعت الجولةُ الثانيةُ في بيان فَقْر الخلائق كلِّها لله الغنيِّ الحميد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]، وهو العليمُ الحكيمُ علّامُ الغيوب ذو المشيئة المُطلَقة: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر: ١٦ ـ ١٧].

١٣ ـ ثمَّ عاد السّياق من جديد إلى تَعداد النِّعم؛ حيث ذكر الله تبارك وتعالى نِعمةَ البصر، ونِعمةَ الظّلمات والنّور، ونعمة الظِّلّ والحرور ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢١]، ونِعمة إرسال محمد ﷺ بشيرًا ونذيرًا: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

ثُمَّ جاء دورُ ذِكْرِ نِعمة إنزال الماء من السّماء: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧]، ونعمة اختلاف ألوان الناس والدّوابّ والأنعام، وذِكْرِ نعمة العلم، وخشية العلماء من الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨].

١٤ ـ ثمَّ عرّج السّياقُ على النِّعم المعنويّة، وجاء دورُ ذِكر نِعمة

إنزال الكتاب الخاتم، الذي يتضمَّنُ المعجزة العقليّة الخالدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠]، وبيان أنَّ القرآن هو الحقُّ جاء مُصدِّقًا للرّسول الذي بين يديه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

١٥ ـ ثُمَّ توالت سورة فاطر تُعدِّدُ النِّعمَ التي يرُبُّ بها ربُّ العالمين عبادَه في الدُّنيا، وعرّجت على ذِكر ما يُجازيهم به إن هم اتّقوا وآمنوا وعملوا عملًا صالحًا، وهي آياتٌ تُشوِّقُ المؤمنين إلى الدّار الآخرة حيثُ يجزيهم الله تعالى بالجنّات والنَّعيم المقيم: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

ومن بين التّرابط الذي يلمحُه القارئُ المُتدبّر من باب تكامُل آيات الموضوع الواحد، ومن قبيل التّرابط الموضوعي بين السّور المتشابهة المطالع، نجدُ أنَّ جنّات عدنٍ جاء ذِكرُها في سورة فاطر بشيءٍ من الاقتضاب والإيجاز، وجاء ذِكرُها في نظيرتها سورة الكهف بشيءٍ من الإطناب المفيد والتّفصيل الواصف حيثُ جاء فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠ ـ ٣١].

فمن الواضح أنَّ آيتي الكهف بيّنتا النَّعيم، ووصفتا ما يجدُهُ المؤمنون في جنّات عدنٍ، وكيفَ أنَّ الأنهارَ تجري من تحتها، وبيان ما يلبسون فيها، والذّهب الذي يُحلَّون به فيها، ووصف الأرائك والفُرُش التي يتّكئون عليها، وهذا هو ما لم تُفصِّلْ فيه القولَ آيةُ فاطر؛ فآيةُ فاطرٍ مُمهِّدةٌ مُؤصِّلةٌ، وآيةُ الكهف مُبيِّنةٌ مفصّلةٌ.

١٦ ـ ثُمَّ توالت الآياتُ تصِفُ للمؤمنين النّارَ التي يصطرِخُ فيها الكافرون يومَ القيامة ، تنفيرًا لهم منها ، فَمَنْ خافَ النّارَ ، أعدَّ إيمانًا وعملًا صالحًا يقيه منها: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

١٧ ـ ثُمَّ عرَّج البيانُ القرآنيُّ متحدِّثًا عن نعمة جعل الله الخلقَ خلائفَ في الأرض ، مُفنِّدًا وداحضًا أفكارَ المشركين ، ومُبيِّنًا شناعتَها ، ثُمَّ بيّنت رعايةَ الله ربِّ العالمين للخلق أجمعين بإمساكه السّموات والأرض أن تزولا: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

١٨ ـ ثُمَّ ختمَ جلَّ ثناؤُهُ السورةَ بتوجيه النّاس جميعًا إلى دراسة التاريخ ، تاريخ الأمم والشّعوب ، ودراسة أسباب تطوُّرِهم وتعميرهم الأرض ، وأسباب نُزول التَّدمير والعقاب بهم.

وهكذا يتجلّى بوضوحٍ لا مجالَ لأثارةٍ من شكٍّ لكلّ قارئٍ مُتدبِّرٍ كيفَ أنَّ سورة فاطر وهيَ الثانية نزولًا من السور المفتتحة بـ (الحمدُ لله) ، جاءت لبيان الآيتين العظيمتين الأُوليين لفاتحة الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٣].

روابط سورة فاطر بأخواتها من سور الحمد:

١٩ ـ خصّصت سورة فاطر الحمدَ بالله فاطر السماوات والأرض: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] ، وذكرت سورة الأنعام بأنَّ الحمد مُستَحقٌّ للذي خلق السّماوات والأرض: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] ، وذكرت سورة سبأ بأنَّ الحمد مُستَحقٌّ لله الذي له ما في السّماوات وما في الأرض ، وزادت على أختيها بأنْ

قرّرت بأنَّ له الحمد في الآخرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

ولا يخفى أنَّ ذِكرَ أنَّ الله وحده هو الذي يستحقُّ الحمدَ في الآخرة، يتناسقُ مع حديث سورة سبأ المستفيض عن الآخرة ولقاء الله تعالى فيها.

٢٠ ـ ذكرت سورةُ فاطر هذا الاستفهام الذي الغرضُ من ورائه تقريرُ الكافرين بالنّفي، أي: أنّه لا رازقَ لهم ولا لغيرهم إلا الله، فلماذا يتوجّه النّاسُ إلى سواه؟ ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، وزادت سورة سبأ مسألةَ الرّزق إيضاحًا بحثّ الرّسول ﷺ بأن يسألَ الناس جميعًا: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

٢١ ـ جاء في سورة فاطر في موضعين حديثٌ فيه تسليةٌ للرّسول ﷺ بأنَّ كثيرًا من الأقوام السابقين كذّبوا رسل الله من قَبلِ قريش: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

وبالمقابل قرّرت سورة الأنعام الثالثة نزولًا من سور الحمد هذا المعنى، وصدّرته بلام التوكيد وحرف التحقيق (قد): ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]. وقرّرت تكذيبهم بصيغة المُضيّ مُنبّهةً إلى المصير الشّنيع الذي حاق بالمكذّبين في الدّنيا، ويحيقُ بهم في الآخرة: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥].

٢٢ ـ نظير التّكذيب الاستهزاء، حيث جاء في سورة الأنعام حديث عن استهزاء الأقوام برسل الله تعالى. قال جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، ثُمَّ جاء بيانُ نوع من أنواع استهزاء الكافرين وتهكّمهم بيوم البعث في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

٢٣ ـ قرّرت سورة فاطر أنَّ وعد الله الذي جاء ذِكرُه في فاتحة الكتاب في قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، هو حقٌّ وواقعٌ لا مريةَ فيه ولا ارتياب. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، أمّا سورة سبأ فأظهرت تساؤُلَ الكافرين عن هذا الوعد: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [سبأ: ٢٩]، فأجابهم الله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠].

ثُمَّ جاءت سورة الكهف في نهاية جولات سور الحمد تُقرِّرُ أنَّ وعدَ الله حقٌّ، مُرسِّخةً هذا المبدأَ الإيمانيَّ العظيم (مبدأ الرجوع إلى الله) عبرَ تفصيلِ القول في قصّة أهلِ الكهف الذين أنامهم الله تعالى فترةً طويلةً ثُمَّ بعثَهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١].

٢٤ ـ حذَّرت سورة فاطر من الشّيطان، وقرّرت بأسلوب مُؤكَّدٍ أنَّ الشيطانَ عدوٌّ مبينٌ للجنس البشري؛ وعليه فعلى الناس جميعًا أن يحذروه ويتّخذوه عدوًّا: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ثُمَّ جاءت سورة الأنعام بعدها فعمّقت هذا المعنى في نفوس المؤمنين، وزادتهم تحذيرًا من مكر

الشّيطان ، وأيقظتهم إلى عدم الوقوع في مصايده وأحابيله ، وبيّنت أنّ الشّيطانَ هو الذي زيّنَ للمنحرفين والمُجرمين ما يعملون: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣] ، ثُمّ جاءت الآيةُ (١٤٢) من الأنعام تُبيِّنُ أنَّ للشيطان خُطواتٍ مُمَهِّدة وجاذبة ومُغرية تُوقعُ الغافلين ، وتُزِلُّ أقدامهم: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

ثُمّ جاءت سورة سبأ ضاربةً المثل بقوم سبأ الذين أنعم الله تعالى عليهم بِنِعمٍ شتّى، ولكنّهم أعرضوا، فجازاهم الله بما صنعوا، وضرب بهم المثلَ، ثمّ علّقَ البيانُ القرآنيُّ مُوضِحًا استمالةَ إبليسَ لهم، وجذبهم إلى حزبه: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠].

٢٥ ـ ذكرت سورةُ فاطر جزاء الذين كفروا ، وجزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وبدأت بذكر الذينَ كفروا نظرا لقرب الحديث عن الشّيطان الذي يسعى جاهدًا ليجعلَ مُتّبعيه في عذاب السّعير: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [فاطر: ٧] ، وجاء فيها أيضا ذكرٌ لعذاب الذين كفروا منفردين: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر: ٣٦].

ثُمّ جاء في سورة سبأ حديثٌ عن الفريقين ، ولكنّها تحدّثت عن فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثمّ عن الذين كفروا وبيّنت وجهًا من وجوه كفرهم أنّهم سَعَوْا مُعاجزين في آيات الله ، وأنّى لهم ذلك: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: ٥].

٢٦ - بيّنت سورةُ فاطر لمحمد ﷺ أنَّ الذين اشتروا الضلالة بالهدى، وآثروا الكفرَ على الإيمان، قد زيّنَ لهم الشّيطانُ أعمالَهم، فرأوها حسنةً، ثُمّ نهاهُ أن يكترِثَ لحالهم السيّئة، فهم المسؤولون عن اختياراتهم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، وأتمّت سورة الكهف هذا المعنى، وزادته إيضاحًا، وخاطب الله جلَّ ثناؤه نبيّ الرّحمة قائلًا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]: فلا تُهلك نفسك من أجلهم، فلقد اتّضحت معالمُ الحقّ في أعيُنهم وبصائرهم، وهم الذين اختاروا الكفر على الإيمان، وهم الذين يتحمّلون وِزرَ ما اختاروا.

٢٧ - بيّنت سورة فاطر جانبًا من مراحل خلق الإنسان إرشادًا للإنسان أن يعود إلى ربّه، ويفيء إلى دائرة الإيمان والعمل الصالح: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: ١١]، وأوضحت سورة الكهف إيضاحًا عمليًّا إلى ضرورة انتباه الإنسان إلى أصل خِلقته، وعدم اغتراره بحاله التي هو عليها الآن، بل عليه أن يذكر حالةَ خلقه يومَ انتقل من المرحلة الترابية إلى مرحلة النطفة فالعلقة، لعلّ ذلك يُوقظُ فيه روحَ الإيمان، وجِذوةَ العقيدة الصّحيحة. تمثّل ذلك عمليًّا في محاورة الرّجل المؤمن الصّالح للرّجل الكافر الجاحد: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].

والملاحَظُ أنّ الآيتين تحدّثتا عن مرحلتي التّراب والنّطفة فقط، وهذا توافقٌ دقيق، بينما تحدّثت آيات أُخرُ كما في (المؤمنون) و(الحج) وغيرهما عن مراحل متعددة لأطوار خلق الإنسان.

٢٨ ـ ذكرت سورةُ فاطر أنَّ كلَّ ما يقعُ في الكون، وما يُولَدُ من مولود، وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّر، ولا يُنقَصُ من عمره، إلّا وهو مُسجَّلٌ في كتابٍ مبين: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، وقرّرت سورة الأنعام هذا المبدأ الإيمانيّ ذاته مبيِّنةً أنَّ الله تبارك وتعالى عنده مفاتح الغيب، ولا يعزُبُ عن علمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وتناولت سورة سبأ الموضوع ذاته بمزيد من التّقرير والإيضاح ذاكرةً أنَّ الله تبارك وتعالى لا يعزبُ عن علمه ما هو أقلّ من الورقة والحبّة؛ فهو العليم بما هو أقلّ من الذّرة وأصغر منها: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

٢٩ ـ عرّفت سورة فاطر ربَّ العالمين بذكر أشياء ممّا خلق وأبدع، منها أنّه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وذكرت سورة الأنعام أنّه هو الذي خلق السّماوات والأرض ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وأبدعهما من عدم: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

٣٠ ـ ذكرت سورة فاطر أنَّ الله عالمُ غيب السماوات والأرض: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨]، وذكرت سورة سبأ أمثلةً دقيقةً لعلمه الشّامل المحيط

الذي لا يعزبُ عنه شيء في الكون كلّه: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢]، وذكرت سورة الأنعام أنّه سبحانه وتعالى يعلمُ سِرَّ الناس وجهرهم جميعًا: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣]، وذكرت سورة الكهف مثالًا تطبيقيًّا لعلم الله المحيط الأزليّ، الذي لا يغيب عنه شيء حين عرّج السياقُ على ذكر عدد فتية الكهف، وعدد السنين التي قضوها في كهفهم: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [الكهف: ٢٢]، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ ﴾ [الكهف: ٢٦].

٣١ ـ قرّرت سورة فاطر أنَّ الكافرين أقسموا أيمانًا مغلّظةً أنَّهم لئن جاءهم نذيرٌ لاتّبعوه وكانوا من أهدى الأمم، ولكنّهم لفرط جحودهم وضلالهم، لمّا جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلا نفورًا: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢]، وأتمّت سورةُ الأنعام بيان هذا المعنى، وأوضحت أنَّ مشركي مكّة أقسموا لمحمد ﷺ أنه لئن جاءتهم آيةٌ حسّيّةٌ يرونها ليُؤمننّ بها ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، فأجابهم القرآن: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

٣٢ ـ قرّرت سورةُ فاطر أنَّ كلَّ إنسان يتحمّلُ مسؤولية ما يصدرُ عنه من أفعال: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓۗ ﴾ [فاطر: ١٨]، وزادت سورة الأنعام هذه القاعدة الإيمانية تقريرًا وترسيخًا في وجدان المؤمنين: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

٣٣ ـ جاء في سورة فاطر نفيُ أن يستويَ الأعمى والبصير، فشتّان

ما بين الرَّجُلين: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨]، ووجّه الله تعالى رسوله ﷺ في الأنعام إلى أن يُلقِيَ في أسماع العالمين هذا السؤال الذي يهزُّ القلوب والألباب: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] بغرض زيادة تقرير النّفي.

٣٤ ـ قرّرت سورة فاطر أنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي جعل الناس خلائف في الأرض، ووجَّههم إلى الإيمان بالله تعالى وبسط أدلّة التّوحيد بين أيديهم، وتوعّدهم بنار جهنّم في حال الكفر والإشراك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩]، ثمَّ جاءت سورة الأنعام تُقرِّرُ المعنى ذاته، وتبيّنُ أنَّ البشرَ هم خلائف الأرض، وأنَّ الله رفع بعضهم فوق بعض درجات ليبلُوَهم أيُّهم أحسن عملًا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

٣٥ ـ ذكرت فاتحةُ الكتاب أنَّ الله ربَّ العالمين هو وحده المُستحِقُّ لجميع المحامد، ويتضمَّنُ هذا إحقاقَ كل أركان التّوحيد، وذكرت سورة فاطر أنَّ الشّركاءَ الذين يدعوهم المشركون لا يملكون شيئا ولو كان قطميرًا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وأوضحت أنّ الشركاء المزعومين لايسمعون، ولا يُجيبون سائلًا فضلًا عن قضاء حاجته: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، وتحدّتهم الآية (٤٠) بأنّ الشركاء المزعومين لم يخلقوا شيئًا من الأرض: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ

ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠]، ثمّ جاءت سورة الأنعام فأمرت رسولَ الله ﷺ أن يقولَ للناس كافة: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، وأوضح الله تعالى بأسلوب الاستفهام الإنكاري أنّه لا شريك له إطلاقًا في الوجود كله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ثم ذكر أنّهم يوم القيامة يتمُّ حشرُهم مع شركائهم، ثم يقالُ لهم على وجه التوبيخ والتبكيت والتقريع: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢].

ثم جاءت سورة سبأ (الرّابعة من سور الحمد نزولًا) وتهكّمت بالكافرين، وأمرتهم بأن يدعوا شركاءهم الذين زعموا أنّهم يملكون شيئا من دون الله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢]، ثمّ صوّرت سورة الكهف المشهد نفسه عندما يكون المشركون موقوفين في يوم القيامة فيقال لهم: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾ [الكهف: ٥٢]، وبيّنت بطريقة عمليّةٍ إيمانَ أهل الكهف الذين فارقوا ديارهم، وهجروا قومهم لأنّهم لم يرضوا العيش تحت راية الشّرك، وآثروا الاعتزال للعيش في ظلال التوحيد: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ [الكهف: ١٤ ـ ١٥].

٣٦ ـ وضرب الله مثلًا آخر لقضية عدم انتفاع المشركين بشركائهم، وبيّن مصيرهم الشّنيع، بضرب مثل الرّجل المؤمن الذي

نصح صاحبه الكافر الذي اعتدّ بماله وجاهه ونسي ربّه ، بل كفر به ، ثم لمّا طاف على جنّته طائف الهلاك ندِمَ وأصبح يقلّبُ كفّيه على ما أنفق فيها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] ، أي: أنَّ البيان العمليّ لعاقبة الإشراك جاء ذكرُه في آخر سورة من سور الحمد حتّى يتّعِظَ المتدبّرون الذاكرون ، ويعتبر المعتبرون.

٣٧ - قررت سورة فاطر أنَّ الله تبارك وتعالى أرسل محمدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] ، وقرّرت سورة سبأ المعنى ذاته بأسلوب الحصر المكوّن من أداة النّفي (ما) ، وأداة الاستثناء (إلا): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]؛ فآيةُ فاطر قرّرت أنَّ الله تعالى أرسل محمدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا بالحق ، وأضافت آية سبأ بأنّه مُرسلٌ إلى جميع الناس ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

وكما تحدّثت سورتا فاطر وسبأ عن إرسال رسولنا محمد ﷺ بشيرًا ونذيرًا للعالمين؛ فإن سورتي الأنعام والكهف قرّرتا بأنَّ جميع الأنبياء والمرسلين أرسلهم الله تعالى مُبشّرين ومنذرين. قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨] ، وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وإذا كان المرسلون قد زاولوا وظيفة التّبشير والإنذار مع أقوامهم؛ فإنَّ لُحمة رسالة محمد ﷺ ولبّها هو التّبشير والإنذار؛ ولأنه جاء مرسلًا للنّاس جميعًا ، جاء التعبير عن هذا المعنى بالعدول من صيغة

اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة، التي تدلّ علىِ المبالغة في التّبشير والإنذار، وتدلّ أيضا على كثرة المُبَشّرين والمُنذرين.

تجدرُ الإشارةُ إلى أنّه ورد وصفُ رسول الله ﷺ بصيغة اسم الفاعل (مبشّر) و(منذر) في مواضع أخرى، اقتضى فيها فنُّ القول استعمالها دون صيغة المبالغة.

٣٨ - قرّرَ الله تبارك وتعالى في سورة فاطر أنَّ الذي أوحاهُ الله إلى نبيّه محمد ﷺ هو الحقُّ مُصدِّقًا لما بين يديه من الكتب: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر: ٣١]، والمؤمنون الذين أُوتوا العلمَ أيضًا شهدوا في سورة سبأ بأنّ الذي أُنزِلَ على محمد هو الحقُّ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. أمّا الذين كفروا فقالوا في تبجُّحٍ وغرورٍ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ [سبأ: ٣١]، وكانوا إذا تُتلى عليهم آياتُ الله أنكروا وكذبوا: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [سبأ: ٤٣].

والشّأنُ ذاتُه في سورة الأنعام التي نزلت قبل سورة سبأ، حيثُ قرّر فيها المولى تعالى أنَّ الكتاب، والمرادُ به القرآن الكريم، أنزله الله مُصدِّقًا للذي بين يديه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: ٩٢]. أمّا الذين كفروا فقد كذّبوا به: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]، وأشارت الآية (٦٦) من الأنعام بأنَّ قريشًا قومَ محمد ﷺ كذّبوا به جهارًا نهارًا: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [الأنعام: ٦٦]،

وتوعّدت آياتٌ أُخرُ الذين كذّبوا بآيات الله المنزّلة بسوء المصير: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩].

٣٩ ـ جاء في مطلع فاطر إنباءُ النّاس جميعًا بأنَّ وعد الله حقٌّ، وتلاهُ النَّهيُ عن الاغترار بالحياة الدُّنيا: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، ثُم جاءت سورة الأنعام، وقرَّرت هذا المعنى في جملة آياتٍ منها: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وخاطب البيانُ القرآني محمدًا ﷺ، ووجَّهه إلى أن يُعرِضَ عن الذين اتَّخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، وغرَّتهم الحياةُ الدنيا: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأنعام: ٧٠]، ووصفت الآيةُ (١٣٠) مشهدَ الذين شهِدوا على أنفسهم بعد فوات الأوان، وهم موقوفون عند ربِّهم، وقد وجَّهَ لهم السؤال: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، ثم قالوا: ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، ثُمَّ جاء موعد التقرير الإلهي بأنَّهم غرَّتهم الحياةُ الدنيا: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ثُمَّ جاءت سورةِ الكهف مُؤكِّدةً معنى كون الحياة الدّنيا لعِبًا ولهوًا، ووجوب حَذرِ المؤمنين منها، وعدم الانصياع والانجذاب إلى ما فيها من متاع وزينة: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]؛ فسورتا فاطر والأنعام نهتا عن الاغترار بالحياة الدّنيا، وسورة الكهف ضربت مثلًا حيًّا لكل عاقلٍ متدبّرٍ، وزادت الأمر وضوحًا بتشبيه تمثيليّ جليّ صوّرت فيه الحياة الدنيا، وقرّرت

في موضع آخر أنَّ ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦]، وأنَّ الكافرين يأتون يوم القيامة، وقد ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وكانوا يحسبون أنَّهم يُحسنون صُنعًا: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤].

٤٠ ـ قرّرت سورة فاطر أنَّ الذين كفروا جزاؤُهم الذي يستحقّونه حقًّا وعدلًا هو نارُ جهنّم: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر: ٣٦]، وهو الجزاءُ الذي يجزي به الله تعالى كلَّ كفور، ثُمَّ جاءت سورةُ سبأ وصوَّرت تصويرًا حيًّا ما وقع لقوم سبأ عندما كفروا وجحدوا نِعَمَ ربِّهم، وتكرَّرَ التّعليقُ القرآنيُّ نفسه: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧]، ثُمّ جاء دورُ الأمثلة التطبيقيّة في سورة الكهف، وبيّنت مصير الذي كفرَ بربِّه، وجحد ألوهيَّته، وظنَّ أنَّه قادرٌ على جنَّته؛ حيثُ صوَّرت جزاء كفره في الدّنيا خسرانًا مادّيًّا مبينًا، وندمًا وحسرةً لا يحملُها الوصف: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٢]، أمّا في الآخرة فجزاؤه أنّه مُهانٌ لا نصير ينصرُهُ: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٤٣]، ثُمَّ قرَّرَ المولى تعالى في نهاية الكهف مصير كل كافر: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٢]، وجاء التّصريح الواضح بأنَّ سبب دخول الكافرين النار هو كُفرُهم واستهزاؤُهم بآيات الله ورسله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٦].

سورةُ الأنعام مفصّلةٌ لقضايا أُمّ الكتاب:

٤١ ـ ثُمَّ جاءت سورة الأنعام وهي ثالثة سور الحمد نزولًا بعد الفاتحة وفاطر، فزادت الكلّيّات الإيمانية الكبرى إيضاحًا وتفصيلًا،

ويعودُ القارئُ ليقول: مَنْ هو ربُّ العالمين؟ ولماذا يستحِقُّ الحمدَ كلّه على وجه الاستغراق والشّمول؟

وتأتي افتتاحيّةُ الأنعام مُعرِّفةً بحقيقة ربّ العالمين من خلال إبداعه للخلق بتقدير وإحكام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

٤٢ - وربُّ العالمين هو الخالقُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

٤٣ - وربُّ العالمين هو العليمُ العلّامُ الذي لا يعزُبُ عن علمه مِثقالُ ذرّةٍ في السماوات والأرض: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

٤٤ - انتهت سورةُ فاطر بالحثّ على السّير في الأرض، والنّظر في عاقبة السّابقين: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وجاءت مقدّمةُ الأنعام مُنبِّهةً وحاثّةً على دراسة تاريخ القرون والأقوام التي أهلكها الله تعالى حين حادت عن نهج الله، وعصت رُسُلَه، وأعرضت عن الإيمان الحقّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]. وإذا كانت آيةُ فاطر آمِرةً وحاثّةً على السّير في الأرض، فإنَّ آيةَ الأنعام جاءت في ثوب الاستفهام التّقريري: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟...﴾، ولا يسَعُ القارئَ ولا السّامعَ إلّا أن يقولَ: بلى رأيت، بلى سمعت ما كان من شأن المُهلَكين.

٤٥ - ثُمَّ شرعت سورة الأنعام تُفصِّلُ القولَ في التّعريف بالله ربّ

العالمين؛ ولذا يَعُدُّها علماءُ التَّفسير بأنَّها سورة العقيدة، سورة تثبيت قواعد التّوحيد، وإفراد الله جلَّ ثناؤه في ألوهيّته وربوبيّته، وبالتَّصرُّف في أمر الكون كلّه.

وأخذ هذا الموضوعُ الخطرُ مساحةً واسعةً في آيات السّورة الكريمة، من الآية الأولى إلى الآية الثانية والثمانين، أي: من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

أ ـ فالله هو خالقُ السماوات والأرض: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

ب ـ وهو خالقُ الإنسان: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

ج ـ وهو العليمُ والعلّام بكلّ ما في الكون: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

٤٦ ـ ثُمَّ ولِيَ ذلك حديثٌ يُطمئِنُ محمدًا ﷺ بأنَّ الله تعالى لَوْ أنَّه أنزل عليهم كتابًا في قرطاسٍ ملموسٍ ومرئيٍّ، فقرؤوهُ بأعيُنهم، ولمسوهُ بأيديهم، ما كانوا ليُؤمنوا لِفرْط عنادهم وجحودهم، فليسَ الأمرُ متعلِّقًا بكفاية الحجج والأدلّة، وإنّما الأمرُ جحودٌ وإنكارٌ، وكُفرٌ واضِحٌ بَواحٌ. قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

٤٧ ـ ثُمَّ طمأنه وحثَّهُ على ألّا يكترِثَ بِمكرِهم واستهزائهم؛ فذلك شأنُ الكافرين المُشركين مع رسل الله السابقين: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]،

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام: ٣٤].

٤٨ ـ ثُمَّ عاد الحديثُ إلى التَّعريف بربّ العالمين ببيان مُلكه لكلّ شيءٍ، ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢].

ثُمَّ توالت الآياتُ تُوضِحُ جانبًا مِن ملكه جلَّ ثناؤه بشيءٍ من التّفصيل: ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١٣].

٤٩ ـ ثُمَّ جاءت آيةٌ مُكمِّلةٌ لبداية سورة فاطر؛ حيثُ إنَّ أوَّلَ آيةٍ من سورة فاطر بيّنت بأنَّ الله تعالى هو فاطرُ السماوات والأرض وخالقُهما: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١]، وما دام أنَّ الله تعالى هو الذي فطر السماوات والأرض من عدمٍ، وهو يملِكُهما؛ فلِمَ يتَّخِذ الناسُ إلها غيرَه أو وليًّا غيره؟!. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤].

ثُمَّ توالت الآياتُ المُعرِّفةُ بالله جلّ ثناؤه: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨].

٥٠ ـ ثُمَّ جاء حديثٌ عن القرآن الكريم ضمن السّياق الذي يتحدَّثُ عن ضرورة التبرُّؤ من الشّرك: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

٥١ ـ ثُمَّ تحوَّلَ السّياق إلى وصف مشهد من مشاهد يوم القيامة في ثوبٍ لُغويّ بليغ يُخاطِبُ محمدًا ﷺ، ويُخاطبُ كلَّ عاقلٍ يتأتّى خِطابُه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، ثُمَّ تكرَّرَ الخطابُ بالثّوب اللغوي ذاته: ﴿ وَلَوْ

تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

والآيةُ الكريمة المُفتَتَحة بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ . . .﴾ هي إحدى الأيقوناتا الدّالّة على جانبٍ من التّرابط الوثيق بين سورتي الأنعام وسبأ التي تليها في النّزول؛ حيثُ جاء في سورة سبأ تفصيلٌ للمشهدين السابقين المبدوءين بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ . . .﴾. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣]؛ ففي هذه الآيات تفصيلٌ للحوار الذي دار بين المُستَضعفين والمُستكبرين وهم موقوفون على شفير النّار، وبيان للعاقبة السّيّئة التي ألحقها الله بالظّالمين.

ومن بين اللّطائف البيانية في الآيتين أنَّ آيةَ الأنعام عرضت لمحةً قصيرةً جدًّا عن إيقاف الظّالمين بين يدي الله تعالى، وجاء التّعبيرُ بالصّيغة الفعليّة المُؤقّتة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٠]؛ بينما رصدت آيةُ سبأ المشهد مُطوّلًا، وكان استعمالُ اسم المفعول أنسبَ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبأ: ٣١]، وجاء وصفُ المشهد بعبارات مُطوّلة تعكسُ تفاصيلَ دقيقةً للحوار الذي دار بينهم.

وجاء التعبيرُ ذاتهُ في نهاية سورة سبأ يُعجّبُ من فزع الكافرين يومَ

لا نجاةَ ولا عصمةَ إلّا من أنجاه الله وعصمه، والخطابُ - دومًا - مُوَجَّهٌ إلى رسول الله ﷺ بالأصالة، وإلى كلّ من يتأتّى خطابُه بالتّبع: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١].

وهذا التّطابُقُ في الكلمات المفتاحيّة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ...﴾ هو أحد الحبال القويّة المحكمة التي تربط بين سورتي الأنعام وسبأ التي نزلت بعدها بزمن، واشتركتا في المطلع الموحَّد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ فهذا التشابه في بعض العبارات المفتاحية يدلُّ على الصِّبغة والوشيجة القويّة التي تربط بين السّور المتشابهة المطالع.

٥٢ - وبعد تعريفٍ مُطوَّلٍ بالله ربّ العالمين، وبيان ما سخّره للخلق، وإرساله للرّسل، وإنزاله للكتب، وبيان عاقبة المشركين، وبيان علمه بالغيب، وقاهريّته فوق عباده، وقدرته على بعث العذاب على الكافرين الظالمين، قلت: بعد سرد ما يشرحُ جوانبَ من العقيدة الإسلامية النّاصعة في تصوُّر الإله المعبود بحقّ، وأفعاله القائمة على العلم والحكمة والمشيئة المطلقة، تأتي الآيةُ تُصرِّحُ أنَّ كلَّ ما سبق هو تعريفٌ بربّ العالمين وهي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. ثُمّ استمرَّ التعريفُ بذات الله ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

٥٣ - وأثناء التّعريف بالإله الحقّ، والمعبود بحقّ، الخالق الفاطر، القاهر فوق عباده، جاء ذكرٌ مُفصَّلٌ لزمرة الأنبياء والمرسلين الذين هداهم الله إلى صراطه المستقيم، وساروا عليه مهتدين بما أُوحِيَ إليهم من ذكرٍ وشرائع، وذُكِرَ المركَّب الاسمي ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خمسَ مرّات، وهو تفصيلٌ للمراد بقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] في أمِّ الكتاب، أي: أنَّ سورة الأنعام بلورت وشرحت وفصّلت القول في معنى الصراط المستقيم، وصرّحت بجملةٍ من أسماء الأنبياء والمرسلين الذين هداهم الله تعالى لسلوكه، وجاء في نهاية الجولة دعوةٌ صريحةٌ لمحمد ﷺ ليُبيّن للعالمين بأنَّه على صراطٍ مستقيم. قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٦١].

٥٤ ـ وجاء الحديثُ عن الصراط المستقيم في سورة الأنعام كالآتي:

١) المهتدي قولًا وفعلًا هو الذي هداه الله تعالى، وجعله على صراطٍ مستقيم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُۚ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٣٩].

٢) جاء ذِكرُ طائفة الرّسل الذين جعلهم الله تعالى على صراط مستقيم، ووفّقهم إلى سلوكه: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٦ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٧]؛ فالصراطُ الذي ندعو الله تعالى أن يهدينا إليه هو الصراط المستقيم، الذي وفّقَ الله تعالى إليه كوكبة الرّسل، وهداهم إليه ليقتديَ بهم رسول الله ﷺ، ونقتدي نحن ـ المسلمين ـ بهم أيضا؛ فهم خيرُ أُسوةٍ في سلوكهم صراط الله المستقيم، وعلى رأسهم أبو الأنبياء إبراهيم الخليل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٣) ثم أشار الله تعالى إلى أنَّ صراط الإسلام هو الصراط المستقيم ، وهو المؤدّي إلى دار السلام ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

٤) ثمَّ أكّد على صفة استقامة الصّراط ، وضرورة اتّباعه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٥) أمر الله تعالى محمدًا ﷺ بأن يُعلِنَ للعالمين أنّه يسيرُ على صراط الله المستقيم ، الذي سار عليه أبوه إبراهيم عليه السلام: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

٥٥ ـ ثُمَّ عاد السياقُ ليُعرِّفَ بالله ربّ العالمين ، ويُوجِّهَ القلوب إلى توحيده ، وعدم الإشراك به ، وبيان عاقبة الذين لا يُؤمنون في آيات بيّنات من (١٠٧) إلى (١١٧).

٥٦ ـ ثمَّ بدأت جولةٌ عقديّةٌ مُطوَّلةٌ تُعالِجُ موضوع التّحريم والتّحليل ، وهو فرعٌ من فروع العقيدة الإسلامية؛ فلا ينبغي لمسلمٍ أن يخضعَ في مجال التّحليل والتّحريم إلّا لله الواحد الأحد العليم الحكيم الذي يُشرِّعُ للنّاس أجمعين؛ فبعدَ أنْ يُقِرَّ المؤمنُ بأَنَّ الله هو الإلهُ الحقُّ الذي لا معبودَ بِحقٍّ سواه ، وبأنَّهُ هو الرَّبُّ الخالقُ الرّازقُ الذي بيده مُلكُ كلِّ شيءٍ ، ومفاتيحُ كلِّ شيءٍ ، وبعدَ أن يُوحِّدَه ولا يُشرِكَ به غيرَه ، يأتي مجالُ إسناد الأمر إليه في التَّشريع؛ فلا مُشرِّعَ إلّا الله ، ولا مَنْ يُحلُّ ولا مَنْ يُحرِّمُ إلّا الله ، ومن القرآن الكريم ، وسنّة رسول الله ﷺ الصّحيحة ، وما يتبعُهما من مصادر التّشريع المُتّفَق عليها ؛ يأخُذُ العلماءُ المستنبِطون التّشريعات الخاصّة بالتّحليل والتّحريم ، وما يُذكَرُ في أبواب المطاعم والأشربة ، والذّبائح ،

ومسائل الزّواج والطّلاق وغيرها، وبالجملة كلّ ما يتعلّقُ بحياة المسلم والمسلمة في نواحي حياتهم المختلفة، ويتِمُّ التّطبيقُ العمليُّ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وشرْحُ كلِّ ما يتعلّقُ بموضوع التّحليل والتّحريم، وما يجوزُ وما لا يجوزُ في المواضيع الآنفة الذِّكر وغيرها هو تفصيلٌ لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فربُّ العالمين الخالِقُ الفاطرُ هو المُشرِّعُ، وهو الذي تتوجَّهُ إليه القلوبُ بالعبادة والدُّعاء والتَّضرُّع؛ فلا طاعةَ لمخلوق في شِرعة الإسلام إلّا إذا كانت أوامِرُهُ مَبنيَّةً على قواعد أصول الإسلام وأحكامه، وتؤولُ بذلك إلى أنَّها من طاعة شرع الله تعالى.

٥٧ - وأذكرُ من باب التّمثيل لموضوع التّحليل والتّحريم مِما ورد في سورة الأنعام الآيات الآتية:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ

وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

فالمؤمنُ يعودُ بموضوع التّشريع في كلّ مسألةٍ من مسائل حياته الشخصية والاجتماعيّة، الخاصّة والعامّة، الرّوحية والنّفسيّة، ما يتعلّقُ بجانب العبادات وجانب المعاملات، وفي كلّ أمره؛ إلى المُشرِّع الأوحد العليم الحكيم الذي لا يعزُبُ عن علمه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وهذا معنى الجملة الموجزة المُحكمة التي يُردِّدُها في كل صلاةٍ، وفي كلّ قراءته لأمّ الكتاب: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

ويتوجَّهُ إليه بطلب الإعانة والاستغاثة وطلب الهداية والتوفيق، والتّضرّع والدُّعاء، والنّصر والتّأييد، ولسانه يردِّدُ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

٥٨ ـ وجاءت الآيةُ المُلخِّصةُ لحياة المؤمن المُنضبطة بشرع الله تعالى في كل شيءٍ مُمَثَّلةً في حياة رسول الله ﷺ الذي أمره ربُّهُ جلَّ ثناؤه أن يُعلِنَ للعالمين في صراحةٍ ووضوح: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

٥٩ ـ هذا ، وعلى الرّغم من أنَّ سورة الأنعام مكيَّةٌ ، والقرآنُ المكيُّ ليسَ موضعَ تفصيل الشّرائع إلّا أنَّ ما تضمَّنته سورةُ الأنعام هو تأصيل لقضيّة التشريع ، وتفتيحٌ لأعين المؤمنين إلى أنَّ هذه المسائل (الذّبائح والأطعمة ، والأشربة ، وقتل الأولاد ، والإثم ، وما في بطون الأنعام ، وغيرها . . .) كلّها مسائلُ لا بُدَّ من الرُّجوع فيها إلى مصدر التّشريع الحقّ ، وهو المُشرِّعُ العَدلُ الذي بيده الخلقُ والأمرُ ، وبلغة سورة الزُّخرف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] ، ثُمَّ في المضمار نفسه ، جاءت أواخرُ الأنعام تبيِّنُ للمسلمين جميعًا ماحُرِّمَ عليهم في آيات مُحكمات تتضمّنُ الوصايا العشر في قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٢].

٦٠ ـ ثُمّ عاد الحديثُ إلى بيان أنَّ كلَّ ما سبق ذِكرُهُ والإشارةُ إليه في بيان مُقوِّمات الاعتقاد الصّحيح ، ومُقوِّمات التَّشريع الصّحيح ؛ هي معالمُ وركائزُ صراط الله المُستقيم الذي يدعونا القرآنُ الكريمُ إلى اتِّباعه ، والأخذ به بقوّة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٦١ ـ ثُمَّ تلت ذلكَ دعوةٌ صريحةٌ لتطبيق جميع أوامر القرآن

ونواهيه: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ثُمَّ الدَّعوةُ إلى إعلام الرّسول الخاتم كما سبق ذكرُه، أنَّ الله تعالى هداهُ إلى الصّراط المستقيم السّويّ، الذي قامت عليه ملّةُ إبراهيم عليه السلام، وتقومُ عليه ملَّةُ الإسلام اليوم.

٦٢ ـ ومن الارتباط المعنوي الوثيق بين فاتحة الكتاب وسورة الأنعام أنَّ فاتحةَ الكتاب ذكرت الفِرَقَ الثلاث الكبرى: المؤمنين الذين آمنوا بشريعة الإسلام، وساروا على صراط الله المستقيم الذي انتهجه مِن قبلهم الأنبياءُ والمرسلون والصّدّيقون والشهداءُ والصّالحون، واليهود الذين غضب الله عليهم، والنّصارى الذين ضلّوا عن سواء الصّراط، ثُمَّ جاءت سورةُ الأنعام تُبيِّنُ أنَّه لا عُذرَ لِلمشركين، ولا يستطيعون أن يحتجّوا بعدم إنزال كتاب عليهم؛ فقد أنزل الله عليهم أعظم كتاب، وأرسل إليهم أعظمَ رسول؛ فلا عُذرَ لِمُعتذرٍ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٦].

وبِمثل هذا الوضوح، يُمكنُ القولُ بصيغة الجزم والقطع: إنَّ سورةَ الأنعام هي سورة رسْم معالم الاعتقاد الصحيح بحقٍّ، بيّنت معالمه، وفصّلت شؤونه، وأوضحت قضاياه، وهِي تفصيلٌ تعريفيٌّ بالله ربّ العالمين، وبيانٌ للصّراط المستقيم، وتعدادٌ لبعضٍ من سالكيه من الأنبياء والمرسلين، وتفصيلٌ لوجوه العبادة والاستعانة، وكلّ ذلك من كُبرى اليقينيّات العَقَديّة التي جاء ذِكرُها في أُمّ الكتاب.

ارتباط سورة سبأ بما قبلها وما بعدها نزولاً من سُور الحمد:

٦٣ ـ عند التَّدبُّر في سورة سبأ من حيثُ المُحتوى والثّوب

اللغويّ ، يتبيّنُ للقارئِ المُتدبّر أنّها تكملةٌ لما شرعت سور الحمد قبلها في تقريره ، وتثبيته من مبادئ إيمانيّة ، تُمثّلُ في جملتها نسيجًا لجسم العقيدة الإسلاميّة ، التي أُنزِلَت السّور المَكيّةُ بغرض غرسها في قلوب المؤمنين ، وتوطيدها في وجدانهم وحياتهم.

٦٤ ـ فإذا كانت سورةُ فاطر قد شرحت وفصّلت القول في تفسير: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٣]؛ فإنّ سورةَ سبأ بسطت القول في بيان يومِ الدّين الذي هو واقعٌ لا محالةَ ، وتحدّث عنه قولُه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ حيثُ إنّها تضمُّ جملةً من الآيات التي تُقرِّرُ البعثَ بعد الممات ، والنُّشورَ بعد مرحلة القبور ، وتنعى على الكافرين كُفرَهم ، وتبيِّنُ تهافُتَ تكذيبهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

٦٥ ـ تهكَّمَ الكافرون بِمَن يُخبِرُهم بأنّهم مَردودون بعد مرحلة القبور: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

وقبلها نزولًا ، روت سورة الأنعام أنَّ الكافرين يُكذّبون بالبعث ، ولا يُؤمنون سوى بالمادّة التي يرونها ويلمسونها ويُحسّونها: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩] ، وقرّرت خسرانَ الكافرين الذين يُنكرون البعثَ ولقاءَ الله تعالى ، وصوَّرت ندمَهم الشّديدَ حيثُ لا ينفعُ ندمٌ ولا تحسُّرٌ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

٦٦ ـ ثُمَّ جاءت سورة التّطبيقات العملية والقصص الواقعيّة (سورة الكهف) فبيّنت، من خلال كلام الرّجل الذي كان يكفرُ بالبعث، ندمَه وتحسُّرَه وخُسرانه، وتعجيل العذاب له في الدّنيا قبل الآخرة، ووصفته بأنّه كان ظالمًا لنفسه حين أنكر السّاعةَ وكفرَ بلقاء ربِّه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٥ ـ ٤٢].

وكان جزاؤه أنه: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣].

٦٧ ـ أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بأن يسأل: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، ثُم جاءت سورة سبأ (بعدها نزولًا) وقرّرت في مطلعها بأنّ الله تعالى هو الذي له ما في السماوات وما في الأرض: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

٦٨ ـ لمْ يَرِد الاسمان الكريمان ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ بصيغة التعريف وبهذا التّرتيب في القرآن كلّه إلّا في سورتي الأنعام مرّتين: في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقوله جلّ شأنه: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ

وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وجاء الاسمان الكريمان بهذا التتابع في مطلع سورة سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، وهو اختيارٌ لا محالةَ مقصودٌ، يُشيرُ إلى أنَّ بينهما ارتباطًا وثيقًا في كثير من القضايا والمواضيع.

٦٩ ـ حذّرت سورةُ الأنعام الذين كذَّبوا بلقاء الله تعالى بأنَّهم إذا جاءتهم السّاعةُ بغتةً، سوف يتحسَّرون، ولاتَ حينَ تحسُّرٍ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١]، وحاولت الآيةُ الأربعون من السّورة نفسها تحريكَ ضمير المُكذّبين والكافرين، وحثّت محمدًا ﷺ على أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠]؛ فمَن غيرُ الله ينصرُكم، ومَن غيرُهُ تدعون إذا جاءكم العذابُ أو أتتكم السّاعةُ.

أمّا سورة سبأ فأكّدت أنَّ الذين كفروا يقولون بملء أفواههم أنَّهم لا يُؤمنون بالسّاعة، ولكنَّ الله تبارك وتعالى يُؤكِّدُ مجيئها على لسان رسوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

٧٠ ـ أكّدت سورةُ الأنعام على ضرورة الإيمان بالآخرة، وبيان أنّها دارُ القرار: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وبيّنت أنَّ الذين يُؤمنون بالآخرة يُؤمنون بالقرآن وهم على صلاتهم يُحافظون: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وشدّدت النّكيرَ على الذين لا يُؤمنون بالآخرة، ووسَمَتهم بالكفر، وبأنَّ قلوبَهم تصغى إلى زُخرُفِ القول، وبأنَّ

أصحابَها يقترِفون من المعاصي والآثام ما يقترِفون لأنَّهم لا إيمانَ لهم باليوم الآخر يَزَعُهم ويحجِزُهم عن العصيان: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٣]، ثمّ جاءت سورة سبأ بعدها وذكرت بأنَّ الله تعالى له الحمدُ في الآخرة: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [سبأ: ١]، وأوضحت بأنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة مصيرُهم هو العذابُ والضلالُ البعيدُ: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ [سبأ: ٨]، وبيّنت بأنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين يستولي عليهم الشيطانُ، ويستحوذُ على قلوبهم، أمّا المؤمنون الصادقون فليس له عليهم سُلطانٌ: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢١].

٧١ - ومن الرّوابط المعنويّة المُحكَمة التي تجعلُ سورةَ الكهف سورةَ التّطبيق العملي لما جاء في سور الحمد الأُخرى؛ قضيّةُ الأموال والأولاد، واعتزاز الناس بهما؛ حيثُ قرّرَ القرآنُ الكريمُ في مواضعَ منه أنَّ مِقدارَ وزن الإنسان لا يكونُ بما يملِكُ من مالٍ، وما رزقه الله من ولدٍ، وإنّما مِقياسُ المُفاضلة عند الله تبارك وتعالى هو الإيمان والتّقوى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].
وقد جاء تقريرُ هذا المبدأ من مبادى الإسلام في سورة سبأ ودحضُ عكسه؛ حيثُ ذكرت السورةُ بأنَّ من اختلال الموازين عند المترفين أنَّهم يعتزّون بكثرة أموالهم وأولادهم: ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٥]، ثُمَّ دحضت هذا المعنى، وقرّرت بأنَّ قيمةَ الإنسان بإيمانه وعمله الصالح، وليست الأموالُ والأولادُ هي التي تُقرّبُهم من الله زُلفى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ

ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، ثُمّ جاءت سورة الكهف، وبيّنت عمليًا جزاءَ مَنْ يَعتزُّ بماله، ويغترُّ بأولاده، ويُنكرُ فضلَ ربّه، ويستبعِدُ البعثَ والوُقوفَ بين يدي ربّه: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٨]؛ فكانت عاقبةُ إنكاره وكفره وعدم اعتقاده بالبعث والنّشور أنّه خاب سعيُهُ في الدُّنيا، وساءَ مصيرُهُ يومَ القيامة.

سورةُ الكهف مُكمِّلةٌ لسورة الأنعام:

٧٢ ـ ومن الرّوابط الدّقيقة التي تجعلُ سورة الكهف مُكمِّلةً لسورة الأنعام، علاوةً على ما سبق ذكرُهُ، دعوةُ الرّسول ﷺ إلى المُصابرة مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ، وبسط الجناح لهم حتّى يزدادَ الإيمانُ في قلوبهم تمكُّنًا، وتزدادَ قدمُهم في ساحة الإسلام رسوخًا:

جاء في الأنعام حديث عن عدم طردهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وجاء في الكهف نصحٌ لمحمد ﷺ أن يصبر نفسه معهم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٧٣ - قرّرت سورة الأنعام أنَّ الناس يرجِعون إلى الله فرادى لا يصحبُهم مالٌ ، ولا بنون ، ولا سُلطانٌ ، ولا شرَفٌ ، ولا جاهٌ ؛ إلّا ما قدَّموا من عملٍ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤] ، والمعنى ذاته تكرَّر في سورة الكهف بمزيد من التفصيل في ثوبٍ لُغويّ قريب من سابقه : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨] ، ولم يتكرَّر هذا الأسلوب المقرّر لمجيء الناس فرادى بهذا العرض اللغوي في غير هذين الموضعين ، وهو دليلٌ على شدّة الترابط بين السورتين.

٧٤ - جاء وصفُ الله تبارك وتعالى في الأنعام بأنَّه الغنيُّ ذو الرّحمة : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الأنعام: ١٣٣] ، وبأنَّه ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ١٢] ، وجاء وصفه جلّ جلالُه في الكهف بأنَّه : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف: ٥٨] ، ولم يتكرَّر هذا الأسلوب بهذه الألفاظ في القرآن الكريم في غير هذين الموضعين ، على كثرة ما جاء وصفه جلّ ثناؤه بالرّحمة في القرآن.

ومن لطائف الاستعمال ودِقّة التّعبير في هذا السياق ، وصفُ ربِّ العالمين في سورة الأنعام بالغنيّ ، ووصفه في الكهف بالغفور ، فالغنيُّ في الأنعام مُوافِقٌ للسياق الذي ورد فيه؛ حيثُ إنَّه غنيٌّ عن عباده ، وغنيٌّ عن أعمالهم ، ولو شاء لأذهبهم واستخلف من بعدهم قوما آخرين : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣]. أمّا اسمه (الغفور) في الكهف فهو يتناسبُ مع ظلم

العباد لأنفسهم، واكتسابهم السيّئات؛ فهو الغفور الذي لا يعجَلُ عليهم بالعقوبة حتّى يتمادوا، ويفتح لهم أبواب التّوبة والأوبة: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف: ٥٨].

٧٥ ـ قرّرت سورة الأنعام أنَّ ثمّةَ من الكافرين المشركين من يستمعُ إلى الرّسول وهو يقرأُ القرآن، ولكن لفرط كفرهم وجحودهم جعل الله على قلوبهم أغشيةً مانعةً لهم من الفهم والإدراك جزاءً وِفاقًا على توجُّههم الفِكريّ، وتعمُّدهم في سلوك طريق الجحود: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ووصفت سورة الكهف بالظلم المبين مَن ذُكِّرَ بآيات ربّه، وأعرض عنها، ونسي ما قدّمت يداه، وبيّنت أنَّ ذلك مردُّهُ أنَّ الله تعالى جعل على قلوبهم أكنّةً مانعةً أن يفقهوه، وفي آذانهم وقرًا لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

٧٦ ـ أكّدت سورة الأنعام خُسرانَ الذين كذّبوا بلقاء الله، وخُسرانَ الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١]، وقال جلّ شأنه: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وجاءت سورة الكهف مُعلِّقةً ودالّةً على الأخسرين، مُنبِّهةً العالَمين على سوء مصيرهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤]، وبيّنت أنَّ الذي جعلهم الأخسرين هو كفرُهم بآيات ربّهم، وكُفرِهم بلقائه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ

وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

٧٧ ـ لاطفت سورةُ الأنعام رسولَ الله ﷺ، وقال له مولاهُ جلَّ ثناؤه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وأوضحت له الآيات أنَّ الله تعالى لو شاء لجمعهم على الهدى، وأنَّه إنّما يستجيبُ لدعوة الحقّ الذين يسمعون، وأتّمت سورة الكهف المعنى نفسه، ودعته الآيةُ السادسة منها إلى عدم إهلاك نفسه من أجل أُناسٍ عطّلوا وسائلَ الإدراك لديهم، وانغمسوا في حمأة الكفر: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

٧٨ ـ قرّرت سورةُ الأنعام أنّه لا أظلمَ مِمّن افترى على الله كذبًا. قال جلّ شأنه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال تبارك اسمه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقرّرت سورةُ الكهف أنّه لا أظلمَ مِمّن ذُكِّرَ بآيات ربّه ثُـمَّ أعرض عنها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ﴾ [الكهف: ٥٧].

٧٩ ـ قرّرت سورةُ الأنعام أنَّه لا مُبدِّلَ لكلمات الله، وأنَّ كلمة الله تمّت صِدقًا وعدلًا بأنّه لا مُبدِّلَ لكلمات الله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ثم جاءت سورة الكهف تُقرِّرُ المعنى ذاته، وتأمرُ محمدًا ﷺ بأن يتلو

ما أُوحِيَ إليه من القرآن ، وترسّخ معنى أنّه لا مُبدِّلَ لكلمات الله ، ولن يجد من دونه ملتحدًا: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧].

٨٠ ـ قرّرت سورةُ الأنعام أنَّ الذين كذَّبوا بلقاء الله في خُسرانٍ مُبينٍ ، وأنذر فيها ربُّ العِزَّة الجِنَّ والإنسَ ودعاهم إلى الإيمان بلقاء الله تعالى ، وإعداد العُدَّة لِذلك اليوم: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١] ، وقال جلّ شأنه: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ، ثُمَّ أوضحت أنَّ الله تعالى أنزلَ التَّوراةَ على موسى عليه السلام ليكون كتابَ هدايةٍ ورحمةٍ ، لعلَّ ذلك يقودُهم إلى الإيمان بلقاء الله تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. ثُمَّ جاءت خاتِمةُ سورة الكهف تُكمِّلُ هذا المعنى العظيمَ ، والرُّكنَ الإيمانيَّ الرَّكين ، وتُبيِّنُ أنّه مَن كان يرجو لقاءَ ربِّه فعليه أن يُحسِنَ العملَ ، ويستعِدَّ لذلك اللقاء: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

٨١ ـ حثّت سورةُ الأنعام كلَّ مؤمنٍ أنّه ينبغي أن يتسلَّحَ بسلاح الإيمان ، ويتدرّع بحُصون الذِّكر ، ويتغلَّبَ على وساوس الشّيطان الذي يَعمَلُ على تنسيَته للحقّ ، والذي هو أحد العوامل التي تؤدّي إلى النّسيان: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨] ، وجاءت سورة الكهف بعدها تُبيِّنُ عن طريق المثال العمليّ أَنَّ الشّيطانَ هو الذي أنسى فتى موسى عليه السلام الحوت:

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ [الكهف: ٦٣].

٨٢ ـ ومن اللّطائف في هذا الباب أنّ سورة الكهف هي آخر سُوَر الحمد نزولًا حيث أسلفنا أنّ ترتيب نزول سور الحمد وفق الرّواية الصّحيحة التي نقلها الفيروزابادي عن الإمام الزّركشي هي كالآتي: الفاتحةُ (٥ نزولًا)، وفاطر (٤٣ نزولًا)، والأنعام (٥٥ نزولًا)، وسبأ (٥٨ نزولًا)، والكهف (٦٩ نزولًا)؛ فالكهف هي آخر سور الحمد نزولًا، وفيها كثير من مظاهر التّطبيق العملي لكثير من المعاني الإيمانية والقضايا العقديّة، التي جاء بسطها في نظيراتها من سور الحمد؛ وهذا فيه إيماء إلى أنّ من منهج التعليم والدّعوة في التربية الإسلاميّة البدء بالجانب النّظري أوّلًا ثم إلحاقه ببيان الجانب التّطبيقي للأمر أو القضيّة المتحدّث عنها، والله أعلم، وله الحمد في الأولى والآخرة.

* * *



المبحث الثاني
سورتا النّساء و الحجّ

١ ـ تتميّزُ سورتا النّساء والحجّ بتشابه مطلعيهما؛ فمطلَع سورة النساء هو: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]، ومطلع سورة الحج هو: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١].

من حيثُ تاريخ النزول، تُعَدُّ سورة الحج (١٠٣) نزولًا بعد سورة النور، وقبل سورة (المنافقون).

سُمِّيت «سورة الحج» تخليدًا لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام حين انتهى من بناء البيت العتيق، ونادى في النّاس لحج بيت الله الحرام، فردّدت الجبال صوته حتّى بلغ أرجاء الأرض، فأسمع الله نداءه من في الأصلاب والأرحام. وسورة النساء مدنيّة. هي (٩٢ نزولًا) بعد سورة الممتحنة، وقبل سورة الزّلزلة.

٢ ـ سورة الحج مكيّةٌ ومدنية، حيث إنّها تناولت جملةً من القضايا العقَديّة في جانبها المكيّ، وتناولت جزءًا من قضايا التَّشريع في جانبها المدني، ولكن يغلب عليها جوُّ السُّور المكيّة؛ فموضوع الإيمان والتّوحيد والإنذار والتّخويف، وموضوع البعث والجزاء

ومشاهد القيامة وأهوالها هو البارز في السُّورة الكريمة ، حتى ليكادُ يـُخيَّل للقارئ أنَّها من السُّور المكّيَّة ، هذا إلى جانب الموضوعات التَّشريعيَّة من الإذن بالقتال وأحكام الحجِّ والهدي والأمر بالجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص القرآن المدني ، حتى لقد عدَّها بعض العلماء من السُّور المشتركة بين المدني والمكي(١) .

تربط بين سورتي النّساء والحج جملةٌ من المعاني المتشابهة ، تكرّرت في التعبير عنها عباراتٌ وألفاظٌ متطابقةٌ أحيانًا ، ومتقاربةٌ أحيانا أخر ، وفيما يأتي إيضاحٌ لذلك:

٣ ـ تتضمّن السّورتان عددًا من الآيات يُنادي الله تبارك وتعالى فيها الناس بقوله: (يا أيُّها الناس) ، فقد جاء في سورة الحج:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم . . . ﴾ [الحج: ٥].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحج: ٤٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

وجاء في سورة النساء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا . . . ﴾ [النساء: ١].

---

(١) انظر: القرطبي ، الجامع لأحام القرآن ، ج١٢ ، ص ١.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٧٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١٧٤].

٤ ـ تكرَّرَ لفظ (النّاس) في السورتين تكريرًا لافتًا للانتباه:

﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ [الحج: ٢].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ [الحج: ٣].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [الحج: ٨].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ . . . ﴾ [الحج: ١١].

﴿ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ . . . ﴾ [الحج: ١٨].

﴿ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ . . . ﴾ [الحج: ٢٥].

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾ [الحج: ٢٧].

﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ . . . ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الحج: ٤٩].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ . . . ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ . . . ﴾ [الحج: ٧٨].

وجاء في سورة النساء الآيات التالية:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣].

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ. . .﴾ [النساء: ٥٤].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ. . .﴾ [النساء: ٥٨].

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ. . .﴾ [النساء: ٣٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ. . .﴾ [النساء: ٣٨].

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً. . .﴾ [النساء: ٧٧].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ. . .﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ . . .﴾ [النساء: ١٠٨].

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ. . .﴾ [النساء: ١١٤].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١].

٥ ـ جاء في السورتين وصف الشّيطان بأنه مَريد، ولم يرد هذا الوصف في القرآن كلِّه إلا في هذين الموضعين:

﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣].

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧].

والمريد: «المتمرّد العاتي الخارج عن الطّاعة»[(١)].

٦ - بيّنت سورة الحج أنّ الشَّيطان يسعى بكل الحيل والسُّبل لإضلال بني آدم، وبيّنت سورة النِّساء سُبُلًا من أنواع إضلاله، وطُرُقًا من طرائق تسويله وتزيينه:

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٤].

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠].

٧ - أوضحت سورة الحج أنّ مَن اتّخذ الشَّيطان وليًّا من دون الله، وأطاع مكرَه، واتّبع خطواته؛ فإنّه يهديه إلى عذاب السَّعير، وجاءت سورة النِّساء بعدها وذكرت بعض الخطايا التي تُزجي بصاحبها إلى عذاب السَّعير من مثل: أكل أموال اليتامى، والصّدّ عن سبيل الله تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الحج: ٤].

---

(١) البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: محمد عبد الله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع، ج٢، ص ٢٨٨.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ٥٥].

٨ ـ ذكرت سورة الحجّ مراحلَ خلق الإنسان، من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ... ثم ذكرت بأنّ الله هو الذي يُقرُّ في الأرحام ما يشاء إلى أجل مسمّى، ثم يُخرج الجنين الذي كتب الله له الحياة فيكبر إلى أن يحين أجله. أمّا في سورة النّساء، فقد ذكَّر الله تعالى اسمه أنّه خلق النّاسَ كلَّهم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها: أي: آدم وحوّاء، وذكَّرهم بضرورة التّحلِّي بخلق التّقوى، أي: تقوى الله تعالى، واتّقاء الأرحام التي يتساءلون بها.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [الحج: ٥].

وقال تبارك اسمه من سورة النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

٩ ـ ذكرت سورة الحجّ أنَّ ثمّةَ أُناسًا يعبدون الله على حرف، متحفِّزين لنيل المصالح والمنافع منٍ وراء تعبُّدهم وتنسُّكهم، فإنْ جرت الرِّياحُ بما يشتهون اطمأنَّت أنفسُهم، وإن أصابتهم فتنةٌ وبلاءٌ أُركِسوا، وتمرّغوا في حمأة الكفر والنِّفاق الآسن، ثم وصمهم البيانُ القرآنيُّ بأنّهم هم أهل الخسران المبين. ومن جانب آخر، وصفت

سورة النِّساء الذين يتّخذون الشّيطان وليًّا بأنّهم خسروا خسرانًا مبينًا.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١]، وقال جلّ شأنه في سورة النساء: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩].

١٠ - وَصَمَتْ سورةُ الحجِّ الذي يدعو من دون الله آلهة لا تنفعه ولا تضرُّه؛ بأنَّه مُنغمِسٌ في ضلال بعيد، وقد جنح عن طريق الاستقامة، وتردّى في مهاوي الضَّلال البعيد، ثم جاءت سورة النِّساء وأوضحت أنَّ الشَّيطانَ يريد أن يُضلَّ أولياءه ضلالًا بعيدًا، وأنَّ من يُشرِك بالله فقد ضلَّ ضلالًا بعيدًا، وبيّنت أنَّ مَنْ يكفرْ بالله وملائكته ورُسله وأركان الإيمان الأخرى فقد ضلَّ ضلالًا بعيدًا، وذكرت في موضع آخرَ أنَّ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله قد ضلّوا ضلالًا بعيدًا أيضًا، فكأنّي بسورة النّساء تفصِّلُ القول تفصيلًا في كلّ ما جاء موجزًا ومُقتضَبًا في سورة الحج.

قال تعالى: ﴿ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [الحج: ١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].

وقال جل شأنه: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٧].

ملحوظة: لم يأت في القرآن المركب الوصفي (ضلالًا بعيدًا) في حالة النّصب إلا في سورة النساء أربع مرات ، وورد (ضلالًا مبينًا) في حالة النّصب مرّة واحدة في سورة الأحزاب.

١١ ـ ذكرت سورة الحج أنَّ الله يُدخِلُ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار مرّتين ، في الآية (١٤) والآية (٢٣). وأوضحت الآية (٢٣) أنَّهم يُكْسَوْنَ فيها لباسًا من حرير ، ويُحلَّون فيها أساورَ من ذهب ولؤلؤًا ، وذكرت الآية (٥٠) أنَّ لهم مغفرةً ورزقًا كريمًا ، وقرّرت الآية (٥٦) أنَّ الجنات التي يدخلونها هي جنّات النعيم.

بينما أوضحت سورة النِّساء في الآية (٥٧) أنَّ الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصّالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار ، وذكرت بأنّهم فيها من الخالدين ، وأنّ لهم فيها أزواجًا مُطهَّرةً ، وأنَّ الله تعالى يُتِمُّ عليهم فيها نِعَمَه ، ويبسط عليهم ظلًّا ظليلًا. وذكرت الآية (١٢٢) أنَّ ذلك الإدخال هو وعدٌ حقٌّ من الله تعالى ، وأنَّ الله لا يُخلف الميعاد ، وذكرت الآية (١٧٣) أنَّ الله جل ثناؤه يُوَفّي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أجورَهم ، ويزيدهم من فضله.

وهكذا نرى أنَّ السّورتين تُكمِّلُ إحداهُما الأُخرى في الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتحديد بعض أوصاف المصير الحسن الذي ينتظرُهم في جنّات النّعيم.

جاء في سورة الحج الآياتُ التاليةُ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [الحج: ١٤].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ﭐلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الحج: ٥٠].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج: ٥٦].

وجاء في سورة النساء:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٧٣].

١٢ ـ ذكرت سورة الحج بأنَّ الله الحَكَمَ العدلَ هو الذي يفصل بين الذين آمنوا والذين هادوا والنَّصارى والمجوس والذين أشركوا يوم القيامة، وذكرت سورة النِّساء نماذج من أعمال الذين هادوا، أي: أنّها أسقطت القناعَ عن أعمالهم الشّنيعة، وخطاياهم الفظيعة من مثل: تحريف الكلِم عن مواضعه، ومحاولة سبّ الرَّسول ﷺ بلَيِّ ألسنتهم بالكلام، وبطعنهم في الدّين، وباتّصافهم بصفة الظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وقال جل شأنه في سورة النساء: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ

وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تبارك اسمه: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].

١٣ ـ قرّرت سورة الحج بأنَّ الله هو الذي يفصل بين جميع الطَّوائف يوم القيامة، وذكرت بأنَّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، وتكرَّرت الجملة ذاتها في سياق حديث القرآن عن ضرورة إيتاء الموالي ممّا ترك الوالدان والأقربون.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٣٣].

١٤ ـ ذكرت سورة الحجّ أنَّ الذين كفروا أعدَّ الله لهم عذابًا عظيمًا، ومن أوصاف هذا العذاب أنّه تُقَطَّعُ لهم ثيابٌ من نار، ويُصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم، وأنَّ بطونهم وجلودهم تنصهر من شدّة غليان الحميم وحرارته. وذكرت سورة النِّساء بأنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا وعدوانًا إنّما يأكلون في بطونهم نارًا، وأنّ السّعير هي مصيرُهم المحتوم.

وقرّرت الآية (٥٦) من سورة النّساء أنَّ الذين كفروا يُحرَقون بالنّار إلى درجة أن تنضج جلودهم من شدّة حرارة النّار، وأكّدت الآيةُ أنّه كلّما نضجت جلودهم، بدَّلَ الله لهم جلودًا غيرَها ليذوقوا العذاب في إشارة علميَّة دقيقة إلى أنَّ الجلد هو موضع الإحساس من مكوِّنات جسم الإنسان.

هذا ، ولم يأت في القرآن كلّه ذِكرٌ للجلود في سياق التّعذيب إلا في هذين الموضعين ، وهذا دليلٌ آخرُ على شدّة التلاحم المعنوي والموضوعي بين السورتين.

قال تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

١٥ ـ جاء في سورة الحج أنَّ زبانية النّار يُعيدون الذين كفروا فيها ، ويُوبِّخونهم قائلين: ذوقوا عذاب الحريق ، وذكرت سورة النِّساء أنَّ الله تبارك وتعالى يُبدِّلُ لهم الجلود ليذوقوا العذاب.

قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢] ، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ . . . ﴾ [النساء: ٥٦].

١٦ ـ ذكرت سورة الحج أنّ الذين آمنوا يهديهم الله إلى الطيّب من القول ، ويهديهم إلى صراط الحميد ، وأتمَّت سورة النساء المعنى المقابل ، حيث ذكرت أنّ الله تبارك اسمه لا يُحبّ الجهر بالسّوء من القول إلا إذا صدر مِمّن ظُلِم.

قال جل شأنه: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤] ، وقال تبارك اسمه: ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

١٧ - قرّرت سورة الحج في الآية (٢٥) في كلام مؤكّد بأنّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله باستمرار وإصرار ، ويصدّون عن المسجد الحرام الذي جعله الله مثابةً وأمنًا ، سوف يُذيقهمُ الله عذابًا أليمًا ، ووصمتهم الآية (١٦٧) من النساء بأنّهم قد ضلوا ضلالًا بعيدًا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٧].

١٨ - جاء في سورة الحج حديثٌ عن تمكين الله تبارك وتعالى لإبراهيم الخليل ، وتمهيد أرض الحرم له ليتّخذ فيها مصلّى ، ويُقيمَ البيت الحرام على قواعده ، وأن يُرسِيَ أركانَ التّوحيد بين النّاس ، ويؤذّن للنّاس فيها ليحجّوا بيتَ الله الحرام ، وذكرت الآيةُ (٧٨) أنّ إبراهيم الخليل هو الذي أطلقَ اسم (المسلمين) على أبناء الأمّة الإسلاميّة ، وبأنّ هذا الدّين هو قائمٌ على أُسس ملّة إبراهيم عليه السلام ، ثمّ جاءت سورة النِّساء مُتمِّمةً لهذه المعاني ، تُزكّي من اتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا ، وأسلم وجهه لله تعالى:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج: ٢٦] ، وقال جلَّ شأنه: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا ﴾ [الحج: ٧٨]. وجاء في سورة النساء: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

١٩ ـ حذّرت سورة الحج ـ مثل أخواتها المكّيّات والمدنيّات ـ من عاقبة الإشراك بالله تعالى، وشبّهت الذي يُشرك بالله بالذي يَخِرُّ من السّماء فتخطفه الطّيرُ، أو تهوي به الرّيح في مكان سحيق: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]؛ والأمرُ ذاته نجده في سورة النّساء التي بيّنت أنّ الشّرك بالله افتراءٌ عظيم، وأنّ صاحبه يكون في ضلال بعيد. قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

هذا، ولم يأت هذا القالب التعبيري (ومن يشرك....) المكوّن من حرف العطف (الواو)، واسم الموصول (مَن)، والفعل المضارع في حال الإفراد (يشرك) إلا في هاتين السورتين المتشابهتين في مطلعيهما على كثرة ما ورد النّهي عن الإشراك بالله تعالى في القرآن الكريم، وهذا أيضًا دليل قاطع على شدّة التلاحم بين الثوبين اللفظيين للسورتين.

٢٠ ـ وردت صيغة المبالغة (خوّان) مرّتين في القرآن الكريم كلّه، أولاهما في الحج في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، والثانية في النّساء في سياق الحديث عن الذين يُجادلون عن الذين يختانون أنفسهم: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

تجدر الإشارة إلى أنّ وصف الخوّان بأنّه كفور في سورة الحج يتناسق ويتناغم مع وصف الإنسان بأنّه كفور في السّورة ذاتها. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أنّ وصف الخوّان بأنّه (أثيم) في سورة النساء؛ يتناسق ويتّسق مع لفظ (الإثم) الذي تكرّر في سورة النساء ست مرّات ، ولم يأت لهذه الكلمة ذِكرٌ في سورة الحج:

﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٢٠].

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٥٠].

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١١].

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٢].

٢١ ـ جاء في سورة الحج الإذنُ لأوّل مرّة للمؤمنين الذين ظُلِموا بأن يُدافِعوا عن أنفسهم ، وجاء تبشيرُهم بأنّ الله على نصرهم لقديرٌ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠] ، وجاءت سورة النساء داعيةً إلى قتال الذين كفروا ، ومُحفزةً المؤمنين لخوض معركة الحق معهم لنُصرة دين الله تعالى ، ومبشِّرةً للمقاتلين في سبيل الله بالأجر العظيم: ﴿ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ

فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٤ ـ ٧٦].

٢٢ ـ جاء استعمالُ مادة (مشيد) و(مُشيَّدة) في القرآن الكريم مرّتين اثنتين: أولاهما في الحج في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، والثانية في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ...﴾ [النساء: ٧٨]، وفي استعمال هذه المواد اللغوية النّادرة مثل (خوّان) و(مَشيد) و(مشيّدة) في السّورتين دليلٌ على التّلاحم اللّفظي بين الثّوبين اللغويين للسورتين.

..قال مكّيّ: «والمشيّدة عند أهل اللغة المُطوّلة، والمشيدة بالتخفيف المُزيّنة، وقيل: هي المعمولة بالشّيد وهو الجصّ.

...وقال بعض الكوفيين: التّخفيف والتّثقيل أصلهما واحد، والتّشديد يُرادُ به الجمع كقولهم: غنمٌ مُذَبَّحة، وقبابٌ مُصنّعة، فيقال: قصور مُشيّدة على ذلك، ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] مثل: كبش مذبوح، وكباش مُذبّحة»[1].

٢٣ ـ كذلك من المواضيع المطروقة في السُورتين، التّأكيد على مضمون رسالات الرّسل؛ حيثُ جاء في سورة الحجّ التّأكيد على حماية الله تعالى للأنبياء والمرسلين من إلقاء الشّياطين ونفثهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحج: ٥٢]، وجاء في سورة النساء بيانُ أنّ رسلَ الله بُعِثوا ليُطاعوا، وليُتّبعوا بإذن الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ

---

(١) ...مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج٢، ص ١٣٩٠.

ظَٰلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤].

٢٤ ـ وصف الله ذاته العليّة بأنّه عليمٌ حكيم في سورة الحج في معرض التّعقيب على حفظه رسلَه وأنبياءه وتسديدهم، وإبعاد إضلال الشّيطان عنهم. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحج: ٥٢]، وجاء ذكر الاسمين الكريمين (عليمًا حكيمًا) بالتّرتيب نفسه في حالة النَّصب في سورة النساء ٧ مرات في التَّعليق على الميراث وقضايا تشريعيّة أخرى، كلّها صادرةٌ عن علمٍ وحكمة.

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١١].

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٢٤].

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٩٢].

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١١١].

٢٥ ـ ذكرَ جلّ شأنه أنَّه هو الذي يهدي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤]، وجاء

في سورة النساء حديثٌ في موضعين اثنين عن هداية الله تعالى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم، في سياق الحديث عن الذين يتّعظون ويفعلون ما يُؤمرون به: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨]، وفي سياق الحديث عن الذين آمنوا بالله واعتصموا به، وتبشيرهم بأنّه جلّ ثناؤه يُدخلُهم في رحمة منه وفضلٍ ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

٢٦ ـ ذكرت سورة الحج أنَّ الذين كفروا بالله تعالى، وكذّبوا بآياته، أعدَّ الله لهم عذابًا مهينًا. قال جلّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٧]، وجاء في سورة النّساء أنَّ العذاب المهين أعدّه الله لمن يعصيه ويتعدّى حدوده، ولمن يبخل ويأمر بالبخل، ويكتم ما آتاه الله من فضله، ويكون فضلًا على ذلك كلّه من الكافرين: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧]، وجاء في التّعقيب على صلاة الخوف تأكيدٌ بأنَّ الله تبارك وتعالى أعدّ للكافرين عذابًا مهينًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢]، وجاء في الآيتين (١٥٠/١٥١) بأنّ الذين يكفرون بالله ورسله، ويفرّقون بين الله ورسله، هم الكافرون الحقيقيون، وهم الذين يستحقّون العذاب المهين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن

يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

٢٧ ـ ذكرت سورة الحج أنَّ الله تبارك وتعالى يُثيبُ الذين هاجروا في سبيل الله، وأبلوا بلاءً حسنًا بأن يرزُقَهم رزقًا حسنًا، وبأن يُدخلهم مُدخلًا يرضونه: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩]، وذكرت سورة النساء بأنَّ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش يكون جزاؤُهم أنَّ الله يُدخِلُهم مُدخلًا كريمًا: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

٢٨ ـ جاء ذِكرُ الاسمين الكريمين (عليم) و(حليم) بهذا التّريب في حالة الرّفع في موضعين اثنين فقط وهما: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

ولم يردا إلا مرَّةً واحدة في حالة النَّصب في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١]، وفي غير هذه المواضع الثلاثة، لم يرد الاسمان الكريمان (عليم حليم) بهذا الترتيب في القرآن كلِّه، وهذا يدلّ أيضا على التّلاحم اللغوي، وتطابق النَّسيج اللفظي بين سورتي الحج والنساء.

٢٩ ـ جاء ذِكرُ الاسمين الكريمين (عَفُوٌّ) و(غفور) بهذا الترتيب في حالة الرَّفع في سورتي الحج: وفي سورة المجادلة: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ

مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢]، وجاء ذكرُهما في حالة النّصب في موضعين من سورة النساء، وهما قوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩].

هذا، ولم يأت ذكرُهما بهذا الترتيب في غير هذه المواضع الأربعة، ثلاثة منها في سورة الحج والنّساء، وهذا دليلٌ على شدّة التّلاحم في البناء اللفظي للسورتين.

٣٠ ـ جاء وصف الله تبارك وتعالى بأنّه (سميعٌ بصيرٌ) مرّتين في الحج في حالة الرّفع، وهما: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١]، وقوله جل ثناؤه: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وجاء ذِكرُهما في سورة النساء بالتوالي نفسه في حالة النصب مرّتين: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

٣١ ـ جاء ذكرُ الاسمين الكريمين (العليّ) و(الكبير) متواليين في سورة الحج في حالة الرّفع في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وجاءا في حالة النَّصب في سورة النِّساء في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

فانظر إلى مدى التّناسق ، وشدّة التّلاحم بين السُّورتين في عرض أسماء الله الحسنى وصفاته العلا؛ حيثُ إنَّ أغلب ما جاء ذِكرُه في حالة الرَّفع في سورة الحج ، جاء ذكرُه في حالة النّصب في سورة النساء ، ومثلُ هذين الاسمين جاء ذكرُهما في حالة الرَّفع في سور أخرى مثل لقمان وسبأ وغافر ، وهذا لا يغضُّ من قيمة المقارنة التي نُجريها بين سورتي الحج والنساء.

٣٢ ـ جاء في سورة الحج ذكرُ الاسمين الكريمين (الغنيّ الحميد) في معرض التَّعليق على أنَّ الله تعالى له ملكُ ما في السماوات وما في الأرض: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج: ٦٤] ، وجاء تكريرٌ لهذا المعنى مع توكيده في سورة النِّساء ، وجاء التّذييل بالاسمين الكريمين في حالة النّصب: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء: ١٣١].

والملاحَظُ أنَّ آيات سورة الحج بشكلٍ عام جاءت في قالب موجزٍ ومختصر ، وكأنّها تُطلُّ على القرآن المكي ، وآيات سورة النِّساء جاء فيها توسيعٌ للمعاني المعروضة ، وتأكيدٌ لها ، وبسطٌ بطريقة القرآن المدني الذي يتّسِمُ في غالبه بالتَّفصيل والبسط للتناسب مع جوّ التشريع.

٣٣ ـ جاء في سورتي الحج والنِّساء بأنّ الله تبارك وتعالى يحكم بين عباده يوم القيامة ، مُبيِّنا لهم ما كانوا فيه يختلفون. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الحج: ٦٩] ، وجاء في النساء: ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ

بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

٣٤ ـ جاء في سورة الحج ذِكرُ علم الله الواسع ، وبأنّه محيطٌ بكل شيء ، وأنَّ ذلك يسيرٌ عليه جلّ جلاله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠] ، وجاء في سورة النّساء في موضعين ذِكرُ معنى أنَّ كلّ شيء يسيرٌ على الله تعالى أيضا؛ فتعذيبُ الكافرينِ على الله يسير: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ٣٠] ، وإدخال الكافرين في النّار وهدايتُهم إليها يسيرٌ عليه أيضا ، وجاء ذلك في أسلوب تهكُّميّ بليغ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٩].

والملاحظ أيضا أنَّ صفة (يسير) جاءت في حالة الرَّفع في سورة الحج ، وجاءت في حالة النّصب مرّتين في سورة النساء في باب خبر كان.

٣٥ ـ جاء في سورة الحج بيان أنّ المنهج الذي أنزله الله تعالى على قلب محمد ﷺ هو المنهج الميسور العدل ، الذي ليس فيه حرج على أحد ، وهو من لُحمة ملّة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨] ، وجاء في سورة النساء بيانُ أنّه لا أحدَ أحسنُ دينًا مِمّن أسلم وجهه لله ، وأخلص دينه لله ، واتّبع ملّةَ إبراهيمَ حنيفًا مسلمًا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

٣٦ ـ جاء في الآية الأخيرة من سورة الحج تقرير أنَّ الله تبارك

وتعالى جعلَ الرّسولَ محمدًا ﷺ شهيدًا على الأمة الإسلامية ، وتقريرٌ بأنَّ الأمّة الإسلامية تكونُ شهيدة على الأمم السّابقة: ﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨] ، وقرّرت سورة النّساء المعنى ذاته بصيغة الاستفهام التّعجّبي الذي يلفت الناس جميعا إلى مكانة رسول الله ﷺ عند ربّه ، ومكانة الأنبياء عند ربهم وذكر شهاداتهم على الأقوام: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] ، هذا ، والله أعلم بأسرار قرآنه .

* * *



المبحث الثالث

سور ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

المائدة ، والحجرات ، والممتحنة

تشترك ثلاث سور في مطلع مناداة الذين آمنوا ، وهي المائدة ، والحجرات ، والممتحنة.

من بين سور ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، نزلت سورة الممتحنة[1] (٩١ نزولًا) بعد الأحزاب وقبل النِّساء ، ثم تلتها سورة الحجرات (١٠٦ نزولًا) ، ثم تلتها سورة المائدة (١١٢ نزولًا) ، وينطبقُ على هذه السُّور الثلاث ما ينطبقُ على جميع السّور المتشابهة المطالع؛ فليس ثمّة في القرآن شيء جاء بشكلٍ عفوي غير مقصود ، بل كلّ ما في القرآن الكريم يخضع للقاعدة القرآنية العظيمة: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]؛ فكلّ ما في القرآن ، كما أسلفت ، محكَمٌ ومفصّلٌ في وضعه وترتيبه أثناء النُّزول ، وفي

---

(١) ... ذكر القرطبي والسهيلي أنّ المشهور على الألسنة النّطق في كلمة (الممتحِنة) بكسر الحاء ، ووجه تسميتها باسم الفاعل من الفعل (امتحن) هو ورود آية امتحان النساء فيها. وثمة من سمّاها باسم المفعول ، أي بفتح الحاء (الممتحَنة) إشارة إلى المرأة التي تمّ امتحانها وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

موضعه من المصحف الشّريف، وكل سورة تشترك مع أختها في مطلع مُعيَّنٍ فهي ترتبطُ معها بوشائجَ وروابطَ أخرى دلالية أحيانا، وأحيانا لفظية وصوتيَّة، تجعلهما حَرِيَّتَيْن بالبداية الموحَّدة، وإلّا فقُلْ لي بربّك كيف تشترك ثلاث سور في بداية واحدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، خلافا لـ ١١١ سورة تبدأ بمطالع مختلفة عنها، ثمّ لا يلتفت الذّهنُ الباحث إلى سرّ ذلك؟

وإليك إيضاحًا لأهمّ الرّوابط التي تربط بين السور المدنية المفتتحة بالنّمط التعبيري: يا أيّها الذين آمنوا:

١ ـ التّحذير من اتّخاذ أعداء الله أولياء:

أنزل الله تبارك وتعالى في بداية سورة الممتحنة تحذيرًا للذين آمنوا ينهاهم فيه عن اتّخاذ أعداء الله وأعدائهم أولياء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١]، ولمزيد من التّوضيح والبيان جاءت سورة المائدة تُعرِّفُ المؤمنين بأعداء الأمّة الحقيقيّين الذين لا ينبغي للمؤمنين أن يتَّخذوهم أولياء؛ فهم اليهود والنّصارى، وهم الذين يتّخذون دين الإسلام هُزُوًا. قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال جلّ شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧].

٢ ـ التّحذيرُ من عداوة الكافرين من المشركين وأهل الكتاب:

حذّرت سورة الممتحنة الذين آمنوا من أن يُسرّوا ويُخلصوا المودّة لأعداء الإسلام، وبيّنت أنَّ مَنْ يفعل ذلك من المسلمين يكونُ قد ضلَّ سواء السَّبيل، وهو يخبِطُ خبطَ عشواء في دنيا الفتن والأهواء: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، ثمَّ جلّت سورة المائدة صفات الذين ضلّوا عن سواء السّبيل بأنّهم هم الذين حاقت بهم لعنة الله، وغضبه، وجعل منهم القردة والخنازير، زيادة في تخويف الذين آمنوا حتّى يتّقوا أحابيلهم، ويتجنّبوا سُبلهم. قال جلّ شأنه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

٣ ـ بَسْط الكفّار أيديهم وألسنتهم بالسّوء إلى المؤمنين:

يُبيّنُ الله تبارك وتعالى للمؤمنين في سورة الممتحنة حقيقةَ أعدائهم وأنّهم لا يتوانَوْنَ في الإضرار بهم، فيقول لهم: لا تظنّوا أعداءَ الله وأعداءَ رسوله هؤلاء يبذلون لكم المودَّةَ؛ فإنّهم إن يثقفوكم ويتمكّنوا منكم فإنَّهم يظهرون على حقيقتهم من العداوة والبغضاء، ويُمارسوا العداوةَ فيكم بما يضرُّكم ويُؤذيكم، ويبسطوا إليكم أيديَهم وألسنَتَهم بالسّوء قتلًا وأسرًا وهجاءً، ولا تنتظروا منهم وَدادةً، إلّا وَدادةً مُعيَّنة هي دُخولُكم في الكُفر[(١)]. قال جلّ شأنه: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

من ناحية أخرى، يمتنُّ الله جلّ شأنُه على المؤمنين في سورة

---

(١) انظر: فرهود، لباب التفاسير، ج٥، ص ٢٦٣٠.

المائدة ، بأن كفَّ أيدي اليهود عنهم في الزّمن الذي همّ جماعةٌ من بني النّضير ، وعزموا وخطّطوا لقتل محمد ﷺ ، حين قصد ديارهم ليستلِفَ منهم دية رجلين كان قد قتلهما عمرو بن أميّة الضّمري خطأً ، فرحّبَ به بنو النّضير في الظّاهر ، وبيّتوا قتله في بواطنهم ، وندبوا لذلك أحدَهم ، فأعلم اللهُ رسولَه فخرج ، وخرج معه أصحابه من ديارهم فجأة(١) . فالله تعالى يُذكّرُ المؤمنين بهذه النّعمة ، نِعمةِ إنجاء نبيّهم من كيد اليهود ، الذين أرادوا أن يبسطوا إليه وإليهم أيديهم بالسّوء ، وفي ذلك قال جلّ شأنه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ١١] .

يجمع بين الحادثتين أنَّ آيةَ الممتحنة أوضحت أنَّ أعداء الإسلام بشكل عام ، لن يستنكفوا أن يبسطوا أيديهم بالسّوء للبطش بالمسلمين وإلحاق الضّرر بهم حيثُما أُتيحت لهم الفُرصُ ، وتيسّرت لهم الأسبابُ ، ثُمّ جاءت آيةُ المائدة (١١) فضربت مثالًا لحقيقة ما يُضمرُه أعداءُ الإسلام ، ومنهم اليهود ، وبيّنت نعمة الله على المسلمين جميعًا حين كفّ أيديهم عن نبيّهم وعنهم.

ومن اللّطائف البيانية في هذا المقام ، أنَّ الآيتين استعملتا تقنيةً من تقنيات لغة الجسم ، حيث جاء التّعبير عن إلحاق الأذى والضّرر ببسط اليد واللسان بالسّوء: ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ، وهو من ناحية علم البيان مجازٌ في البطش والإضرار بالآخرين(٢) .

---

(١) انظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج٧ ، ص ٣٧٥ ، وفرهود ، لباب التفاسير ، ج١ ، ص ٤٣٣ .

(٢) انظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج٦ ، ص ١٣٨ .

٤ ـ البراءةُ من الشّرك وأهله:

تحدّثت سورة الممتحنة عن تبرُّئِ إبراهيم عليه السّلام والذين آمنوا معه من قومهم حين علموا وأيقنوا أنَّ قومهم على الشّرك، وأنّهم مُستمِرّون في عبادة الأصنام، وقالوا لقومهم في صراحة المؤمنين الصّادقين: «بدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبدا حتّى تؤمنوا بالله وحده»: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

المُلاحَظُ أنَّ العداوةَ والبغضاء نفسها تحدّثت عنها سورة المائدة في ثلاثة مواضع:

أ: العداوة والبغضاء بين النصارى فيما بينهم:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

ب: العداوة والبغضاء بين طوائف اليهود:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

ج: اجتهاد الشّيطان لإلقاء العداوة بين المسلمين:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

.. هذا ، ولم يرد هذا المركّب العطفي (العداوة والبغضاء) إلّا في هذه المواضع الأربعة من سورتي المائدة والممتحنة ، وهذا دليل قطعيّ واضح على شدّة التلاحم بين السّورتين في النّاحية اللّفظيّة والمعنويّة.

٥ - إلى الله وحده المصير:

قرّرت آيةُ المائدة (١٨) أنَّ الله وحده هو الذي إليه المصير: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨] ، وجأر المؤمنون في سورة الممتحنة بدعائهم: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

٦ - الله هو العزيز الحكيم:

جاء وصفُ الله تعالى في السّورتين بكونه هو العزيز الحكيم بصيغة مؤكّدة: بتوظيف أداة التوكيد (إنّ) والتوكيد اللفظي بالضمير (أنت) والجملة الاسميّة التي هي أوكد من الجملة الفعليّة:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٥].

٧ - رحمة الله الواسعة:

وردت آياتٌ في المائدة والحجرات والممتحنة تُبشّرُ برحمة الله المُخطئين ، الذين يتوبون ويستغفرون من ذنوبهم ، وجاء وصف الله

باسميه الكريمين الجميلين: غفور رحيم في عدد من الآيات منها:

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٤].

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٧٤].

﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٩٧ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٧ ـ ٩٨].

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ٥].

﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١٢].

٨ ـ العدل أساسُ الملك:

الذين آمنوا بالله تعالى هم أولى النّاس بتطبيق أسس العدل ، وأن يحكموا بين الناس بالقسط ؛ لذلك جاءت ثلاثُ آيات تُصرِّحُ بأنَّ الله تعالى يُحبُّ المقسطين في السّور الثلاث المُفتتحة بنداء الذين آمنوا: فمحمد ﷺ مُطالَبٌ بأن يحكم بين الناس جميعًا ، وبين أهل الكتاب إن احتكموا إليه ؛ بالقسط: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

والأمرُ ذاته ينطبقُ على المؤمنين ، فهم مُطالَبون أن يُصلحوا بين إخوانهم إذا تخاصموا ، وأن يحكموا بينهم بالقسط في المُنازعات والخصومات: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

حتّى الكفار وأهل الكتاب الذين لم يقاتلوا المسلمين ، ولم يُخرجوهم من ديارهم ، فقد حثّ الإسلام على حسن معاملتهم والإقساط إليهم ، وذلك ما أتمّت تصويره آيةُ الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

٩ ـ الحديث عن الظالمين ، وتوكيد وصفهم بالظّلم المُهلك:

بيّنت آيةُ المائدة (٤٥) أنَّ الذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى ، ويُعطّلون شرعه ؛ هم الظّالمون الجديرون بوصف الظلم: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وأوضحت آيةُ الحجرات (١١) في سياق نهي الذين آمنوا عن اقتراف القبائح السِّتِّ، أنَّ الذين لا يتوبون إلى الله تعالى بعدما جاءهم النّذير، وأوضح لهم ما يحلُّ لهم فعلُه وما يحرُم عليهم، بأنَّهم هم الظّالمون حقًّا وصدقًا: ظالمون لمجتمعهم لأنّهم يتعاطون خطايا وذنوبًا تعود بالوبال والسّوء والفتنة على المسلمين فيما بينهم، وظالمون لأنفسهم بإيرادها المهالك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

والظُّلمُ ذاتُه هو وصفٌ للذين يتولَّونَ الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

١٠ ـ الله هو العليم الحكيم:

قرّرت آيةُ الحجرات (٨) بأنَّ الله هو العليم العلّامُ، الذي لا يعزُبُ عن علمه شيءٌ في الكون كلّه، وهو الحكيم الذي يضعُ كلَّ شيء في الموضع الصّحيح الذي يليقُ به، والأمرُ ذاته قرّرته قبلها سورة الممتحنة في آيتها (١٠):

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨].

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠].

١١ ـ التذكير بعقد الإيمان:

الذي يحثُّ المسلمين ويُحفِّزُهم على تطبيق أحكام الشّرع، وعدم التّفريط في أي جزء منها، هو الإيمانُ الصّادق القويّ بلقاء الله تعالى،

الذي بدوره يدعو المسلمين إلى تجنّب محارم الله ، وإتيان محابّه ومراضيه ، والوقوف عند حدوده؛ من هنا تكرّرت في القرآن جملٌ وعباراتٌ تُحفّزُ على تقوى الله ، وتوقظُ شعلةَ الإيمان في نفوس المؤمنين:

﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٨].

﴿ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [الممتحنة: ١١].

علمًا أنَّ هذه العبارة ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ لم تُكَرَّرْ بهذا البناء في القرآن كلّه إلّا في هذين الموضعين من المائدة والممتحنة ، وهذا يدلُّ على وثيق التّلاحم وشدّة الارتباط بين السّورتين.

١٢ ـ مناداة الذين آمنوا في السور الثلاث:

من الرّوابط المضمونية واللّغوية اللفظية التي تكرّرت في السّور الثلاث: تكرير مُناداة المؤمنين بالنّداء المحبّب إليهم ، الذي يُذكِّرهم بالعقد العظيم الذي دخلوا فيه مع الله مولاهم الحق ، وهذه أشدُّ الرّوابط التي تجعلُ السّور الثلاث كأنّها سلسلةُ آيات متواصلة المعاني والدّلالات المتقاربة ، والقوالب اللّغوية المتشابهة:

المائدة:

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٦].
- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ [المائدة: ٨].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

• ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ﴾ [المائدة: ٩٥].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ١٠٥].

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

الحجرات:

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢].

الممتحنة:

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ﴾ [الممتحنة: ١٠].

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

١٣ ـ الوعد بالمغفرة والأجر العظيم:

جاء في سورة المائدة وعدٌ من الله الكريم الوهّاب أنَّ الذين آمنوا

وعملوا الصّالحات أعدَّ لهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩]، والثّوابُ نفسُهُ أعدّه الله للذين يغضّون أصواتهم تأدُّبًا مع رسول الله ﷺ في سورة الحجرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وهذه الجملة ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في حالة الرّفع لم تُكرَّر في القرآن الكريم كلّه إلّا في هذين الموضعين. وجاءت في حالة النّصب في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

أمّا جملة ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فجاءت في سورة هود (١١)، وفي سورة فاطر (٧)، وفي سورة الملك (١٢).

١٤ - أصناف البشر الذين عطّلوا عقولهم، فوصمهم البيان القرآني بأنّهم لا يعقلون:

حكمت آيةُ المائدة (٥٨) على الذين اتّخذوا الصّلاةَ هزوًا ولعبًا بأنّهم قومٌ عطّلوا ألبابهم فهم لا يعقلون: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]، ووصمت الآيةُ (١٠٣) أكثر الذين كفروا ويفترون على الله الكذب أيضا بأنّهم قومٌ لا يعقلون: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وعلى نفس المنوال، نعتت آيةُ الحجرات (٤) الذين يُنادون

رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، ولا يوقّرونه التّوقيرَ الذي يستحقّه، ويتجاوزون حدودَ الأدب مع مقام النُّبوّة بأنّهم قومٌ لا يعقلون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]. وبمثل هذا الوضوح نرى أنَّ سورتي المائدة والحجرات اشتركتا في ذكر الذين عطّلوا عقولهم وارتكسوا في حمأة الحيوانية التي لا يعقلُ أفرادُها.

١٥ ـ الأمر بتقوى الله:

حفلت السّور الثلاث بالحثّ على التّقوى، فهي السّلاح الأقوى، والحصنُ الحصين، والمُحفِّزُ الدّاخليُّ الذي يحرسُ التّشريعات والتّوجيهات الرّبّانيّة، وبما أنَّ السور الثلاث مدنية، وهي حافلةٌ بأنواع القضايا التَّشريعيّة ما يتعلّق منها بالخُلُق العام، وما يتعلّق بالعلاقات بين المؤمنين فيما بينهم، وما بينهم وبين الطوائف الأخرى، فقد جاءت مُذيّلةً بالاسمين الكريمين: العليم الحكيم، وبأنَّه جلَّ ثناؤه خبيرٌ بما يعملون: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧].

﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٨].

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المائدة: ٩٦].

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨].

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢].

الحجرات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

الممتحنة:

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الممتحنة: ١١].

١٦ - العلمُ بما في السّماوات وما في الأرض:

ورد في سورتي المائدة والحجرات حديثٌ عن علم الله سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء، والعليم بما في السّماوات وما في الأرض: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧]، وجاء في الحجرات: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٦].

وقد جاءت آيةُ المائدة متحدِّثةً عن جعل الله تعالى الكعبة وتصييرها منذ أنْ أمر نبيّه إبراهيم عليه السلام ببنائها أن تكون قيامًا للناس، أي: عليها يقومُ أمرُ دينهم ودنياهم، يقومون بين يدي ربّهم حولها مُصلّين، وطائفين، وعاكفين، وتنتعشُ تجاراتهم وشؤونهم الدّنيوية في الرّحلة إليها، وكذا جعل الشّهر الحرام زمنًا مُعظّمًا للعبادة، وجعل الهدي والقلائد وسائل لإظهار المؤمن طاعته، ويقرّبَ نسُكَه بين يدي مولاه في ساحة الانكسار والعبوديّة. ثُمّ علّل الله جلّ شأنه هذا التّقريرَ الإلهي مخاطبًا المسلمين: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟... ﴾، ونلحظُ أنَّ جملة التّعليل جاءت مؤكّدةً في شطريها: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، و﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾، وهو أمرٌ يتعلّقُ بالتّشريع، يستحقُّ التّوكيد والتّقرير من حيثُ الأهميّة والخطر، فجاءت (أنَّ) حاملةً لذلك المعنى.

أمّا آيةُ الحجرات، فخطابٌ للأعراب الذين أسلموا ظاهريًّا، ولم يتجذّرِ الإيمان في قلوبهم، فقال الله العليم الخبيرُ موجِّهًا محمدًا ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ وتُعرّفونه ما لا يعلمُ من أحوالكم؟! وكيف يكون ذلك كذلك ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، وبما أنّهم يعلمون حالهم التي كانوا عليها، ودرجة إيمانهم، أي أنهم لم تَكُنْ أذهانُهم خاليةً من الحديث الذي تمّ مواجهتُهم به، فقد جاء الكلام غيرَ مؤكّدٍ.

قال ابنُ عاشور: «والاستفهامُ للتّوبيخ، وقد أُيِّدَ التّوبيخُ بجملة الحال في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، وفي هذا تجهيلٌ إذْ حاولوا إخفاءَ باطنهم عن المُطَّلِع على كلّ شيءٍ»[1].

من خلال السّرد السّابق للآيات المُتشابهة، والمشتركة بين المائدة، والحجرات، والممتحنة؛ يتبيّنُ بجلاء ووضوح جملةُ الرّوابط والعلاقات المعنويّة واللّفظيّة التي تربطُ ثوبي السورتين، وهذا يُفسّرُ جانبًا لظاهرة تشابه مطالع بعض السّور دون بعض، ولعلّ ثمّة حِكمًا أخرى سيُظهرُها الله في حينها على يدي من يشاء من متدبّري الذِّكر الحكيم.

* * *

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٦، ص ٢٦٩.



المَبْحَثُ الرَّابِعُ

السور المُسبِّحات

(الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى)

السُّورُ المسبِّحاتُ هي: الأعلى (٨ نزولًا)، والإسراء (٥٠ نزولًا)، وهما مكّيّتان، ثم نزل في المدينة سور الحديد (٩٤ نزولًا)، ثُمَّ الحشر (١٠١ نزولًا)، ثُمَّ التغابن (١٠٨ نزولًا)، فالصّفُّ (١٠٩ نزولًا)، فالجمعة (١١٠ نزولًا).

تسمّى هذه السّور المُسبِّحات لأنَّها افتُتِحَت بمادّة التّسبيح؛ حيثُ جاء بصيغة الأمر ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وبصيغة الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وبصيغة المضارع: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، وبصيغة المصدر ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ﴾.

سورة الأعلى:

تُعَدُّ سورة الأعلى من قصار المفصّل، وهي في جملتها دعوةٌ إلى تنزيه الله تعالى، وإفراده بالألوهية والربوبيّة، وتوحيده في أسمائه وصفاته؛ فهو الإله الربُّ الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى، وأيّدَ نبيّه محمدًا بمعجزة القرآن العقلية الخالدة، وأقرأه إيّاها فوعاها

وكتبها في قلبه: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦ ـ ٧] ، وفيها تثبيتٌ لمحمد ﷺ بأنَّ الله خالقه وهاديه سيُيسِّرُهُ لليُسرى ، وأنّ ما أُرسِلَ به تُصدِّقُه الكتبُ السابقة وصحفُ إبراهيم وموسى ، تهويناً للأمر على قلبه ، ومواساةً له.

سورة الإسراء:

سُمِّيَت سورة الإسراء بهذا الاسم لأنَّ حادثةَ الإسراء العظيمة ذُكِرَت في مطلَعها: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١] ، وكانت تُسمّى في عهد الصّحابة رضوانُ الله عليهم: سورة بني إسرائيل؛ للحضور القويّ الظّاهر لجانب من قصّة بني إسرائيل في مطلعها ؛ ابتداء من الآية الثانية: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢] إلى قوله تعالى ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨].

ثُمَّ عاد السياق بعد جولات من شرح المسائل العقدية وأصول قضايا التّشريع ، وذِكْرٍ لبعض جوانب المعجزة القرآنية الخالدة ، وجانب من قصّة امتناع إبليس من السّجود لآدم ، وذِكرٍ لخصائص محمد ﷺ وما ميَّزَه الله تعالى به عن غيره من الأنبياء والرّسل وغير ذلك ، عاد السياقُ يتحدّث عن إيتاء موسى البيّنات التسع ، وحواره مع فرعون ، وعن بني إسرائيل والمجيء بهم في وعد المرّة الآخرة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝١٠٢ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝١٠٣ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٤].

فسبب تسميتها بسورة بني إسرائيل، على الرَّغم من أنَّ قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل جاءت مفصّلَةً، وبأثوابٍ لغوية متنوّعة في سور كثيرة مثل البقرة، والمائدة، والأعراف، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وغيرها، قلت: السببُ يعود ـ والله أعلم ـ إلى أنَّهُ ذُكِرَ فيها ما لم يُذكَر في غيرها مِمّا يتعلَّقُ بأحوال بني إسرائيل في الشّوط الأخير من قصّة تاريخهم؛ حيث ذكرت السُّور الأخرى قصة موسى عليه السلام ومعجزاته، وما لقيه من فرعون، والأحداث التي مرّت ببني إسرائيل في تاريخهم الأوّل، وأبرزت الدُّروس المستفادة من ذلك، ولكنَّ سورة بني إسرائيل كشفت القناع عن جانب المستقبل المحجوب ممّا يتّصِلُ بهذه الأُمّة التي تنتسبُ إلى إسرائيل، ويتعلّقُ بخصائص تكوينها.

علاوةً على ذلك فقد جاءت جملٌ صريحةٌ في السُّنن الصّحيحة أنَّ رسولَ الله ﷺ سمّاها كذلك؛ فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: «**كانَ النَّبيُّ ﷺ** لا ينامُ حتّى يقرأَ الزُّمَرَ وبني إسرائيل»[١]، وجاء في صحيح البخاري أنَّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنَّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: «**إنَّهنَّ من العِتاق، وإنَّهنَّ من تلادي**»[٢].

وسورة الإسراء مكيّةٌ في مجملها إلا أربع آيات أو خمسًا على اختلافٍ بين علماء التنزيل[٣].

والذي يعنينا في هذا المقام هو بيانُ وجه ارتباط سورة الإسراء

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الدّعاء.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص ٢٠٣.

بأخواتها المسبّحات ، أو بعضٍ منها ، والذي يظهرُ بعد التّدبُّر في مضامين سورة الإسراء والمسبّحات الأُخر ؛ أنَّها تشترِكُ مع الجميع في مقوّمات منها :

١ - الحضور المكثّف لمادة التّسبيح في مواضع منها :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ١] .

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٣ - ٤٤] .

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٦] .

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٣] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٨] .

الأسماء الحسنى :

أمر الله تعالى المسلمين أن يدعوه بأسمائه الحسنى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، ولا توجد سُورٌ ذُكِرَت فيها أعدادٌ كثيرةٌ من الأسماء الحسنى مجتمعةً كما جُمِعت في السُّور المُسبّحات؛ حيثُ جاء فيها ٣٥ اسمًا من الأسماء موزّعة على المسبِّحات السّبع من غير عدّ ما جاء ذكره مكرّرًا .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ المرَكَّبَ الوصفيَّ (الأسماء الحسنى) ورد ذِكرُه في القرآن الكريم أربع مرّات : في الأعراف ، وفي الإسراء : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا

وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي طه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وفي الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

ولا أظنُّ أنَّ أحدًا يستطيعُ أن يُخالفَ أو أن يُجادل في الحكمة البيّنة الجليّة في ذِكر هذا المركَّب الوصفي ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ في سورتين من المسبّحات السّبع وهما الإسراء والحشر، وهذا دليلٌ قويٌّ على الترابط الوثيق الذي يجمع بين هذه السور ويُوحِّدها.

٢ ـ الأسماء الحسنى في المسبّحات:

في سورة الإسراء:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٣٠].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [الإسراء: ٦٦].

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٦].

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٩].

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الإسراء: ١١٠].

الأسماء الحسنى في سورة الحديد:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١].

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢].

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٩].

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠].

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحديد: ٢٤].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

سورة الحشر:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١].

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر: ٦].

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ

ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

سورة التغابن:

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

هذا وقد وردت كلمة التّوحيد في سورتي الحشر والتغابن على التوالي:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣].

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الاسمين الكريمين (الملك والقدوس) لم يردا بهذا الترتيب في القرآن كلّه إلا في سورتي الحشر والجمعة:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

الأسماء الحسنى التي وردت في المسبّحات مع حذف المكرّر: (الله، السَّميعُ، الْبَصِيرُ، الخَبِير، الحَلِيم، الغَفُور، الوَكِيل، الرّحمن، الرّحِيم، الشَهِيد، القَادِر، الْعَزِيزُ، الْحَكِيمُ، القَدِيرُ، الأَوَّلُ، الآخِرُ، الظَّاهِرُ، البَاطِنُ، العَلِيم، الرَؤوف، الْغَنِيُّ، الْحَمِيدُ، القَوِيُّ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيْمِنُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، البَارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الشَكُور، الأعلى).

٣ ـ حديث الإسراء والحشر والصّف والجمعة عن بعض أنبياء بني إسرائيل:

ومِن الرّوابط المضمونيّة التي تُوحِّدُ بين المسبّحات، حديثُها عن بني إسرائيل والأنبياء الذين أُرسلوا إليهم، فقد جاء ذكرُ موسى عليه السلام، وهو نبيٌّ بني إسرائيل الأكبر، في الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]، وجاء ذكرُه في الصفّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وجاء ذكرُ داود عليه السلام، وهو من أنبياء بني إسرائيل في سورة الإسراء: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وجاء ذِكرٌ لعيسى ابن مريم، وبيانُ كونه رسولًا إلى بني إسرائيل جاء على فترة من الأنبياء والرسل، وبيانُ كونه أيضًا مبشِّرًا برسولٍ اسمُه أحمد ﷺ في الصفّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

والقارئ يتملَّكه العجب، حين يتدبَّرُ في هذا الاختيار الرّبّاني لهذه الكوكبة العظيمة من أنبياء بني إسرائيل، وكيف جاء ذكرُهم في سورتي الإسراء والصّف، وليس ثمة من جواب إلّا القصد والحكمة الربّانية العالية لبيان أنّ الأنبياء والمرسلين يخرجون من مشكاة واحدة، ويصدرون عن مصدر واحد هو مصدرُ التّوحيد، وكلّ نبيّ جاء مُبشّرًا بالذي يأتي بعده إلى أن وصلت رايةُ التوحيد، وسُلّمت

إلى محمد عليه السلام، وأوحى الله إليه القرآن الكريم، وأرسله للعالمين بشيرًا ونذيرًا.

وجاء في خاتمة سورة الصف نداءٌ للمؤمنين، ودعوةٌ لهم لكي يصطفّوا مُؤمنين مجاهدين، ومناصرين لدعوة محمد ﷺ، وضرب لهم مثلا بالذين ناصروا عيسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

٤ - إرسال الرسل تترى، وحديث سورتي الحديد والصّف عن عيسى ابن مريم:

وجاءت سورة الحديد وقرّرت أنَّ الله تبارك وتعالى أرسل إلى الأقوام الرسل، وقفّى بعضَهم ببعض، وطوى أسماء جميع الأنبياء والرسل وذكرهم تحت مسمى: ﴿رُسُلَنَا﴾، وذكر اسم عيسى عليه السلام صريحًا، فانظر إلى عظمة التَّوافق في ذكر نبيّ الله عيسى عليه السلام في سورة التسبيح الثانية (الحديد)، بعد ذكر أخويه موسى وداود عليهما السلام في سورة التسبيح الأولى (الإسراء). قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

٥ ـ حديث عن أهل الكتاب:

على أنَّ الموضوع الخطرَ الذي يربطُ بين السّور المُسبّحات هو موضوعُ ضرورة إخراج بني إسرائيل من الأراضي المقدّسة، وقتالهم

إن هُمْ أبَوْا ذلك؛ حيثُ إنَّ سورة الحشر أوضحت أنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من المدينة ، وهم في السيرة بنو النضير ، وأجلاهم من ديارهم لأوّل الحشر ، بعدما تحصّنوا في بيوتهم ، وظنّوا أنَّها مانِعتُهم من الله تعالى ، فسلّط الله القويُّ العزيزُ عليهم عبادَه المؤمنين من الصّحابة الكرام ، تحت راية قائدهم العظيم محمد ﷺ ، فأجلاهم من ديارهم قسرًا وعُنوةً ، فخرجوا منها وهم يتحسّرون ، وأبت نفوسُهم الخبيثةُ إلا تخريبَ البيوت حتى لا ينتفِعَ منها المؤمنون ، وصوّر القرآنُ الكريم ذلك بأبلغ بيان فقال جلّ من قائل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

وأوضحت سورة الحشر في مقام آخرَ منها أنَّ المنافقين المذبذبين هم الذين يتعاونون مع اليهود ، وهم الذين ديدنُهم الكفرُ والإرجافُ ، وتبديلُ المواقع والمواضع ، والتّخندُق مع حزب الكفر أيًّا كان لونه وشكله ، حسبما تقتضيه مصالِحُهم ومنافِعُهم الدُّنيويّة العاجلة ، فلا ثوبَ لهم دائما يلبسونه ، ويظهرون به للعيان ، وإنّما يلبسون لكل حالةٍ لَبوسَها ، ولكل مقام ثوبَه البرّاق ، وهذا شأنُ النفاق العقائدي في كلّ عصرٍ ومصر ، وفي كلّ آنٍ وحين. قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

وليس أهلُ الكتاب بِمُعاجزين ، ولا يستطيعون أن يُوقِفوا مدَّ تحرير العباد ، وتعبيدهم لخالقهم وإلههم الحق ، وقد أوضحت سورةُ

الحديد أنَّ الله ناصرٌ دينَه، ومُظهرُه على الدّين كلّه، حيثُ قال جلَ شأنه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

ثُمّ جاءت سورةُ الجمعة وضربت مثلًا رائعًا يُقرِّبُ صورة الأحبار، الذين استُحفِظوا الكتاب فلم يحفظوه، وحُمّلوا التّوراةَ فلم يحمِلوها، صوّرهم البيان القرآني البليغ بحمار يحملُ كتبا عظيمةً، ولكنّه لا يستفيد ممّا فيها من منافع وحكم وعلوم.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥ ـ ٧].

وفي روعة هذا التّشبيه التّمثيلي ما يُجلّي حقيقة الحَبْر اليهودي، ويبيّن شناعةَ جُرمه في حق نفسه وحقّ أمّته؛ فقد شُبّه الحَبْرُ اليهودي الذي كُلِّفَ حَمْلَ التَّوراة، وبيانَ ما فيها من هدايات وأحكام، وآداب، إلى قومه؛ بمثل الحمار الذي يحمل كتب العلم النافع، ولا ينتفِع بها، وفظاعة التشبيه تأتي من تشبيه اليهودي بالحمار دون سواه من الحيوانات التي لا تعي، ولا تعقل، وجليٌّ أنَّ المرادَ هو إظهار البلادة والجهل المطبق، ولم يقل: بحمار يحمل أثقالًا، وإنّما يحمل أسفارًا من العلم النافع، وثلّث ذلك كلّه بأنّه لا ينتفع بها بتاتًا؛ فوجْهُ الشَّبه منتزَعٌ من متعدِّد، وهو الذي يقرّبُ الصورة للقارئ كأنّه يراها رأي العين. «وهذا التّمثيلُ مقصودٌ منه تشنيعُ حالهم، وهو من

تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف»[(١)].

٦ ـ سُورةُ الإسراء وشأنُها مع بني إسرائيل:

أمّا سورة الإسراء، فشأنها مع بني إسرائيل شأنٌ عظيم، وحديثُها عنهم حديثٌ يحملُ الكثيرَ من الإرهاصات المُبشِّرة للمؤمنين، ويحملُ الشُّؤمَ والخزيَ لبني إسرائيل، جزاءً وِفاقًا على تكبّرهم على الله تعالى، وقتلهم الأنبياء، وتحريفهم كتب الله، وإفسادهم في الأرض.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

وقد تعدّدت أقوالُ المفسّرين في الإفسادتين المذكورتين في هذه الآية الكريمة، هل وقعتا؟ ومتى وقعتا؟ أم لم تقعا بعد؟ ومَن المراد بقوله ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾؟:

القول الأوّل:

قال الآلوسي: واختلف في تعيين هؤلاء العباد ـ الذين بعثهم الله لِمُعاقبة بني إسرائيل بعد إفسادهم الأوّل ـ فعن ابن عبّاس وقتادة: هم جالوتُ وجنودُه، وقال ابنُ جبير وابنُ إسحاق: هم سنحاريب ملك بابل وجنوده، وقيل: هم العمالقةُ، وقيل: بختنصّر»[(٢)].

القول الثّاني:

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «فالمرّةُ الأولى هي مجموع حوادث متسلسلة تسمّى في التاريخ بالأسر البابليّ، وهي غزوات

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ٢١٤.
(٢) الآلوسي، روح المعاني، ج ١٥، ص ٢٤.

بختنصّر ملك بابل وآشور بلادَ أورشليم ، والغزو الأول كان سنة ٦٠٦ قبل المسيح ، أسَرَ جماعات كثيرةً من اليهود ، ويُسمّى الأسر الأوّل ، ثم غزاهم الغزو الثاني ، وهو أعظم من الأوّل ، كان سنة ٥٩٨ قبل المسيح ، وأسر مِلِكَ يهوذا وجَمْعًا غفيرًا من الإسرائيليّين. . .والأسر الثالث المبير سنة ٥٨٨ قبل المسيح ، غزاهم (بختنصّر) وسبى كلَّ شعب يهوذا ، وأحرق هيكل سليمان ، وبقيت أورشليم خرابًا يبابًا ، ثُمّ أعادوا تعميرَها.

وأمّا المرّةُ الثانيةُ فهي سلسلةُ غزوات الرّومانيين بلادَ أورشليم[(١)]».

وفي كل إفسادة كان الله تعالى يبعثُ عليهم عبادًا أولي بأس شديد يسومُونهم سوءَ العذاب ، يقتلون رجالهم ، ويسبون نساءهم ، ويجوسون خلال ديارهم.

ثُمّ ردَّ الله الكرّة لهم ، وتابوا وندموا ، وتغلّب ملك فارس على ملك بابل ، وتحقَّقَ لهم الدُّخول إلى أورشليم من جديد سنة ٥٣٠ قبل المسيح ، وجدّدوا دولتهم ، وذلك نصر انتصروه على البابليين إذ كانوا أعوانًا للفرس عليهم[(٢)].

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧] ، «المشارُ إليه بهذه المرّة الآخرة هو ما اقترفه اليهودُ من المفاسد والتّمرّد وقتل الأنبياء والصّالحين والاعتداء على عيسى وأتباعه. . .وقد أنذرهم زكرياء ويحيى وعيسى فلم يرعووا ، فضربهم الله الضربةَ القاضيةَ بيد الرّومان.

---

(١) ابن عاشور ، المرجع نفسه ، ج ١٥ ، ص ٢٩/ ٣٠.

(٢) انظر ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج١٥ ، ص ٣٢.

وبيانُ ذلك: أنَّ اليهودَ بعد أن عادوا إلى أورشليم ، وجدّدوا مُلكَهم ومسجدَهم في زمن (داريوس) ، وأطلق لهم التّصرّف في بلادهم التي غلبهم عليها البابليّون ، وكانوا تحتَ نفوذ مملكة فارس ، فمكثوا على ذلك مائتي سنة من سنة ٥٣٠ إلى ٣٣٠ قبل المسيح ، ثم أخذ ملكُهم في الانحلال بهجوم البطالسة ملوك مصر على أورشليم ، فصاروا تحت سلطانهم إلى سنة ١٦٦ قبل المسيح؛ إذ قام قائدٌ من إسرائيل اسمه (ميثيا) ، وكان من اللاويين فانتصر لليهود ، وتولّى الأمرَ عليهم ، وتسلسل الملكُ بعده في أبنائه في زمن مليء بالفتن إلى سنة أربعين قبل المسيح. دخلت المملكة تحت نفوذ الرّومانيين وأقاموا عليها أمراءَ من اليهود كان أشهرهم (هيرودس) ، ثمّ تمرّدوا للخروج على الرّومانيين ، فأرسل قيصرُ روميّة القائدَ (سيسيانوس) مع ابنه القائد (طيطوس) بالجيوش في حدود سنة أربعين بعد المسيح فخُرِّبَت أورشليم ، واحترق المسجد ، وأسر (طيطوس) نيفًا وتسعين ألفا من اليهود ، وقُتِل من اليهود في تلك الحروب نحو ألف ألف ، ثم استعادوا المدينة ، وبقي منهم شِرذمةٌ قليلةٌ بها إلى أن وافاهم الأمبراطور الرّومانيّ (أدريانوس) فهدمها وخرَّبها ، ورمى قناطير الملح على أرضها كيلا تعود صالحةً للزّراعة ، وذلك سنة ١٣٥ للمسيح. وبذلك انتهى أمرُ اليهود وانقرض ، وتفرّقوا في الأرض ولم تخرج أورشليم من حكم الرّومان إلّا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطّاب سنة ١٦ صلحًا مع أهلها ، وهي تسمّى يومئذٍ (إيلِيّاء)»[(١)].

الرأي الثالث:

أمّا الشيخ الشعراوي فيرى أنّ الإفسادتين وقعتا في عصر صدر

---

(١) ابن عاشور المرجع نفسه ، ج١٥ ، ص ٣٧/ ٣٨.

الإسلام، فإذلالهم وتعذيبهم في المرّة الأولى وقع على يدي رسول الله ﷺ والصّحابة رضوان الله عليهم معه، حين غدر اليهود في المدينة، ونقضوا المعاهدة التي أبرموها مع رسول الله ﷺ.

قال الشيخ الشّعراوي: «فلمّا غدروا هم، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم، جاس رسولُ الله صلّى الله عليهم خلال ديارهم، وقتل منهم من قتل، وأجلاهم عن المدينة إلى الشّام وإلى خيبر، وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ... وهذا هو الفسادُ الأوّل الذي حدث من يهود بني النضير، وبني قينقاع، وبني قريظة، الذين خانوا العهد مع رسول الله، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا» (١).

والدّليل لدى الشّيخ الشّعراوي أنّ الإفسادتين وقعتا في حضن الإسلام هو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]، حيث إنه من المعلوم أنّ (إذا) ظرفٌ لما يُستقبَلُ من الزمان، وسورة الإسراء مكيّةٌ نزلت بعد حادثة الإسراء: «فهذا دليل على أنَّ أُولى الإفسادتين لم تحدث بعد، فلا يستقيمُ القول بأنَّ الفساد الأوّل وقع في قصّة طالوت وجالوت، وأنّ الإفساد الثاني جاء في قصة بختنصّر» (٢).

وفي قوله ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ...﴾ [الإسراء: ٥] دليلٌ آخرُ على أنَّ الإفسادتين كانتا في حضن الإسلام؛ لأنَّ كلمةَ (عبادًا) لا تُطلَقُ إلّا على المؤمنين، أمّا جالوت الذي قتله طالوت، وبختنصّر فهما كافران.

---

(١) تفسير الشعراوي، ج١٣، ص ٨٣٥٢.
(٢) تفسير الشعراوي، ج١٤، ص ٨٣٥٣.

ثُمّ جاء قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، «الخطابُ في هذه الآية مُوجَّهٌ لبني إسرائيل، والآيةُ تُمثِّلُ نقطةَ تحوُّلٍ وانقلابٍ للأوضاع، فبعد ما تحدّثنا عنه من غلبة المسلمين، وأنَّ الله سلّطهم لتأديب بني إسرائيل، نرى هنا أنَّ الوضعَ لم يستمرَّ؛ لأنَّ المسلمين تخلَّوْا عن منهج الله الذي ارتفعوا به، وتنصّلوا من كونهم عبادًا لله، فدارت عليهم الدّائرةُ، وتسلّط عليهم اليهود، وتبادلوا الدّورَ معهم؛ لأنَّ اليهودَ أفاقوا لأنفسهم بعد أن أدَّبهم رسولُ الله والمسلمون في المدينة، فأخذوا ينظرون في حالهم وما وقعوا فيه من مخالفات.

ولا بُدَّ أنَّه قد حدث منهم شبه استقامةٍ على منهج الله، أو على الأقل حدث من المسلمين انصرافٌ عن المنهج، وتنكُّبٌ للطّريق المستقيم، فانحلّت الأمورُ الإيمانيّةُ في نفوس المسلمين، وانقسموا دُوَلًا، لكلٍّ منها جغرافيا، ولكلٍّ منها نظامٌ حاكمٌ ينتسبُ إلى الإسلام، فانحلّت عنهم صفةُ عباد الله.

فلم يحدُثْ بيننا وبينهم حروبٌ لعدّة قرون، منذ عصر الرّسول إلى أن حدث وعدُ بلفور، الذي أعطى لهم الحقَّ في قيام دولتهم في فلسطين، وكانت الكرّةُ لهم علينا في عام ١٩٦٧م، فناسب العطفُ بـ (ثُمّ) التي تفيد التّراخي.

﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، وفعلًا أمدّهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحابَ رأس المال في العالم، وأمدّهم بالبنين الذين يُعلّمونهم ويُثقّفونهم على أعلى المستويات، وفي كل المجالات. ولكن هذا كلّه لا يُعطيهم القدرةَ على أن تكونَ لهم كرَّةٌ على المسلمين، فهم في ذاتهم ضعفاءُ رغم ما في أيديهم من

المال والبنين ، ولا بُدَّ لهم لكي تقومَ لهم قائمةٌ من مُساندة أنصارهم وأتباعهم من الدّول الأُخرى ، وهذا واضحٌ لا يحتاجُ إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومي المزعوم في فلسطين.

وما زالت الكرّةُ لهم علينا ، وسوف تظلُّ إلى أن نعود كما كنّا ، عبادًا لله مُستقيمين على منهجه ، مُحكّمين لكتابه ، وهذا وعدٌ سيتحقَّقُ إن شاء الله ، كما ذكرت الآية التالية:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧].

في الآية بشارةٌ لنا أنّنا سنعودُ إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا يقظةٌ وصحوةٌ نعودُ بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها ستكون الغلبةُ والقُوّةُ ، وستعودُ الكرَّةُ لنا على اليهود ، ونُلحقُ بهم من الأذى ما يظهرُ أثرُهُ على وجوههم.

والمتأمِّلُ في هذه العبارة: ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٧] ، يجِدُ أنَّ دخولَ المسلمين للمسجد الأقصى أوّل مرّة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، ولم يكن الأقصى وقتها في أيدي اليهود ، بل كان في أيدي الرّومان المسيحيّين. فدخولُهُ الأوّلُ لم يكن إساءَةً لليهود ، وإنّما كان إساءةً للمسيحيّين ، لكن هذه المرّة سيكونُ دخولُ الأقصى ، وهو في حوزة اليهود ، وسيكونُ من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل المسجد الأقصى ، ونُطهِّرَه من رجسهم.

ونلحظُ كذلك في قوله تعالى: ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أنَّ القرآنَ لم يقلْ ذلك إلّا إذا كان بين الدّخولين خروج.

إذن ، فخروجُنا الآن من المسجد الأقصى تصديقٌ لنبوءة القرآن ، وكأنَّ الحقَّ سبحانه يريدُ أن يلفِتنا: إن أردتُم أن تدخلوا المسجد الأقصى مرّةً أخرى ، فعودوا إلى منهج ربّكم وتصالحوا معه.

وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ ، كلمة (الآخرة) تدلُّ على أنّها المرّةُ التي لن تتكرَّرَ ، ولن يكون لليهود غلبةٌ بعدها. . . فهو وعدٌ آتٍ لا شكَّ فيه ، بدليل أنَّ هذه العبارة جاءت بنصّها في آخر السّورة في قوله تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٤]. ومعنى هذا أنَّ الله أراد لهم أن يظلّوا مُبَعثَرين في جميع الأنحاء ، مُفرَّقين في كلّ البلاد ، كما قال عنهم: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ، فتجدهم منعزلين عن النّاس منبوذين بينهم ، كثيرا ما تُثارُ بسببهم المشاكل ، فيشكو النّاسُ منهم ويقتلونهم ، . . . وهكذا سيظلُّ اليهود خميرة عكْنَنةٍ ونكدٍ بين سكّان الأرض إلى يوم القيامة.

وبعد أن أسكنهم الله الأرضَ وبعثرهم فيها ، أهاج قلوبَ أتباعهم من جنود الباطل ، فأوْحَوا إليهم بفكرة الوطن القومي ، وزيّنوا لهم أُولى خطوات نهايتهم ، فكان أن اختاروا لهم فلسطين ليتّخذوا منها وطنًا يتجمّعون فيه من شتّى البلاد.

وقد يرى البعضُ أنَّ في قيام دولة إسرائيل وتجمّع اليهود بها نكايةً في الإسلام والمسلمين ، ولكنّ الحقيقة غيرُ هذا ، فالحقُّ سبحانه وتعالى حين يريدُ أن نضربَهم الضّربةَ الإيمانيّةَ من جنودٍ موصوفين بأنّهم ﴿ عِبَادٗا لَّنَآ ﴾ ، يلفِتُنا إلى أنَّ هذه الضّربةَ لا تكونُ وهم مُفرَّقون في العالم كلّه ، ولن نُرسلَ عليهم كتيبةً إلى كلّ بلدٍ لهم فيها حارةٌ أو حيٌّ ، فكيف لنا أن نتتبَّعَهم وهم مُبعثَرون ، في كلّ بلدٍ شِرذِمةٌ منهم؟!

إذن ففكرةُ التّجمّع والوطن القومي التي نادى بها بلفور ، وأيّدتها الدّولُ الكبرى المُساندة لليهود والمُعادية للإسلام ، هذه الفِكرةُ في الحقيقة تُمثِّلُ خدمةً لقضيّة الإسلام. . .وليس بيننا وبين هذا الوعد إلّا أن نعود إلى الله ، ونتّجه إليه»[١].

ترجيحٌ وموازنة:

من خلال دراسة الأقوال السّابقة ، وتحليلها ، ومقارنتها بالأحداث التّاريخية، ومنطوق الآيات، ودلالاتها اللزوميّة والإيمائيّة، يترّجّحُ لديّ ـ والله أعلم بأسرار قرآنه ـ أنَّ رأي الشّيخ الشّعراوي هو الأكثرُ صوابا في تحديد العباد الموسومين بأنّهم عبادٌ لله تعالى ، وأُولُو بأس شديد ، الذين سلّطهم الله تعالى على اليهود بعد إفسادتهم الأولى ، وبأنَّ اليهودَ يعيشون اليوم في عهد الإفسادة الثانية ، فالكرّة اليوم هي لهم ، وهم أكثرُ نفيرًا وإعلامًا وصخبًا في المحافل والمجامع العالمية بسبب أخذهم بأسباب وسائل الإعلام ذات الحدّين القاطعين: فهي فتّانة ومغرضة وهادمة ، وهي بانيةٌ ومُوَجّهةٌ وهاديةٌ إذا أحسن أهلُ الحقّ استعمالها ، وبامتلاكهم أيضا رؤوس الأموال المُغرية ، وبأخذهم بأسباب العلم. ثم سوف يأتي وعدُ الآخرة ، أي المرَّة الثانية التي يُخرِجهم فيها المسلمون الصّادقون المنضبطون بشرع الله ، والمقاتلون تحت راية التّوحيد ، ذوو الأيدي المتوضّئة ، والوجوه المشرقة ، والقلوب الطّاهرة ، والأنفس التّقيّة المؤمنة المخلصة ، ويُخرجونهم من المسجد الأقصى الذي عاثوا فيه فسادًا وإلحادًا وظلمًا.

---

(١) تفسير الشعراوي ، بتصرف واختصار ، ج١٤ ، من ص ٨٣٥٣ إلى ٨٣٦٩.

وجملة القول إنّ سورة الإسراء تحدّثت عن أمر إخراج اليهود من المسجد الأقصى، والأراضي المباركة حوله بسبب إفسادهم في الأرض، وعلوّهم فيها، وفي هذا الإخبار في القرآن عن طبائعهم، وعن الإخراج الأوّل والإخراج الثاني لهم، وفي إقرار القاعدة الاجتماعيّة العُظمى التي أخذهم الله تعالى بها: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨] خِزيٌ لهم، وتعذيبٌ نفسيٌّ لهم حيثما حلّوا، وإلى أيّ مكان ارتحلوا، وفيها بشارةٌ عظيمةٌ للمسلمين الصّادقين أنّ العاقبةَ لهم، وأنّهم هم الغالبون والمنصورون على اليهود المفسدين؛ حين يأخذون بأسباب النّصر وشروط التّمكين، التي لخّصتها آيةُ النور في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

من هنا أقول: إنّ الارتباط وثيقٌ بين سورة الحشر التي تحدّثت عن إجلاء بني النّضير من المدينة المنوّرة في عهد المصطفى ﷺ، وهي الكرّةُ الأولى ـ كما هو تحليل الشّيخ الشعراوي ـ، وبين سورة الصّفّ التي تحدّثت عن حبّ الله تعالى للمقاتلين الذين يُقاتلون في سبيله صفًا موحّدًا كأنّهم بُنيانٌ مرصوصٌ قبيل الحديث عن رسالة موسى وعيسى عليهما السّلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وبين سورة الحديد التي أوضحت أنّ أهل الكتاب لا يقدرون على شيء، وأنّ الفضل كلّ الفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده، وبين سورة الإسراء التي صوّرت تاريخ إذلال اليهود وقهرهم من قبل الملوك السّابقين بسبب إفسادهم وعلوّهم في الأرض، وتنكُّبهم عن الصّراط المستقيم، والمبشّرة

أيضا بإعادة تعذيبهم على أيدي المؤمنين الصادقين ؛ كلمّا عادوا إلى الإفساد والتّتبير.

بقي أن أشير إلى أنَّ ثمّةَ أيقونتين لغويتين تُؤيّدان التّأويل الذي ذهب إليه الشيخ الشّعراوي، بأنَّ إخراج المسلمين لبني النّضير وبني قينقاع وبني قريظة من المدينة هو وعد المرّة الأولى، وأنَّ المسلمين سيُخرجونهم في المرّة الثانية، وتكون هي المرّة الآخرة، قلت: في سياق آية الحشر ثمّة كلمةٌ لافتةٌ للانتباه، وهي قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾، فما المقصود بأوّل الحشر إذا لم يكن ثمّةَ حشرٌ ثانٍ؟ ولا يُمكن لغةً لقائل أن يقول: هذا أوّل الشّيء أو أوّل الأمر إلا إذا كان ثمّة شيءٌ ثان يتبعه، وأمر ثانٍ يشفعه. فهذه العبارة تُشيرُ إلى أنَّ إخراج اليهود وإجلاءهم من المدينة كان هو وعد المرّة الأولى، وقد حشرهم الرّسول ﷺ والمؤمنون معهم، وأخرجوهم من ديارهم عنوةً وقسرًا لنقضهم العهد.

والتّعبير الثاني المعبّر به عن الحشر الثاني هو كلمة (لفيفًا)، التي أجمع المفسرون أنّ معناها: جئنا بكم جميعًا، وهي كلمة مُقاربةٌ لمعنى الحشر مرادفةٌ له، والله أعلم.

٧ ـ التعريف بالصّادقين الحقيقيين، والتصريح بأنَّ اليهود ليسوا من الصّدق في شيء:

تحدَّت سورةُ الجمعة اليهودَ أن يتمنَّوا الموت إن كانوا صادقين: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]؛ فهم كاذبون، وهم أحرصُ الناس على حياة، وبيّنت سورة الحشر الصّادقين الحقيقيين، وأوضحت أوصافهم بأنّهم أُخرِجوا من دياهم ظلمًا وعُدوانًا، وهاجروا إلى

المدينة ليعبدوا الله تعالى، ويفردوه بالألوهية والعبادة الحقّة، واجتهدوا لنصرة الإسلام، مبتغين الفضل والأجر منه جلّ ثناؤه؛ فأولئك هم الصّادقون قولًا وفعلًا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

٨ ـ العلاقة بين الواقعة والحديد:

جاء في ختام سورة الواقعة الأمر بالتّسبيح: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٥ ـ ٩٦]، ثم وَلِيَتها سورة الحديد مباشرةً في المصحف الشّريف تُقرِّرُ وتؤكِّدُ أنَّ كلّ ما في السّماوات والأرض سبّحَ لله تعالى، وصيغةُ المُضيّ تفيدُ تحقُّقَ وقوع الفعل.

هذا، ويربطُ بين السّور المُسبّحات أنّها كلّها افتُتِحت بفعل التّسبيح في الصّيغ الثلاث: الماضي، والمضارع، والأمر:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١].

٩ ـ وصف الله تعالى بأنَّه على كل شيء قديرٌ:

جاء في سور الحديد، والحشر، والتّغابن، وَصْفُ الله جلّ ثناؤه بأنّه على كل شيءٍ قديرٌ، وهي من العبارات التي وردت في كثير من السّور القرآنية، إلّا أنّها تُعَدُّ في هذه السّور المتشابهة المطالع من الأثواب اللغوية الرّابطة بينها، والمُوحّدة لعبارات التّذييل والتّعقيب فيها:

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢].

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر: ٦].

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١].

١٠ ـ وصفُ الله تعالى بأنّه بكلّ شيءٍ عليمٌ:

نظيرُ ما سبق، وصفُه جلّ شأنه بأنّه بكل شيءٍ عليمٌ في سورتي الحديد والتّغابن: الموضع الأوّل في سياق تعداد بعض أسمائه الحسنى في الحديد: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣]، والموضع الثّاني في سياق الحديث عن كون ابتلاء الناس بالمصائب هو من تقدير الله تعالى وبإذنه؛ فهو المحيطُ علمُه بكل شيء، لا يعزُبُ عن علمه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، بل هو بكل شيءٍ عليم: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

١١ ـ خلق السماوات والأرض:

ورد في سورتي الحديد والتغابن حديثٌ عن خلق الله للسموات والأرض، وذلك من المضامين المتكرّة للتوكيد، ومزيد التقرير، وفيها دلالة على أنّ السورتين (الحديد، والتغابن) تصدران عن مشكاة واحدة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

كما ذكرت سورة الحديد أنّ الله تعالى له ملك السماوات والأرض، وذكرت سورة التغابن أنّه يعلم ما في السماوات والأرض، والقضيّتان متلازمتان، فالذي يملك يعلم ماذا يملك.

١٢ ـ وصفه تعالى بأنّه بصير بما يعملون:

ومثل ذلك وصفُه جلّ ثناؤه بأنَّه بما يعملون بصير. ورد ذلك في موضعين: في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

١٣ ـ العلم بذات الصّدور:

ورد في سورتي الحديد والتغابن أيضًا، حديثٌ عن علمه جلّ ثناؤه بذات الصدور بالعبارة ذاتها إلّا أنَّ آية الحديد جاء فيها ذكر الضّمير المنفصل (هو)، وآية التغابن جاء فيها ذكرُ لفظ الجلالة صريحا (الله):

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ٦].

﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن: ٤].

١٤ ـ الحديث عن ضرورة الإيمان بالله ورسوله:

اشتركت سور الحديد والصّف والتّغابن في دعوتها إلى ضرورة الإيمان بالله ورسوله، وهي من المضامين التي تقوّي الرّوابط المعنويّة بينها:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾ [الحديد: ٧].

﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الحديد: ٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف: ١١].

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [التغابن: ٨].

١٥ ـ حديث سورتي الحديد والتغابن عن الإنفاق:

من الرَّوابط المضمونيّة الواضحة أيضا بين سورتي الحديد والتّغابن حديثُهما عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، وحثُّهما عليه، واستعمالُ مادّتي الإنفاق والإقراض، ودعوتهما إلى إقراض الله القرض الحسن، الذي يعودُ عليهما بالمُضاعفة والنّفع والمثوبة في الدّنيا والآخرة:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ [الحديد: ٧].

﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ

أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٠ ـ ١١].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٦ ـ ١٧].

١٦ ـ وصف الله بالرَّحمة والرأفة:

من الأسماء الحسنى التي جاءت في سورتي الحديد والحشر الاسمان الكريمان: (رؤوف)، و(رحيم) بالتّرتيب نفسه:

الموضع الأول هو موضع الامتنان على الخلق، فالله هو الذي أنزل على عبده الآيات البيّنات لهداية الخلق أجمعين، وهذا من آثار رأفته ورحمته: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

والموضعُ الثاني هو سياق الدّعاء؛ حيث ورد الاسمان الكريمان في تضرّع المؤمنين الصّادقين الذين جاؤوا بعد المؤمنين السّابقين، ويدعون ربّهم بأن يغفر لهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان: «﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

١٧ ـ وصف الله تعالى بأنه خبير بكل ما تعملون:

من الرّوابط المضمونية واللّفظية أيضا وصفُ الله جلّ ثناؤه في سورتي الحديد والتّغابن بأنّه خبيرٌ بما يعمل المخاطبون:

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

١٨ ـ التبشير بالجنّات التي تجري من تحتها الأنهار:

جاء في سورة الحديد حديثٌ عن تبشير الملائكة للمؤمنين بعاقبتهم الحسنة: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]، وجاء في سورة التّغابن وعدُ كلّ من يُؤمن بالله ويعمل صالحًا؛ بأنّ جزاءه أن يُدخلَه الله جنّات تجري من تحتها الأنهار: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

١٩ ـ ذِكْرُ الفوز العظيم:

جاء ذكرٌ للفوز العظيم الذي يناله المؤمنون الصّادقون في الجنّات في سور الحديد والصّفّ والتّغابن، والملاحظ أنّ الجملة جاءت مؤكّدةً بضمير الفصل (هو) في الحديد، ووردت غيرَ مؤكّدة في الموضعين الآخرين:

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

وقضيّة تأكيد العبارات والأسلوب في سورة الحديد ليست مقصورةً على هذا الموضع فقط، بل وردت في عبارات أُخرَ كما سيأتي بيانه.

٢٠ ـ حديثٌ عن المنافقين:

جاء في سورة الحديد ذكرٌ للمنافقين الذين يتحسَّرون حيث لا ينفع التّحسُّرُ، ويقولون للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣].

ثم جاءت سورة الحشر وبيّنت سبب عدم تواجد المنافقين مع المؤمنين، وذكرت أنواعًا من فظائع أعمالهم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٤].

٢١ ـ الحديث عن مصير أهل النار:

جاء في سورتي الحديد والتّغابن حديثٌ عن أصحاب النّار ومصيرهم البائس بأسلوبين متقاربين:

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٥].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ١٠].

٢٢ ـ حديث مستفيض عن الفاسقين:

ورد في سورة الحديد حديثٌ مفصّل عن أحوال الفاسقين:

﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٦].

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وذكرت سورة الحشر أنَّ إجلاء المسلمين لبني النضير وأشياعهم هو بإذن الله تعالى، ومن أغراضه أيضا إلحاقُ الخزي بالفاسقين: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥].

ثمّ بيّنت السُّورة في ختامها أنَّ الفاسقين هم الذين نسوا الله تعالى، فكانت النّتيجةُ أن أنساهم اللهُ أنفسَهم: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩]، ثم جاءت سورة الصَّف وبيّنت أنَّ الله لا يهدي القوم الفاسقين: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

٢٣ ـ حديث عن فضل الله الذي يؤتيه من يشاء أربع مرات:

جاء ذكرُ فضل الله تعالى الذي يُؤتيه من يشاءُ من عباده في أربعة مواضع: مرتين في سورة الحديد، ومرّتين في سورة الجمعة:

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وهذا كلُّه يدّلُّ على أنَّ هذه السُّور تصدرُ عن معين واحد، وتفيض بمضامين متقاربة في أشكال وأثواب لغوية متوافقة ومتقاربة ومتناسقة، ومن أجل هذا نالت شرفَ المطالع الموحّدة.

٢٤ ـ التّذييل بعبارة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾:

ورد هذا التّذييل في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وفي التّغابن في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

٢٥ ـ وصفُ الله تبارك وتعالى ذاته العليّة بأنّه غنيٌّ حميد:

جاء وصفُ الله جلّ ثناؤه بأنّه غنيٌّ حميد، والملاحظ أنَّ عبارة آية الحديد جاءت مؤكَّدةً بالضَّمير (هو) على شاكلة كثير من الآيات والعبارات التي صحبها التّوكيد في سورة الحديد، وخلت آيةُ التّغابن من الضَّمير (هو):

جاء في الحديد: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

وجاء في التّغابن: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا

فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [التغابن: ٦].

٢٦ ـ البأس الشديد:

من الأثواب اللغوية المشتركة بين السّور المسبّحات؛ المُركّب الوصفي (بأس شديد)، حيثُ تكرّر ذكرُهُ في سورة الحديد بوصف كون الحديد فيه بأسٌ شديد، وجاء في سورة الإسراء وصف العباد الذين بعثهم الله تعالى على اليهود إثر الإفسادة الأولى بأنّهم عبادٌ أولو بأس شديد، وجاء في سورة الحشر وصف الذين كفروا من أهل الكتاب بأنَّ بأسهم بينهم شديد، وقلوبهم شتّى، وديدنهم الفرقة والخلاف:

﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ٥].

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

٢٧ ـ الدَّعوة إلى تقوى الله تعالى:

من الرَّوابط المضمونيَّة أيضا بين المسبِّحات؛ الأمرُ بتقوى الله تعالى وطاعته:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦].

٢٨ ـ وصف الله تعالى بالاسمين الكريمين: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

٢٩ ـ التَّحذير من الشُّحّ:

ومن الرَّوابط المعنوية واللَّفظية القويَّة؛ حديثُ سورتي الحشر والتَّغابن عن الإنسان الذي يقيه الله شُحَّ نفسه، وهي من الرَّوابط القويَّة لأنَّها أخذت نفس القالب اللّغوي والتَّعبيري، ولم ترد في القرآن كلّه إلّا في هاتين السورتين:

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦].

«والشُّحُّ: اللُّؤمُ، وأن تكونَ نفسُ الرَّجل كزَّةً حريصةً على المنع، وقد أُضيفَ إلى النَّفس لأنَّه غريزةٌ فيها، وأمَّا البُخلُ فهو المنعُ نفسُهُ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه، ومَنْ غلبَ ما أمرَته به منه، وخالفَ هواها بمعونة الله وتوفيقه فأولئك هم المفلحون الظّافرون بما أرادوا» [١].

٣٠ ـ الحديث عن الكافرين بأنّهم ذاقوا وبال الأمر:

من الرّوابط اللّفظيّة عبارة ﴿ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، حيثُ تكرَّرت في الحشر والتّغابن:

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٥٠٥.

﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٥].

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ٥].

أثبتت الآيتان السّابقتان أنَّ الذين كفروا ذاقوا وبال أمرهم، وأعدّ الله لهم عذابًا أليمًا، وجاءت سورة الصّف ترشد الذين آمنوا إلى ما يُنجيهم من عذابٍ أليم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠].

٣١ ـ نداء الله الذين آمنوا في المسبِّحات:

اشتركت المسبّحات الخمس المدنيّات: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتّغابن؛ في نداء الذين آمنوا، وهذا متناسقٌ مع ديدن القرآن المدني، الذي جاءت فيه معظم التّشريعات الإسلامية في ثوب نداء الذين آمنوا وتوجيههم إلى الأخذ بها؛ فالذين آمنوا بحكم كونهم نطقوا بالشّهادتين فقد دخلوا في عقد إيمانيّ، وهذا العقد الإيمانيّ هو الذي يقتضي أن يُنادَوا به في جميع التّشريعات التي يُكلّفون بها:

١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢].

٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠].

٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [الصف: ١٤].

٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩].

٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

٣٢ ـ حديث عن عالم الغيب والشهادة:

جاء وصف الله تعالى بأنّه عالمُ الغيب والشّهادة في الحشر والجمعة والتّغابن:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢].

﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨].

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [التغابن: ١٨].

٣٣ ـ عدم هداية الله الظالمين:

جاء في سورتي الصَّفّ والجمعة تقرير أنَّ الله تبارك وتعالى لا يهدي القومَ الظالمين بسبب ما ارتكبوا من ظلم. والظالمون أنواع: أظلمُهُم هو من افترى على الله الكذب، وتتفاوت درجاتُ آخرين في سلّم الظلم حسب شدّة الجرم الذي يرتكبونه في حقوق النّاس:

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الصف: ٧].

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

٣٤ ـ تشابه الثَّوب اللُّغويّ التَّعبيري في صدر الآية وختامها:

نلحظُ أنَّ سورتي الصّفّ والجمعة ورد فيهما آيتان متشابهتان في المطلع والختام؛ حيثُ جاء في صدرهما نداء الذين آمنوا، وجاء في ختام كلّ منهما عبارة ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: ١١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩].

٣٥ ـ تبشير المؤمنين في الإسراء والصَّف:

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٣].

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

من كلّ ما سبق وغيره ممّا لم تقف عليه هذه المقارنة، يستنتج المتدبِّرُ في كلام الله تعالى، والدّارسُ لأسرة المسبّحات السّبع، أنَّ ثمّةَ روابطَ مضمونيّةً ولفظيّةً تربطُ بينها بشكلٍ لافتٍ للانتباه، يُؤكِّدُ لكل متدبّرٍ أنَّها كلَّها متّحدةٌ في المعاني التي جاءت تعرضُها، وتقدّمها، وفي الأثواب اللغوية والتعبيريّة التي جاء استعمالُها فيها، ومن أجل ذلك، ولأمورٍ الله يعلمها، جاءت مطالعُها متحدّثةً عن التسبيح، داعيةً إليه، بطرق وصيغ متنوّعة، وسبحان منزّل القرآن!.

* * *



المَبحَثُ الخَامِسُ

سورتا الفرقان والملك

الرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة بين السورتين

تتناولُ سورة الفرقان كشأن نظيراتها من السُّور المكّيّة جملةً من قضايا تنزيه الله تعالى وتوحيده، وتنزيل القرآن الكريم، وبشريّة الرَّسول ﷺ، ومسألة النِّذارة، ودلالة مخلوقات الله تعالى البديعة على عظمته، وإحاطة علمه، وطلاقة قُدرته ومشيئته.

تقعُ من حيثُ التّرتيبُ المُصحفيُّ بعد سورة النّور المدنيّة، وقبل سورة الشّعراء المكّيّة، وهي من حيثُ ترتيبُ النّزول (٤٢ نزولًا) بعد سورة يس، وقبل سورة فاطر، وهي مكّيّةٌ في مجملها إلا الآيات (٦٨)، و(٦٩)، و(٧٠)، فهي مدنيّة، والآيتين (٤٥)، و(٤٦) نزلتا في الطائف في العهد المكي، ولكن بشكلٍ عام يغلب على أسلوبها طابعُ القرآن المكّيّ، وهي تقع في ٧٧ آية. وهي تتّسم بجملة من الخصائص والملامح منها:

المَلمح الأول: شُبَهٌ وردُّها:

تتميَّزُ سورة الفرقان بميزةٍ جليّةٍ من حيثُ المضمونُ؛ حيثُ إنَّها أوردت جملةً من الشّبه التي تعلّقَ بها الكافرون في عهد النُّبُوّة، ومن الممكن أن يتعلَّقَ بها أتباعُهم في جميع العصور، والميزةُ في هذا

الملمح أنَّها تعرِضُ الشُّبهة، وتُردِفُها مُباشرةً بما يُبطِلُها ويدحَضُها، وفيما يأتي عرضٌ لذلك:

١ ـ شُبهةُ كون القرآن إفكًا وافتراءً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

جاء الرّدُّ على هذه الشبهة في الآية نفسها حيثُ قال جلّ شأنه: ﴴفَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

٢ ـ شُبهةُ بشريّة الرّسول ﷺ، وأكله الطّعام، ومشيه في الأسواق: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨].

وقد جاء الرّدُّ على هذه الشّبهة بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠].

٣ ـ شُبهةُ الاختلاف فيما يُطلِقون على الرّسول صلّى الله عليه من أوصافٍ وألقابٍ: فطورًا يقولون عنه: إنّه ساحر، وطورًا يقولون عنه إنَّه شاعر، وتارةً يتّهمونه بالجنون، وهم في كلّ ذلك يتخبّطون، ويضربون له الأمثال ضالّين غيرَ مهتدين: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

وقد جاء الرّدُّ على هذه الشّبهة في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩]؛ حيثُ وصفهم القرآنُ بأنّهم ضلّوا وتاهوا عن الوصف الحقيقيّ الذي يُمكنهم أن يصفوا به محمدًا ﷺ وصفًا صحيحًا.

٤ ـ شُبهةُ تنزيل الملائكة رِدءًا للرّسول، وتصديقًا لرسالته،

ونُصرةً له ، وبجوارها شبهةُ رؤية الله تعالى بحجّة داعية الإيمان: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان: ٢١] ، وجاء الرّدّ على هاتين الشّبهتين في الآية نفسها والآية الموالية لها: ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١ ـ ٢٢].

فهي شُبهةٌ ناجمةٌ عن استكبارٍ وعُتوّ ، وإذا ما تحقّقَ لهم شيءٌ منها ، وهي رؤيةُ الملائكة مثلًا ، يكونُ الأوانُ قد فات ، ويكونُ العذابُ قد حلّ ، ولا بُشرى للكافرين المُجرمين يومَها ، وسوف يجأرون ويصطرِخون قائلين: حِجرًا محجورًا؛ فما يمنعُ عنهم العذابَ مانع ، ولا يحجزُ عنهم العذابَ حاجزٌ.

٥ ـ شُبهةُ تنزيلِ القرآن جملةً واحدةً: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢] ، وقد جاء الجوابُ عن هذه الشُّبهة في عَجُز الآية نفسها: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢] ، أي: أنزلناهُ إليك مُنجَّمًا حسب الأحداث مُعالِجًا لما يعترِضُ الدّعوةَ الإسلاميّةَ في دربها الطّويل (٢٣) عامًا.

والمُلاحَظُ أنَّ في الآيات التي عرضت شُبههم ، وَسَمَهم البيانُ القرآنيُّ بجملة سماتٍ ، ونعتهم بصفات ، ليست من قبيل التّفنّن والتّنويع ، ودفع السّأم عن القارئ فقط ، وإنّما هي نُعوتٌ هم بها حقيقيون ، وهم بها مُتّصفون: وسمهم بالكفر فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ، ووسمهم بالظّلم فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ . . . ﴾ ، وذكرهم باسم الموصول مُوضِحًا بالصّلة شأنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا . . ﴾ ، ونعتهم بالإجرام: ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وهذا يُنبِّهُ المسلم إلى أنَّ هذه الشُّبَهَ لا تصدُرُ إلّا عن أُناسٍ هذه بعضُ صفاتهم؛

فهم كافرون ، ظالمون ، مجرمون ، ضالون ، لا يرجون لقاء الله تعالى .

المَلمَح الثاني:

الملمَحُ الثّاني الذي يبرُزُ بجلاء في شخصيّة سورة الفرقان من بدايتها إلى نهايتها هو مَلمَحُ النّذارة؛ فالرّسولُ محمدٌ ﷺ له وظائفُ كثيرةٌ بحكم كونه رسولًا ونبيًّا ، فهو هادٍ إلى الله تعالى ، مبيّنٌ لشرعه ، معلّمٌ لعباده ، وداعٍ إلى التّوحيد وأصول الاعتقاد الصّحيح ، وبشيرٌ للمؤمنين ، ونذيرٌ للكافرين والمنافقين ، وناشرٌ لدعوة الحقّ ، ومُطبِّقٌ لأصول الشّريعة وفروعها ، وزوجٌ مُربٍّ ، وقائدٌ حكيمٌ ، وإمامٌ للمسلمين في كلّ شؤونهم الدّينيّة والدُّنيويّة .

ولكنَّ الملمحَ البارِزَ الذي ركّزت عليه سورةُ الفرقان هو كَونُهُ نذيرًا: نذيرًا للكافرين بين يدي عذاب السّعير ، ونذيرًا للمُجرمين ، ونذيرًا للظّالمين ، وهذا خطٌّ واضحٌ في التّأكيد على صفة النِّذارة من بداية السّورة إلى نهايتها ، وفي مواضع من مضمونها العام. قال جلّ شأنه:

١ ـ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

٢ ـ ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٧] .

٣ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٦] .

٤ ـ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥١] .

فأنت ترى أنَّ الآيةَ الأُولى بيّنت وظيفةَ الإنذار؛ فكأنَّ الرّسولَ ﷺ لم يُنزِّل الله تعالى عليه الفرقانَ إلّا ليكون للعالمين نذيرًا ، متوعِّدًا

للكافرين، ومُوضِحًا لهم سوءَ المصير إذا هم لم يُعلِنوا إيمانَهم، ولم يعتقدوا الاعتقادَ الصّحيح.

وأنت ترى أيضا أنَّ الآيات التي حملت صفةَ (نذيرًا) جاءت مبثوثةً من أوّل السّورة إلى نهايتها، وجاء ذِكرُ البِشارة مرّةً واحدةً، وفي هذه المرّة الواحدة جيء بالوصف على بِنية اسم الفاعل (مُبشّرًا)، وشتّان بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة (نذير) في الدّلالة؛ وذلك لأنَّ المقامَ مقامُ إنذارٍ، فأفعالُ الكافرين المذكورة في السّورة، وشُبَهُهُم التي كانت تلهجُ بها ألسِنتُهم بين الفينة والأُخرى يُناسِبُها العذابُ الأليم؛ فالحضورُ في هذا السّياق لصفة النِّذارة، لا لصفة التّبشير.

المَلمَحُ الثالث:

والملمَحُ المتميِّزُ الثالثُ للسّورة هو مَطلَعُها المهيبُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ومعنى: تبارك: تزايدَ خيرُه، وتعاظمَ كرمُهُ وعطاؤُه، وتعالت عظمتُه. وقد تكرّرت هذه الكلمة في سورة الفرقان ثلاث مرّات: في بداية السّورة، وفي ثلثها الأوّل في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠]، وفي ثلثها الأخير: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وكأنَّ هذا الفعل المبارك الذي يفيضُ تنزيهًا وتقديسًا يُمسِكُ بالسّورة من محاورها الثلاثة: مطلع التّنزيه والتّوحيد، ومقطع دفع الشّبُهات، ومقطع بيان بديع صُنع الله في الكون، والملاحَظُ أيضًا أنَّ الفعل (تبارك) جاء متبوعًا في الآيات الثلاث باسم الموصول (الذي)، إيذانًا بأهمّيّة ما في صلته من دلالات تُوحِّد اللهَ وتُنزِّهه.

الملمَحُ الرّابع:

والملمَحُ الرّابع المُتميّزُ هو حديث السّورة عن القرآن الكريم ، فهو الفرقان الذي يُفرِّقُ بين الحقّ والباطل ، وبين الإيمان والكُفر ، وبين الإسلام والشّرك ، وهو الذِّكرُ الذي يُوقِظُ العقولَ ، ويُحرِّكُ النّفوسَ ، ويهُزُّ الوِجدان ، ولكنَّ الكافرين الذين لا يرجون لقاء الله ، أعرضوا عنه ، ولجُّوا في طُغيانهم يعمهون: ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٨] ، فهم الذين قالوا عنه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ [الفرقان: ٤] ، وهم الذين قالوا عنه: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] ، ولم يستقرّوا فيه على رأي؛ لأنَّ رأيَهم فيه مبنيٌّ على الكذب والتّخرُّص والبُهتان.

وهنا جاء الوصف الحقيقيُّ من منزِّله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦]. ضمّنه من الأدلّة العلميّة ، والشّواهد الكونيّة ما يُحرِّكُ به وجدانَ المؤمنين وعقولهم ، ويُوقِظُ ضمائرَ الفِطرة في أعماق قلوبهم ونفوسهم ، ويعودُ بهم إلى الميثاق الذي قطعه الله عليهم في عالم الذَّرّ أن لا يعبدوا إلّا إيّاه ، وألّا يُشركوا به شيئًا: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقالوا عن القرآن: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

المَلمَح الخامس:

أمّا الملمَح الخامسُ من حيثُ المضمون ، فهو أنَّ مقاطعَ من

قصص الأنبياء مع أقوامهم جاء ذِكرُها مُتناسِبًا مع خطِّ السّورة العامّ القائم على الإنذار ، وكما هو معلوم ، فإنَّ القصص القرآنيَّ تكرَّرَ عرضُهُ في القرآن الكريم مكيِّه ومدنيِّه ، ولهذا التّكرار ـ كما لا يخفى على كل عاقلٍ لبيب ـ حِكَمٌ وأسرارٌ وأهدافٌ يبسُطُها العليُّ الحكيمُ لعباده ليتدبَّروها .

فعلى الرّغم من كثرة ما ورد من قصص يبدو في ظاهره أنّه مُكرَّرٌ هنا وهناك ؛ إلّا أنَّ المُتدبّرَ الحصيفَ الرّأي يُدرِكُ ـ بتوفيق الله تعالى ـ أنَّ عرضَ كلّ مشهدٍ ـ مهما صغُرَ أو كبُرَ ـ له هدفٌ خاصٌّ ، وثوبٌ لُغويٌّ خاصٌّ ، يتناسقُ مع الجوّ العامّ للسّورة ، ويتناغَمُ مع المرحلة التي أُنزِلَ فيها ، وكان رسولُ الله ﷺ والصّحابةُ معه رضوان الله عليهم يُعايِشُونها .

ولأنَّ أحدَ الخطوط البارزة لسورة الفرقان هو خطُّ النِّذارة ، فقد جاء عرضُ مشاهدَ من قصص الأنبياء معِ أقوامهم تخدُمُ هذا الغرض الدّينيّ بالدّرجة الأُولى ، ثُمَّ تُكمِّلُ أصلَ القصص الذي جاء مبثوثًا وموَزَّعًا بحكمةٍ إلهيّةٍ عظيمةٍ في سُورٍ أُخرى ، حتّى إذا ما جُمِعَت المقاطِعُ والمشاهِدُ المُوزَّعةُ هنا وهناك ، تجلّت ملامحُ الصّورة الكبرى ، وتكاملت مشاهِدُ قصّة كلّ نبيٍّ مع قومه من ألفها إلى يائها ، ووضُحَت معالِمُ المحطّات الكُبرى فيها ، وهنا في سورة الفرقان ، جاء عرضُ المشاهد المتعلّقة بإنذار الرّسل لأقوامهم ، ثمّ جاء ذِكْرٌ لتكذيب الأقوام لرُسُلهم ، فذِكرٌ لمشاهد التّعذيب والتّدمير التي عاقبهم الله المهيمِنُ بها ، كلّ ذلك لتكونَ عبرَةً للقُرشيين الذين استمسكوا بكفرهم ، ومَن سارَ في فلكهم من المُشركين العرب في تلك الحِقبة العسيرة التي كانت تُحيط بالدّعوة الإسلاميّة الفتيّة .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٦].

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨ ـ ٣٩].

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

ثُمَّ ربط البيانُ القرآنيُّ بين القصص المعروض وبين تكذيب المشركين واستهزائهم برسول الله ﷺ، وتوعّدهم بسوء المصير الذي سوف يحيقُ بهم، وفي ذلك زَجْرٌ لهم بضرورة اتّباع الدّعوة الجديدة وعدم نبذها، ومواساةٌ لمحمد ﷺ، وتثبيتٌ لقلبه، وهو يسيرُ في درب الدّعوة الشّديد: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٢].

الملامح اللفظية والتعبيريّة:

١) ـ هذا من حيثُ الملامح المضمونيّة بشكل عام، أمّا من حيثُ الملامح اللفظيّة التعبيريّة، فتَتَّسِمُ سورةُ الفرقان بصيغةٍ لفظيّة تُميِّزها عن غيرها من السّور القرآنيّة المكيّة والمدنيّة؛ فهي السّورة الوحيدةُ في القرآن الكريم كلّه التي تردَّد فيها التّركيبُ اللغوي: ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ مرّتين: أحدُهما يصف واقعًا في الحياة الدُّنيا، حيثُ جعلَ الله بين البحرين حاجزًا، وبرزخًا مانِعًا، وحِجرًا محجورًا من خصائص كلّ بحر، بحيثُ لا يمتزِجان، ولا يختلطان، ولا تفنى خصائصُ

أحدهما في خصائص الآخر[١].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣].

أمّا الموضع الثاني، فهو خاصٌّ بيوم القيامة، حيثُ يندمُ الكافرون ندمًا كبيرًا، ويرون بأعيُنهم عذاب السّعير، وينظرون يمينًا فلا من مخرج، وينظرون شِمالًا فلا من مَنجى، فيلهجون: حِجرًا محجورًا، هل لنا من حاجزٍ يمنعُ هذه النّار المتأجّجة عنّا؟ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢].

٢) ـ كما تميّزت السّورةُ من النّاحية اللفظيّة بِتكرُّر ورود مصادر بعينها مثل: (الثُّبور)، حيث ورد في الفرقان ثلاث مرات: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٣ ـ ١٤]، وورد في الانشقاق مرّةً واحدة: ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴾ [الانشقاق: ١١].

٣) ـ تتّسم سورة الفرقان بإيقاعها الصّوتيّ الجميل الهادئ الذي يتمثّلُ في الرّاء المفتوحة المنوّنة في نهايات فواصلها، والمسبوقة بياء أو واو: نذيرًا، نشورًا، وزورًا، مسحورًا، قصورًا.....

١ ـ سورة المُلك مُكمِّلةٌ لسورة الفرقان:

هذا عن المضمون العام لسورة الفرقان، وملامح شخصيّتها وثوبها اللغوي الذي تُعرَفُ به من بين السّور المكيّة، ولكنَّ هذه السّورة تتميّزُ بملمح آخرَ، لا يسعُ قارئَ القرآن ومُتدبّرَه إلا أن يجثُوَ على رُكبتيه إجلالًا لِمن أنزل القرآن بعلمه، وصاغه بِحكمته، وإكبارًا

---

(١) انظر: زغلول النجار، تفسير الآيات الكونية، ج٢، ص ٣٤٤/ ٣٤٦.

لهذا النّصّ المُقدّس الذي يفيضُ بالإعجاز ، ولا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، وهذا الملمحُ لا يُدْرَكُ بالتّدبُّرِ في آيات السّورة وحدها ، وإنّما تتّضِحُ معالِمُه عند مقارنة ملامحها العامّة مع ملامح شخصيّة سورة قرآنيّة مكّيّة أخرى ، وهنا نستطيعُ أن نقول بحقٍّ ، ولسان عاجز عن التّعبير: ما أعظمَ تناسقَ هذا الكتاب المُعجز ، وما أعظم تكامُلَه وإحكامَه وتفصيلَه!.

لِحِكَمٍ اللهُ تعالى يعلَمُها ؛ تنوّعت مطالِعُ السّور القرآنيّة المكيّة والمدنيّة وتباينت ، ولِحكم جليلةٍ أيضًا تشابهت مطالِعُ سورٍ بعينها وتطابقت ، ومن هذه السُّور المتشابهة المطالع: سورتا الفرقان والملك ، اللتان افتتحهما الباري عزّ وجلّ بقوله ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى.. ﴾.

٢ - تُرى لماذا هذا الاستهلالُ المهيبُ المتشابهُ في هاتين السّورتين؟

إذا علِمنا أنَّ جميع النصوص القرآنيّة مبنيّةٌ بإحكامٍ وتفصيلٍ عظيمين ، دعانا ذلك إلى مزيدٍ من التّدبّر في جميع آيات القرآن وسوره ، ولسوف تتجلّى لنا ـ بتوفيق الله تعالى وكرمه ـ كثيرٌ من أسراره وحِكمه.

والحكيمُ جلّ ثناؤُهُ لا يُنوِّعُ في المطالع والخواتيم لِـمُجرّد التّنويع ، ولا يجعلُها متشابهةً إلى حدّ التّطابق أحيانًا لمجرّد التّكرير ، بل إنَّ ثمّةَ حِكَمًا قد تخفى على القارئِ والمستمع أوّلَ الأمر ، وقد تبدو وتتجلّى عند تتابع الواردات التي يُكرِمُ الله تعالى بها من يشاءُ من عباده.

أقول: إنَّ لتشابه المطلعين حِكَمًا كثيرةً ، منها أنَّ السّورتين تصدران عن مورد واحد؛ وهما من مشكاةٍ واحدة ، تجمعهما كثيرٌ من الخصائص المضمونيّة والأثواب اللفظيّة ، وتجعلُهما لُحمةً واحدةً ،

تُكمِّلُ إحداهما الأُخرى، وكأنّها امتدادٌ عضويّ لها، وفيما يأتي تفصيلٌ لشيءٍ من ذلك، وعلى الله قصدُ السبيل.

٣ ـ تشابُه المطلعين:

يجمع بين سورتي الفرقان والملك تشابُهُ المطلعين، فكلتاهما تبدأُ بهذه العبارة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]؛ فالذي أنزل الفرقان هو الذي بيده الملك؛ فما على الخَلق أجمعين إلّا التّسليم للخالق الآمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ومعنى (تبارك) كما ذكر المفسّرون: تزايدَ خيرُه، وتعاظمَ كرمُهُ وعطاؤُه، وتعالت عظمتُه.

قال البيضاوي: «﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: تكاثرَ خيرُهُ، من البركة وهي كثرةُ الخير، أو تزايد على كلّ شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله؛ فإنّ البركة تتضمّنُ معنى الزّيادة»(١).

٤ ـ صِفةُ النِّذارة:

تبدو لكل قارئ لسورة الفرقان صفة النِّذارة واضحة جليّة، وكذلك هو الشّأن في سورة الملك، حيث نجد لها حضورًا واضحًا وجليًّا، ومن الموافقات اللافتة للانتباه أنّ صفةَ (نذير) تكرّرت أربع مرّات في كلٍّ منهما:

جاء في سورة الفرقان:

١ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

---

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٤، ص١١٧.

٢ ـ ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٧] .

٣ ـ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥١] .

٤ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٦] .

وجاء في سورة الملك :

١ ـ ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك : ٨] .

٢ ـ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٩] .

٣ ـ ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٧] .

٤ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الملك : ٢٦] .

هذا ، ولم يردْ ذِكرٌ للبشارة أبدًا في سورة الملك ، إيذانًا بأنَّ كلّ ما فيها يدعو إلى أخذ شؤون العقيدة بِجدٍّ وحزم ، فلا مجالَ للتّذبذب أو التَّردُّد في الالتزام ، وما على الرّسول إلا البلاغُ المبين .

٥ ـ تقدير الخلق:

في مطلع سورة الفرقان تنزيهٌ وتعظيمٌ لله ، الذي له مُلك السّماوات والأرض ، وخلق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديرًا : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ، وفي مطلَع المُلك تنزيهٌ لله تعالى العظيم المُقتدر ، وبيانٌ لجزءٍ تفصيليّ من شأن مخلوقاته : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : ٣] .

٦ ـ الله وحده هو الذي يملك الموت والحياة:

أزرَتْ الآيةُ الثالثةُ من سورة الفرقان بالذين اتّخذوا من دون الله آلهةً صمّاء وبكماء ، لا تخلُقُ شيئًا ، وهي تُخلَقُ ، ولا تضرّ ولا تنفع ،

ولا تملكُ موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]؛ بينما نزّهت سورة الملك اللهَ تعالى الذي أخصُّ خصائصه الخلقُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، ومن أخصّ خصائصه أنّه خلق الموتَ والحياة لابتلاء الثَّقَلين، أيُّهم أحسنُ عملًا؟ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

٧ ـ الله وحده الذي يملك النّشور:

نفت الآيةُ الثالثةُ أن تملِكَ آلهةُ المشركين المزعومة أيَّ شيءٍ يتعلّقُ بالعاقبة ﴿وَلَا نُشُورًا﴾، وفي الإتيان بالمصدر ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ مُنكَّرًا منفيًّا؛ إيذانٌ بأنَّهم لا يملكون من شأن النّشور شيئًا ولو كان مِثقالَ ذرّة؛ بينما أثبتت سورة المُلك النُّشورَ لله تعالى، بل أرجعته إليه وحده، فلا يشركُهُ فيه أحدٌ، والحصرُ والقصرُ المستفادان من تقديم معمول الخبر المحذوف دليلان على ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

والنّشور: هو البعث، ووجه الاستدلال بالبعث على عدم إلهيّة الأصنام التي يعبدونها من دون الله، أنّ الإله الحقّ من شأنه أن يُثيب المطيع، وأن يُعاقب العاصي، والذي لا يفعل ذلك لا يستحقُّ أن يُعبَدَ؛ من هنا جاء الإزراء بمعبوداتهم بأنّها لا تملك نشورًا زيادةً على كونها لا تملك ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً.

٨ ـ إعداد السّعير للمكذّبين والكافرين:

توعّد الله تبارك وتعالى الكافرين الظّالمين في سورة الفرقان بأنّه أعدَّ لهم سعيرًا: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]،

والوعيد ذاتُهُ، واسم النّار ذاتها، تكرَّر في سورة الملك: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]؛ فالشّياطينُ يستحقّون عذاب السّعير، والكافرون الذي لا يسمعون ولا يعقلون هم أصحابُ السّعير: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].

«والسّعيرُ: النّار الشّديدة الاستعار، وعن الحسن: أنّه اسم من أسماء جهنّم»[١].

٩ ـ إعداد العذاب الأليم لأصحابه:

توعّدت سورة الفرقان الظّالمين بعذابٍ أليم: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧]، وسورةُ الملك تنادي في الجميع: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨]، وقد سبقت الإشارةُ إلى أنَّ المقصودَ بالظالمين والكافرين واحِدٌ؛ فالكافرون هم الظالمون، وهم المجرمون، وهم أنفُسُهم الضّالّون المُكذّبون، وهم الذين لا يرجون لقاء الله في سياق سورة الفرقان.

قال القرطبي: «(أليم) في كلام العرب معناه مُؤلِمٌ، أي: مُوجع، مثل السّميع بمعنى: مُسمِع. . . . وآلم إذا أوجع، والإيلامُ الإيجاعُ، والألَمُ الوجع»[٢].

وإذا كان العذاب الأليم هو العذابَ المُؤلمَ الموجعَ، فلك أن تتوقّع شدّة العذاب من إدراكك قوّة الذي يصدر عنه الفعل، فإذا كان الله تبارك وتعالى الذي لا نهاية لقدرته وقوّته يصف العذاب بأنّه أليم؛

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٤، ص ٤٣٧.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١، ص ١٩٨.

فلك أن تتصوّر أيّها القارئ عظمة هذا العذاب وهوله.

١٠ ـ المصدران: العُتُوّ والنُّفور:

تكرَّرَ في السّورتين مصدران قليلا الاستعمال، وهم (عتوّ) و(نفور) حيثُ جاءا في سورة الفرقان في آيتين منفصلتين: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾ [الفرقان: ٦٠]، ووردا في سورة المُلك في سياق واحد: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]؛ فما جاء منشورًا ومبسوطًا في مواضع في سورة الفرقان، جاء مختصرًا مركّزًا في سورة الملك.

والعُتُوّ: هو شدّة الاستكبار. قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: «عتوا: تجاوزوا الحدّ في الظلم. يُقال: عتا علينا فلان، وقد وصفَ العُتُوّ بالكبير، فبالغ في إفراطه، يعني أنّهم لم يخسروا على هذا القول العظيم إلا لأنّهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العُتُو»(١).

قال القرطبي: «عتا يعتو عُتُوًّا، أي: استكبر، وتعتّى فلانٌ: إذا لم يُطع، والليل العاتي: الشّديد الظّلمة»(٢).

أمّا النّفور فمعناه الهروب والشّرود، وأصل هذه المادّة يتعلّق بعالم الحيوان. يقال: دابّة نَفور إذا كانت شديدة النُّفور. جاء في وصف المشركين في سورة المدّثّر: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٠]، أي: «كأنّهم في نفارهم عن الحقّ، وإعراضهم عنه؛ حُمُرٌ من حمر الوحش إذا فرّت ممّن يريد صيدها من أسد»(٣).

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص ٢٧٣.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ص ٢٤١.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٨، ص ٢٧٣.

١١ ـ أصحاب الجنّة وأصحاب النّار:

جاء في السورتين مقابلة رائعة بين أصحاب الجنَّة وأصحاب السّعير. قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وجاء في سورة الملك ذِكرُ أصحاب السّعير: ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وجاء أيضًا: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

وكلمة (أصحاب) في مثل هذا السياق تفيد طول الملازمة والبقاء؛ حيث لا يخفى أنّ الموحّدين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، كما جاء في مواضع كثيرة في القرآن، يكونون خالدين في الجنّة إن شاء الله تعالى، والمشركون الكافرون يكونون خالدين في النّار.

١٢ ـ المقابلة بين حالي السماء في الدنيا وعند قيام الساعة:

خلق الله تبارك وتعالى كلّ شيء بقدر، وأحكم صُنعه لِيُوَدِّيَ وظيفته في هذه الحياة الدّنيا، ومن ذلك السماء التي خلقها صفحة واحدة مُحكمة النّسج شديدة البنيان، لا يرى الرّائي مهما اجتهد فيها من فطور أو فروج أو تشقق، وهذا المشهد جاء ذكره في سورة الملك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

أمّا قبيل قيام الساعة، فثمّة أشياء كثيرة يُغيّرها الله تعالى تنفيذًا لوعده بتبديل الأرض غير الأرض، والسموات غير السماوات، فتحدث أشياء كثيرة تكون هي إعلانًا لبدء يوم القيامة مثل ما ورد ذكره في سُوَر التّكوير والانفطار والانشقاق وغيرها، ومن ذلك تشقُّق السماء بالغمام الذي جاء ذكره في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وهذه مقابلة

رائعة بين تشقّق السّماء يوم القيامة عند إذن الله تعالى للملائكة بالنُّزول ، وبين صفتها في الدّنيا وهي محكمة قويّة شديدة لا فطور فيها ولا فروج .

١٣ ـ اسم الله الرّحمن:

تحدّثت سورةُ الفرقان عن (الرّحمن) ، وهو اسمُ الله العظيم الثّاني الذي لا يشركُهُ فيه أحدٌ : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

تردّدَ اسم (الرّحمن) خمس مرّات في الفرقان:

١) ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

٢) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

٣) ـ ٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾ [الفرقان: ٦٠].

٥) ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

هذا يعني أنَّ سورة الفرقان حاولت أن تربِطَ النّاسَ باسم الله (الرّحمن) لعلّهم يفيئون إلى رحمته ، ولكنَّ الكافرين منهم كانوا يستهزئون ويتساءلون: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ؛ فجاءت سورةُ المُلك مُبيِّنةً أيضًا شأنَ الرّحمن ، مُوضِحةً بأنّه هو الذي يُمسكُ الطَّيرَ في السّماء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩] ، ومُبيّنةً أنّه هو الذي لا ينصرُكم أحدٌ منه إن لم تتداركْكم رحمتُه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠] ، ومبيّنة أنّه هو الرّحمنُ ؛ الذي ينبغي الإيمانُ به والتّسليمُ

له ، والتّوكُّل عليه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الملك: ٢٩].

١٤ ـ تعطيل الكافرين لأسماعهم وعقولهم:

أوضحت سورةُ الفرقان لمحمّد ﷺ أنَّ الذين كفروا بدعوته لا يسمعون ولا يعقلون ، عطّلوا وسائلَ السّمع لديهم ، وعطّلوا أدوات الإدراك لديهم؛ فهم أشبهُ بالأنعام ، بل هم أضلُّ منها: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

هذا في الدُّنيا ، أمّا في الآخرة فصوّرتهم سورةُ الملك وهم يتحسّرون ، يعضّون أيدي النَّدم ، وهم يقولون: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١]؛ فانظرْ ـ يا رعاك الله ـ كيفَ تكرَّرَ الفعلان (يسمعون ، أو يعقلون) ، و(نسمع أو نعقل) ، وهما من مادَّة واحدة ، وقد وردا بالتّرتيب نفسه ، وهذا بدوره يدلُّ على شدّة التّلاحُم بين السّورتين ، فمعاني سورة الملك تُكمِّلُ معانيَ سورة الفرقان ، بل هي امتدادٌ قرآنيٌّ لها.

١٥ ـ حديث السّورتين عن تزيين السماء بالسّرُج والمصابيح:

نزَّهت سورةُ الفرقان وعظّمت الخالقَ البديع ، الذي أحسنَ كلَّ شيء خلقه ، ومن ذلك تزيينه السّماوات بالبروج وبالشّمس المضيئة وبالقمر المنير في مجموعتنا الشّمسيّة: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١].

والأمرُ ذاته تكرَّرَ في سورة الملك ، حيثُ جاء الحديثُ عن تزيين السماء بمصابيح ، وجعلها رُجومًا للشّياطين: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا

بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥]، والعلاقة واضحةٌ بين السّراج والمصابيح، والمرادُ بها نجوم السّماء الغازية المشتعلة، والقمر الذي يعكس أنوار الشمس في كوكبنا، والأقمار الأخرى التي تجري في أفلاك كواكب ومجموعات شمسيّة أخرى.

١٦ ـ ذِكْرُ الزّفير والشّهيق:

تحدثت سورةُ الفرقان عن الكافرين الظالمين المُجرمين حين يُعاينون جهنّم وتُعايِنُهم؛ فإنّهم يسمعون لها في الفرقان تغيُّظًا وزفيرًا، وحين يُلقَوْن فيها يجأرون ويصطرخون ويطلبُون الثُّبورَ. جاء في الفرقان: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣]، وأتمّت سورةُ الملك تصويرَ المشهد ذاته، وصوّرتهم وهم يُلقَوْنَ فيها، وحينها يسمعون لها شهيقًا، ويرونها وهي تفور مُتميِّزةً من الغيظ: ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [الملك: ٧ ـ ٨]؛ فالمشهدُ الأوّلُ عند معاينة جهنم يسمعون لها زفيرًا، وإذا دخلوها وأُلقُوا فيها سمعوا لها شهيقًا وهي تفور، ولا يخفى ما بين الزّفير والشّهيق من تلازم، فهما كلمتان مُصطحبتنان في الواقع العملي، حيثُ يقومُ كلّ حيّ يتنفّسُ بعمليتي الشّهيق والزّفير في كلّ لحظةٍ وحين، وهما مُصطحبتان في البيان القرآني أيضًا، حيث وردتا في سورة هود مجتمعتين في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود: ١٠٦].

فانظر، يا رعاك الله، إلى عظمة هذا التّناسق والتّكامل بين السّورتين: آية سورة الفرقان (١٢) تتحدّث عن سماع الكافرين لزفير جهنّم، وآية الملك (٧) تتحدّث عن شهيق جهنّم، الذي يسمعه

الكافرون حين يُلْقَوْنَ فيها. إنّها بحق صورة متكاملة، وانظر كيف جمعت آية هود (١٠٦) بين زفير النّار وشهيقها.

وفي تفريق الحديث عن الزّفير والشّهيق في السّورتين، وفي الجمع بين الوصفين في سورة هود إشارة واضحة لكل ذي لبّ إلى التّكامل والتّلاحم في المضامين التي تتحدّث عنهما السّورتان، وقل سبحان من أنزل هذا القرآن وعلّمه للعالمين!!

١٧ ـ توظيف عدد من الأسماء الحسنى:

جاء في السّورتين عددٌ من الأسماء الحسنى، منها قوله تعالى في سورة الملك: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]؛ أمّا في الفرقان فقد جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، و﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

جاء في الملك: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وورد اسم الخبير في الفرقان في ثوب: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وبعض الأسماء ورد ذِكرُهُ في سورة الملك بصيغة التّعريف: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وجاء ذكره في سورة الفرقان مضافًا إلى كاف الخطاب التي تعود على محمد ﷺ تسليةً له وتثبيتًا وتطمينًا: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

جاء في سورة الملك: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، وجاء في الفرقان: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

جاء في سورة الملك: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠]، وجاء في سورة الفرقان: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

١٨ ـ حديث عن الأقوام المكذّبين:

جاء في سورة الملك ذِكرٌ إجماليّ للأقوام الذين كذّبوا الرّسل: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الملك: ١٨]، وجاء ذِكرُ عدد منهم بإيجاز شديد في سورة الفرقان ابتداء بقوم موسى عليه السّلام ثم قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرّسّ وقوم لوط: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٥ ـ ٤٠]؛ فما جاء في الفرقان هو تفصيل للإجمال الذي ورد بشأنهم في سورة الملك.

١٩ ـ وصف إهلاك قوم لوط وتهديد للمشركين المخاطَبين:

ذكَرَ الله تعالى في سورة الفرقان مشهدًا يُصوِّرُ قُرى قوم لوط الذين دمّرهم العذابُ، وكيف جعل قراهم عاليها سافلها، وجاء فيها نُصْحٌ لمشركي قريش بأن يروا بنور أبصارهم وبصائرهم مشاهد قراهم وديارهم المُدمَّرة وهم يمرّون عليها في أسفارهم للاعتبار والاتّعاظ: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

وفي إيراد هذه القصة في سورة الفرقان توجيهٌ غيرُ مباشرٍ للمخاطبين في عهد النّبوّة، لكي يتّعِظوا بما أصاب قومَ لوط، حتّى لا يُصيبهم الذي حلّ بهم. وإتمامًا لهذه الموعظة وجّه إليهم الخطاب مباشرًا في سورة الملك: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ

تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧].

قال البيضاوي: «﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني الملائكةَ الموكّلين على تدبير هذا العالم، أو الله تعالى على تأويل: مَنْ في السّماء أمرُهُ أو قضاؤه، أو على زعم العرب، فإنّهم زعموا أنّه تعالى في السّماء. . .أن يخسِفَ بكم الأرض فيُغَيِّبَكم فيها كما فعل بقارون، وهو بدل من بدل الاشتمال، فإذا هي تمور: تضطربُ، والمَوْرُ: التّردّدُ في المجيء والذّهاب. ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: أن يُمطِرَ عليكم حصباء؛ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾: كيف إنذاري إذا شاهدتم المُنذرَ به، ولكن لا ينفعُكم العلمُ حينئذ»[(١)].

٢٠ ـ مقابلةٌ بين خطاب الله للرّسول، وخطاب الرّسول لقومه:

في سورة الفرقان خطابٌ مباشرٌ للرّسول ﷺ من ربّه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وفي سورة الملك خطابٌ مباشرٌ للمشركين وتلقينٌ لمحمّد ﷺ كيف يتعامل معهم، وكيف يُخاطبهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٢٨ ـ ٣٠].

٢١ ـ حديث عن عباد الرّحمن في السّورتين:

في سورة الملك حديثٌ موجز عن الذين يخشون ربّهم بالغيب، وعن الجزاء الذي أعدّه الله تعالى لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥، ص ٢٣٠.

مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، وفي سورة الفرقان جاء تفصيلٌ لصفات الذين يخشون ربّهم وأعمالهم وأقوالهم في مجموعة الآيات التي تتحدّث عن عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦].

٢٢ ـ مقارنة بين نوعين من المشي:

في سورة الملك جاء حديثٌ عن الذي يمشي مُكِبًّا على وجهه على غير هدى، فهو يخبطُ في سيره وطريقه خبطَ عشواء، وتمّت مقارنةُ مشيته بمن يمشي سويًّا مرتفع الهامة، على نور وبصيرة على صراط مستقيم، وهذا الاستفهام من الواضح والمقرّر لدى جميع الأذهان، أنَّ هذين الماشيين لا يستويان في حكم كل الأعراف والأديان والأذواق: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

أمّا سورة الفرقان فقد جاء فيها ذِكرُ الصّنف الذي يمشي سويًا بتواضع ، وهم المُعبَّرُ عنهم بقوله : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

قال ابن عاشور في بيان وجوه الاستعارات التّمثيليّة في آية سورة الملك (٢٢) : «فالآية تشتملُ على ثلاث استعارات تمثيليّة؛ فقوله ﴿ يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ ﴾ تشبيهٌ لحال المشرك في تقسّم أمره بين الآلهة طلبًا للذي ينفعه منها ، الشّاكّ في انتفاعه بها ، بحال السّائر قاصدًا أرضًا معيّنة ليس لها طريقٌ جادّة ، فهو يتتبّع بُنيّات الطّريق الملتوية التي تُبلّغُ إلى مقصده ، فيبقى حائرًا متوسّمًا يتعرّفُ آثارَ أقدام النّاس وأخفاف الإبل ، فيعلم بها أنّ الطريق مسلوكة أو متروكة .

وفي ضمن هذه التّمثيليّة تمثيليّةٌ أخرى مَبنيّةٌ عليها بقوله : ﴿ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ ﴾ بتشبيه حال المتحيّر المتطلّب للآثار في الأرض بحال المُكبّ على وجهه في شدّة اقترابه من الأرض .

وقوله ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا ﴾ تشبيهٌ لحال الذي آمن بربّ واحد ، الواثق بنصر ربّه وتأييده ، وبأنّه مُصادِفٌ للحقّ ، بحال الماشي في طريق جادّة واضحة ، لا ينظرُ إلّا إلى اتّجاه وجهه ، فهو مُستوٍ في سيره .

وقد حصل في الآية إيجازُ حذف ، إذ استُغنِيَ عن وصف الطّريق بالالتواء في التّمثيل الأوّل ، لدلالة مقابلته بالاستقامة في التّمثيل الثاني» (١) .

وقال الإمام ابنُ كثير في تفسير الصّفة الأولى من صفات عباد الرّحمن : «﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ : أي : بسكينة ووقار من غير

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج٢٩ ، ص ٤٦ .

جَبْرية ولا استكبار ، كما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. فأمّا هؤلاء فإنّهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشَرٍ ولا بطَر. وليس المرادُ أنّهم يمشون كالمَرضى من التّصانُع تصنُّعا ورياءً؛ فقد كان سيّدُ ولَد آدم ﷺ إذا مشى كأنّما ينحَطُّ من صبب ، وكأنّما الأرضُ تُطوى له. وقد كرِهَ بعضُ السّلف المشيَ بتضعّفٍ وتصنّع ، حتّى رُوِيَ عن عمر أنّه رأى شابًا يمشي رُويدًا. فقال: ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين ، فعلاهُ بالدّرّة ، وأمره أن يمشيَ بقوّة. وإنّما المرادُ بالهَوْن هاهنا السّكينةُ والوقارُ ، كما قال رسول الله ﷺ: [1]((إذا أتيتم الصّلاةَ فلا تأتوها وأنتم تسعَوْنَ ، وأتوها وعليكم السّكينة ، فما أدركتم فصلّوا ، وما فاتكم فأتمّوا)) [2].

٢٣ ـ فواصل السّورتين:

تتّفِقُ السّورتان في إيقاعهما الصّوتي ، وفواصلهما التي تتّسِمُ بمقاطعها الطّويلة: الواو قبل الرّاء المفتوحة ، والياء قبل الراء المفتوحة في سورة الفرقان: (نذيرًا ، تقديرًا ، نشورًا. . .) ، والواو قبل الرّاء المضمومة والمجرورة ، والياء قبل الرّاء المضمومة والمجرورة كذلك في الملك: (قديرٌ ، الغفور ، من فطورٍ. . .). وهكذا جاءت الحركات الثلاث (الرّاء المفتوحة) علامةً مميّزة للإيقاع الصّوتي لسورة الفرقان ، وجاءت الرّاء المضمومة والمجرورة علامةً مميّزةً للإيقاع الصّوتي لفواصل سورة الملك ، وبذلك تتكامل السّورتان من حيثُ الإيقاعُ الصّوتي أيضًا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، رقم: ٦٣٥.

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٦ ، ص ١٢٢.

مِمّا سبق عرضُه من جوانب وأمثلة ، يتبيّنُ بجلاء ، لا يدعُ مجالًا لأثارةٍ من شكّ لكلّ ذي عقلٍ ولبّ أنّ سورتَي الفرقان والملك تنبعان من معينٍ واحد ، فهما جناحا طائر واحد ، ووجها عملةٍ واحدة ، متكاملتان معنويًا ، ولفظيًا ، وصوتيًا ، وهذا ما يلقي الضّوء على سرٍّ من أسرار افتتاحهما بمطلعين متشابهين ، والله تعالى أعلم بأسرار قرآنه .

جدول المقارنة بين الفرقان والملك

الفرقان	الملك
﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١]	﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : ١]
١ ـ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١]	١ ـ ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك : ٨]
٢ ـ ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٧] .	٢ ـ ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٩] .
٣ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٦] .	٣ ـ ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٧] .
٤ ـ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥١] .	٤ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الملك : ٢٦] .
﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢]	﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : ٣] .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].	﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [الملك: ٣]، ومن أخصّ خصائصه أنَّه خلق الموتَ والحياة لابتلاء الثَّقلين، أيُّهم أحسنُ عملا؟ ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].
﴿ وَلَا نُشُورًا ﴾	﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].
﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١].	﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥]. ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].
﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].	﴿ فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٨].
﴿ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾ [الفرقان: ٦٠].	﴿ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: ٢١]

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤].	﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وجاء أيضاً: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].
﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].	﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].
١ ـ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٦]. ٢ ـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩]. ٣ ـ ٤ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩﴾ [الفرقان: ٦٠]. ٥ ـ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].	﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]. ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠] ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الملك: ٢٩].
﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].	﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١]

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان: ٦١].	﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].
﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا (١٢) وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣]. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].	﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ [الملك: ٧ ـ ٨].
﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٦]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٧٠].	﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].
﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].	﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].
﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٤].	﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]
﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠].	﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].
﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣١].	﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الملك: ٢٠].
﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا (٣٥) فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا	﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٥ ـ ٤٠].	
﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].	﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧].
﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣].	﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴾ [الملك: ٢٨ ـ ٣٠].

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

[الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[الملك: ١٢]

(نذيرًا ، تقديرًا ، نشورًا. . .) ،	(قديرٌ ، الغفور ، من فطورٍ. . .).



المبحث السادس

سُور (يا أيُّها النّبيّ)

الأحزاب ، والطلاق ، والتّحريم

تشترِك سورةُ الأحزاب والطّلاق والتّحريم في المطلع ، الذي افتتحه الباري جلّ ثناؤه بمناداة النّبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ، وهو مطلعٌ مهيبٌ يشي بعظمة التّوقير ، ورفعة المكانة التي يتبوّأُها محمد ﷺ عند ربّه؛ إذْ دأب البيانُ القرآنيُّ على مناداة جميع الأنبياء والمرسلين بأسمائهم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ [هود: ٤٨] ، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١ ـ ١٢] ، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] ، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧] ، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ [هود: ٧٦] ، إلّا محمّدًا ﷺ فإنَّ القرآن يناديه بلقبَي الرِّسالة والنّبوة: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ، و﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] ، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقد تكرّرَ أسلوبُ مناداة الرّسول بلقب الرِّسالة في القرآن الكريم مرّتين ، وتكرّرَت مناداتُه ﷺ بلقب النّبوّة: ١٣ مرة.

من حيثُ ترتيبُ النّزول ، فإنَّ سورة الأحزاب هي السّورة التسعون

(٩٠) في عداد التنزيل ، ثمَّ ولِيَتها سورة الطلاق (٩٩) نزولًا ، ثمَّ التّحريم (١٠٧) نزولًا ، والذي يعنينا في هذه المقاربة التّحليليّة في السّور المتشابهة المطالع أن نُجلّيَ الرّوابطَ المضمونيّة واللفظيّة التي تجمعُ بين السُّور الثّلاث ، فما اشتركت ثلاثتُها في المطلع المُوَحّد إلّا وثمّةَ حِكمٌ وعواملُ مُشتركة تجمعها وتجعلها تصدرُ عن مشكاةٍ واحدة ، وتصبغها بصبغةٍ خاصّة تجعلُ القارئَ يتعرّفُ عليها أوّلَ ما يلحظُها .

١ - تشترك السور الثلاث في مناقشة محور الأسرة:

من حيثُ المضامين والمواضيع المطروقة؛ فإنَّ السُّوَرَ الثلاث تتقاطع في مناقشة موضوعٍ أُسريٍّ هام؛ حيثُ تناقشُ سورة الأحزاب أحكامًا تتعلّقُ بأعظم أسرةٍ في الوجود ، وهي أسرة نبيّنا محمد ﷺ ، وتناقش موضوعِ غزوة الأحزاب ، التي كانت أحداثها تتزامنُ مع الأحداث التي تُحيطُ بالأسرة النّبويّة الكريمة .

أمّا سورة الطلاق ، فتناقش موضوع الطلاق والعِدّة والنَّفقة ، وهي شؤونٌ تهمُّ الأسرة المسلمة بشكل عام . أمّا سورة التحريم فتناقشُ موضوع تحريم الرَّسول على نفسه أكل العسل أو تحريم معاشرته إحدى أزواجه كما سوف نرى بالتفصيل ، وهو شأنٌ أسريٌّ نبويٌّ أيضًا .

تجدُرُ الإشارة إلى أنّ مناقشة قضايا الأسرة النّبويّة في سورة الأحزاب هو بمثابة إظهار أنموذج القدوة والأسوة في بيت النّبوّة للمسلمين أجمعين؛ فليست الأحكام التّشريعيّة موجّهة فقط للمسلمين ، وإنّما هي موجّهة أيضا لنبيّ المسلمين ، وهو قدوة الجميع في الاهتداء بتعاليم الإسلام التي أوحاها الله تعالى إليه ، وفي

هذا المصَبّ يرد قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٢ ـ مناداة الرّسول بلقب النّبوّة:

جاءت مناداة الرّسول ﷺ بلقب النّبوّة في السّور الثلاث ٨ مرّات، علمًا أنَّ عدد مرّات مناداته في القرآن كلّه بهذا اللقب هو ١٣ مرّة، أي أنَّ أكثر من نصف عددها موجود في السُّور الثلاث، وهذا وحده جديرٌ بأن يخصّها الله تعالى بافتتاحية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ... ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ... ﴾ [الطلاق: ١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم: ١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التحريم: ٩].

٣ ـ أنواع المُطلّقات وعِددهنّ:

جاء في سورة الأحزاب بيانٌ واضح بشأن المطلّقات غير المدخول

بهن؛ حيثُ قرَّر الشّارع الحكيم بأنّه ليس للأزواج عليهنّ من عِدّة يعتدّونها ، بل عليهم تمتيعُهنَّ وتسريحُهنَّ بالمعروف: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ثُم جاء مطلعُ سورة الطّلاق يُبيِّنُ حُكْمَ عِدَّة المطلَّقات اللَّواتي تمَّ الدُّخولُ بهنّ فقال جلّ شأنه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١]؛ فالحكمُ الذي أثبتته الآيةُ الأولى من سورة الطّلاق مُكمِّلٌ للحكم الذي نطقت به آيةُ الأحزاب (٤٩).

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تعرّضت سورة الطلاق إلى تحديد عِدّة التي يئست من الحيض ، وعدّة التي لا تحيض لكِبر سنّها ، وعدّة ذوات الحمل: ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]. وهذا ترابُطٌ واضحٌ وقويٌّ بين السّورتين من ناحية الموضوع ، حيث أتمّت سورة الطلاق الحديث عن أنواع العدد التي شرعت سورة الأحزاب في الحديث عنها ، كما يتجلّى من ناحية الثّوب اللّفظيّ للسورتين ترابط واضح أيضًا من حيث الألفاظ المستعملة.

٤ ـ الحديث عن الأزواج التي أحلّ الله لنبيّه الزواج بهنّ:

قرّرت آيةُ الأحزاب (٥٠) بأنَّ الله تبارك وتعالى أحلّ لنبيّه أزواجه اللاتي كان قد تزوّج بهنّ وآتاهنَّ أُجورَهنَّ ، وعدَّد له اللَّواتي يجوز له

الزّواج بهنّ أيضا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ثُمّ جاءت آية سورة التحريم (١) تُعاتب الرّسول ﷺ على عزمه تحريم بعض ما أحلّ الله له ابتغاء مرضاة أزواجه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم: ١].

وقد ذكر المفسّرون أقوالًا في الشّيء الذي حرّمه رسولُ الله على نفسه:

القول الأول: هو شربُهُ من العسل الذي كانت تسقيه إيّاه زينبُ بنتُ جحش، وكانت عائشة وحفصةُ تغاران منها، فاتفقتا أن تُزحزِحاه عن الذّهاب إليها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ يشربُ عسلًا عند زينب بنت جحش، ويمكُثُ عندها، فتواطأْتُ أنا وحفصةُ على أيّتنا دخلَ عليها فلتَقُلْ له: أكلتَ مغافير؟ - والمغافير: صمغٌ حُلوٌ له رائحةٌ كريهةٌ - إنّي أجدُ منك ريحَ مغافير.

فدخلَ على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: بل شرِبتُ عسلًا عند زينب بنت جحش، ولن أعودَ إليه، وقد حلفتُ، فلا تُخبري بذلك أحدًا، فنزلت هذه الآياتُ»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

القول الثّاني: هو وطؤه أَمَته، أو أمّ إبراهيم مارية في بيت بعض نسائه:

الدليل الأول: عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ كانت له أمةٌ يَطؤُها، فلم تزلْ به عائشةُ وحفصةُ حتّى جعلها على نفسه حرامًا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...﴾ [التحريم: ١] (١).

الدّليل الثاني: عن زيد بن أسلم، أنَّ رسول الله ﷺ أصابَ أمَّ إبراهيم مارية في بيت بعض نسائه ـ وفي رواية: في بيت حفصة ـ فقالت: يا رسول الله، في بيتي وعلى فراشي؟ فجعلها أي: مارية ـ عليه حرامًا، وحلف بهذا... فأنزل الله هذه الآيات(٢).

ملحوظة: أمّا من حيثُ قوّة الدّليل وصحّته، فالقول الأوّلُ المنبني على حديث البخاري ومسلم هو الأصحّ من حيثُ السّند والمتن. أمّا من حيثُ التّوافق بين مضامين سورتي الأحزاب والتّحريم، فالقول الثّاني المتعلّق بتحريمه ما أحلّ الله له من الزّواج أو الاستمتاع بأَمَته هو الأصوبُ، ويعضُدُ هذا القولَ دليلان لفظيان: الفعل (أحللنا لك) في الأحزاب، وجملة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾.

وجملةُ القول: إنَّ الموضوع الذي ناقشته سورة التحريم هو تكملةٌ للموضوع الذي شرعت فيه سورة الأحزاب المتعلّق بتنظيمات وأحكام تخصُّ البيت النبوي، وكذلك سورة الطّلاق تكميلٌ للأحكام التي شرعت فيها سورة الأحزاب فيما يخص المطلّقات وأنواعهنّ، وأنواع عِدّتهنّ إلى غير ذلك من المواضيع المشتركة بينهما، وترجيحنا بأنّ

---

(١) رواه النّسائي، والحاكم وصحّحه.

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٣، ص ٨٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٢١، ص ٦٩.

الحديث في مطلع سورة التّحريم ينصرف إلى حادثة تحريم الرّسول ﷺ إحدى زوجاته لا يُؤدّي إلى نفي حادثة أكل العسل التي أثبتها البخاري ومسلم ، فما أكثر الآيات التي تنزل لمعالجة أكثر من سبب أو أكثر من حادثة؛ فالعبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب. ولكن الذي يجعلنا نُرجّحُ رواية تحريمه على نفسه العودة إلى أمّ ولده إبراهيم؛ هو التّرابط الوثيق بين هاتين السّورتين المتشابهتين في مطلعيهما؛ حيث بيّنت له أُولاهما ما يحلّ له من النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ . . . ﴾ ، وعاتبته الثّانية على تحريمه ما أحلّ الله له في المجال نفسه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ. . . ﴾ . هذا والله أعلم بأسرار التّنزيل.

٥ ـ الأمر بتقوى الله تعالى:

بدأت سورة الأحزاب بأمر النّبي وهو القدوة والأسوة بتقوى الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب: ١] ، وحين يُخاطَبُ النبيُّ ، والأمرُ يكونُ عامًّا مِمّا يتعلّقُ بالأمّة أيضًا ، يكونُ ذلك من قبيل خطاب الأمّة في شخص نبيّها ، وهذا يدلُّ على مدى العناية بمضمون الخطاب.

وهو ﷺ خيرُ الممتثلين لأوامر الله تعالى ، ولمّا نصح زيد بن حارثة للحيلولة دون تطليقه لزينب بنت جحش قال له: اتّق الله: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ونساء النبيّ هنَّ من أفضل نساء العالمين شريطة أن يتحلّين بلباس التّقوى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

أمّا المؤمنون ، فقد جاءهم الحثُّ على التّقوى والتّذكيرُ بها في

نهاية سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وبالمثل، فقد ورد الأمرُ بالتّقوى والحثُّ عليها في سورة الطلاق بشكلٍ مُكثّف: فالمؤمنون مُطالَبون بأن يتّقوا الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ [الطلاق: ١]، والتّقوى مخرجٌ من كلّ ضيق: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢]، والتّقوى سبيل تيسير جميع الأمور: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، وهي وسيلةُ تكفير السّيّئات: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥]، وكلّ أولي العقول السّليمة مُطالبون بأن يتّقوا الله ويرعَوْا حدوده: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الطلاق: ١٠].

ومن ذلك أيضا ورود الأمر للمؤمنين في سورة التحريم بأن يقوا أنفسهم وأهليهم من الوقوع في النار بارتكاب ما يوجب دخولها، وهذا المعنى من معاني التّقوى أيضًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦].

٦ ـ النّهي عن الإتيان بفاحشة مبيّنة:

ورد في سورتَي الأحزاب والطّلاق النّهيُ عن إتيان الفاحشة المُبيّنة:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. وبالمثل جاء التّوجيه القرآني في سورة الطلاق يدعو المسلمين إلى عدم اللّجوء إلى الطلاق إلّا أن تأتي المرأة بفاحشة مبيّنة: ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [الطلاق: ١].

وأيضا جاء ذلك في سورة النّساء إذ قال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقد تعدّدت أقوالُ الفقهاء والمفسّرين في تحديد الفاحشة المُبيّنة، فمنهم من قال[1]:

أ: الفاحشة المُبيّنة: الزّنى، وهو قول ابن عبّاس، وابن عُمرَ، والحسن، والشّعبي، ومجاهد.

ب: الفاحشةُ المُبيّنةُ: البذاءُ على أحمائها، فيحِلُّ لهم إخراجُها. وقد رُوِيَ هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنه والشّافعي رحمه الله تعالى..

ج: الفاحشةُ: كل معصيّة، كالزّنى، والسّرقة، والبذاء، على الأهل، وهو اختيارُ الطبري.

وهذا اشتراكٌ معنويّ ولفظي بين السّور الثلاث لا تشتركُ معها غيرُها من السّور فيه.

٧ ـ الإيمان باليوم الآخر:

عملت سورتا الأحزاب والطلاق على تحريك جذوة الإيمان باليوم الآخر، ورجاء لقاء الله في نفوس المؤمنين. قال جلّ شأنه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تبارك اسمُه: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]؛ فمن كان يرجو الله واليوم الآخر، فإنّ ذلك الرّجاء وذلك الإيمان يدعوانه إلى الاقتداء بالرّسول ﷺ، ومن

---

(١) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢١، ص ٣٧ ـ ٣٨.

كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإنّه يجدُ من نفسه حافزًا داخليًّا يدعوه إلى تطبيق الأحكام التي تُنظّم الأسر والمجتمعات مِمّا جاء في هذه السّور وغيرها.

٨ ـ الذِّكر الذي يُخرج الذين آمنوا من الظّلمات إلى النور:

جاء في القرآن الكريم والسّنّة الصّحيحة نصوصٌ كثيرةٌ تهيب بالمؤمنين أن يذكروا الله تعالى كثيرًا، ويُسبّحوه، ويحمدوه، ويُوقِّروه، ويُعظِّموه، وذلك عاملٌ مساعدٌ لاستحضار المؤمن عظمة الله تعالى في نفسه في كلّ آنٍ وحين؛ وقد حفلت سورتا الأحزاب والطّلاق بجملة من النصوص الدّاعية إلى الذِّكر والمُحفِّزة عليه منها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ [الطلاق: ١٠ ـ ١١].

٩ ـ الأمر بالتّوكلّ على الله:

نهت الآيةُ (٤٨) من الأحزاب الرّسول ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين، وحثّته على التّوكّل على الحيّ القيّوم، ثمّ جاءت آيةُ الطلاق (٣) تبيّنُ أنّ الذي يتوكّل على الله فهو حسبُهُ، وهو بالغُ أمره:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

١٠ ـ التّقوى والتّوبة النّصوح سبيلان لتكفير السّيّئات:

سنَّ الشّارعُ الحكيمُ جملةً من الأعمال الصّالحة، التي تُساعدُ المؤمن على تكفير سيّئاته، وقد جاء منها في سورتي الطّلاق تقوى الله، وفي التّحريم التّوبةُ النّصوح:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التحريم: ٨].

١١ ـ الوعد بالجنّات التي تجري من تحتها الأنهار:

ذكرت آيةُ الطّلاق (١١) أنَّ الذي يُؤمن بالله تعالى، ويشفع إيمانه بالعمل الصّالح، يكون جزاؤه عند الله تعالى جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

وذكرت آيةُ التّحريم أنَّ التّوبةَ النّصوحَ من ثمارها أنَّ الله تعالى يُكفِّرُ بها السّيّئات عن المؤمن، ويُدخله بها جنّات تجري من تحتها الأنهار: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

١٢ ـ قدرةُ الله المطلقة:

في القرآن الكريم نصوصٌ كثيرةٌ تُثبِتُ لله تعالى القُدرةَ المُطلقةَ؛ فهو على كل شيءٍ قديرٌ، جاء منها في الأحزاب والطّلاق:

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢].

١٣ ـ علم الله المحيط بكل شيء:

نظيرُ القدرة المطلقة العلمُ المُطلَق الذي نطقت به آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم ، والملاحَظُ أنَّ كثيرًا ما تقترنُ الآياتُ المُتعلِّقةُ بالأحكام بالإشارة إلى علم الله الشّامل المحيط بكلّ شيء ، أو تكون مُذَيّلةً بذلك ، وقد جاء منها في الأحزاب والطّلاق الآياتُ الثلاث الآتية:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

﴿ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٤].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢].

١٤ ـ تأكيد مغفرته ورحمته بعباده:

حفلت آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم بالاسمين الجليلين ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، وخصوصًا بعد ذكر الأحكام وما يتعلّقُ بالتّجاوزات والأخطاء التي يقعُ فيها المسلمُ بحكم القصور البشريّ ، والضّعف الإنساني ، وقد جاء ذكرُ الاسمين الكريمين في سياق معاتبة النّبيّ ﷺ حين حرّم على نفسه ما أحلَّ الله له ابتغاءَ مرضاة أزواجه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم: ١].

وورد ذكرُ الاسمين الكريمين المُحفّزين على التّوبة لنيل مغفرة الله

ورضوانه في سورة الأحزاب في سياق تعداد بعض الأحكام الشّرعيّة والأخطاء البشريّة:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥].

﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

١٥ ـ الله هو العليم الحكيم:

الله هو العليم العلّام الذي لا يعزُبُ عن علمه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وهو الحكيمُ الذي يُشرّعُ لعباده وفق حكمته الرّبّانية الشّاملة، وعلى المؤمن أن يكون على يقينٍ بأنَّ كلَّ ما جاء في الشّرع من أوامرَ ونواهٍ هي صادرةٌ عن علم الله المطلق، وعن حكمته البالغة، والشّريعةُ كلُّها مصلحةٌ وخيرٌ ونفعٌ وعدلٌ ورحمةٌ:

﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [التحريم: ٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب: ١].

وهو المتّصِفُ جلّ ثناؤه بالعلم والخبرة ، والملاحَظُ أنَّ الأسماء الحسنى التي جاءت في التّحريم في حالة الرّفع ، جاءت في الأحزاب في حالة النّصب ، وذلك شبيهٌ بالأسلوب المُتّبَع في سورتي الحجّ والنّساء ، ومن الرّوابط الدّلالية ، واللّفظية الدّقيقة ، فانتبه لأسرار الذّكر وعلُوِّ بيانه:

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم: ٣].

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢].

١٦ ـ التّرغيب في التوبة:

أوقعت الغيرةُ البشريّةُ عائشةَ وحفصةَ رضي الله عنهما في التّعامل مع نبيّ الأمّة بما لا يتوافَقُ مع شأنه العظيم ، ومكانتهما الدّينيّة والاجتماعيّة منه ، وكلّفتهما ثمنًا غاليًا خلّدته آياتُ المعاتبة الرّبّانيّة لهما في التّحريم ، وجاءت الآيةُ (٤) تحثُّهما على التّوبة؛ فلا شيءَ يعلو فوق التّوبة أو يتجاوزُ أسوارَها ، فكلُّ ما يقعُ من المؤمن يغفرُه الله تعالى إذا صحّت النّوايا ، وصحّ العزمُ على التّوبة النّصوح:

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤].

وقد جاء تَعدادُ صفة (تائبات) في معرض حديث القرآن عن صفات المؤمنات اللاتي يتعالين عن طين الأرض ، ويتطلّعن إلى سماء الفضل والنّبل ، مُحلّقاتٍ إلى غمام صفات الإسلام والإيمان والقنوت والتّوبة والعبادة والسّياحة في سبيل الله ، ويكُنَّ فوق هذا وذاك ثيّباتٍ أو أبكارًا.

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم: ٥].

وفي ذكر صفات الأزواج اللاتي من السّهل والميسور أن يُيسِّرَهنَّ الله الوهّابُ لرسوله ﷺ، تحفيزٌ لأزواج النبيّ، وشحذٌ لهِمَمِهنَّ العوالي للاستمساك بكل فضلٍ، والتّحلّي بأعلى الخصال، واجتناب الجُنح واللّمم مهما صَغُرت ودقّت لأنَّ مقامهنَّ وقربَهنَّ من أفضل الخلق يُرشِّحُهنَّ لأسمى مراتب الفضلِ، ومنازل التّوبة والتَّجرّد: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وبمثل ما نصح به القرآنُ عائشةَ وحفصةَ زوجَي النّبي الكريم رضوان الله عليهما، جاء أمرُ المؤمنين في سورة التّحريم بالتّوبة النّصوح التي تُكفِّرُ بها السّيّئاتُ، وتُنالُ بها أعالي الجنّات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

١٧ ـ تعدادُ صفات المؤمنين والمؤمنات:

عدّدت سورة الأحزاب صفات المؤمنين والمؤمنات، الذين يرغب الإسلام في إخراجهم للبشرية، ويرغبُ أن يسعد بهم المجتمع الإسلامي الأكبر، وهي صفات الإسلام، والإيمان، والقُنوت، والصِّدق، والصّبر، والخشوع، والتّصدُّق، والصّوم، وحفظ الفروج، وذِكر الله كثيرًا:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ

وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وبالمقابل عدّدت سورة التّحريم صفات الأزواج اللاتي يكِلُ إليهنّ تربية الأطفال، وصنع الأجيال، والإسهام في إسعاد البشرية، ابتداء من أزواج النّبيّ ﷺ إلى أزواج جميع أفراد المجتمع المسلم، الذي يقوم على الخُلق والفضيلة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

١٨ ـ الدّعوة إلى جهاد الكفّار والمنافقين:

جاء في سورة التّحريم دعوة رسول الله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين، وأن يُغلِظَ عليهم في القول والفعل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

أمّا سورة الأحزاب فعدّدت مواقفَ للمنافقين تجعلُهم أحرياء بأن يُقاتلهم النبيُّ والمسلمون معه:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وهدّدتهم بالانتهاء عن إتيان أفعالهم الشّنيعة الماكرة، وفي حال عدم الالتزام فإنّهم يُقتّلون تقتيلًا، ويلقون سوءَ المصير: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾

سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

١٩ ـ مناداة الذين آمنوا:

نادى الله تعالى المؤمنين بصفتهم الإيمانية في سورة التحريم مرّتين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨].

وناداهم في سورة الأحزاب بصفتهم الإيمانية ٧ مرّات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٢٠ ـ عدم تكليف النّفس ما لا يُطاقُ في الإنفاق على الأهل:

وجّهت الآية السابعة من سورة الطلاق إلى أن ينفق المسلم مِمّا يملك، وممّا آتاه الله تعالى، ولا يكلّف نفسه فوق طاقتها؛ فليس من الإسلام التّقتيرُ على الأهل في الإنفاق، وليس منه التّبذير والإسراف، بل المسلم مطلوبٌ منه أن يلتزم الاعتدال والتّوسّط في الإنفاق، ولم يكلّفه ربّه بما لا يُطيق في هذا المجال؛ من هنا جاء قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

والموضوع ذاته جاءت مناقشته في سورة الأحزاب حين ضاقت أحوالُ أسرة النّبُوّة من النّاحية المعيشيّة والمادّيّة؛ فلم يكن رسول الله ﷺ كما هو جليٌّ في سيرته صاحب مال، ولم يكن يُبقِ في يده شيئًا من المال، وإنّما كان شأنه الإنفاق والإغداق على المسلمين، كما قال ذلك الصحابي الذي رأى يده السّحّاء تنفق في أحد المواقف، فقال في وصفه: يُنفقُ إنفاق من لا يخاف الفقر، وقد قال لبلال رضي الله عنه: «أنفق بلال، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالًا»[1].

قلت: كان بيت النّبُوّة يعيش في شظف العيش في كثير من فتراته، وهذا تعليم للإنسانيّة جمعاء بأنّ نبيّ الرّحمة لم يكن داعيًا إلى جمع المال، ولم تكن تهفو نفسه إلى شيء منه، وإنّما كان يفرّقه بين أصحابه حين يحصل على شيء منه. ولمّا اشتدّ الحال بأزواجه رضي الله عنهنّ، جئن إليه يُطالبنه الزيادة في الإنفاق، فاشتدّ ذلك على نفسه الكريمة، وخيّم الغضب والحزن على محيّاه، وهو الذي كانت

---

(١) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن مسعود.

البشاشة لا تفارق وجهه الكريم ، إلى أن أنزل الله آية التخيير تخاطب أزواج النّبيّ ﷺ بأن يرضين بعيشة الكفاف والعفاف تحت مظلّة بيت النّبُوّة ، ومن كان همّها الدّنيا والازدياد من ملذّاتها ومتاعها فلتذهب إلى سبيلها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ـ ٢٩] . فاختارت أزواجه كلّهنّ جانب الله ورسوله والدّار الآخرة .

فانظر ، بارك الله فيك ، كيف جاء الحثّ بالإنفاق ممّا في سعة المؤمن في سورة الطلاق للمسلمين أجمعين ، وجاء الموضوع ذاته يعالج البيت النّبويّ الطاهر في سورة الأحزاب ، وقُلْ : ما أعظم إحكام هذا الذّكر !

روى البخاري ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذنُ رسولَ الله ﷺ ، فوجد النّاس جلوسًا ببابه لم يُؤذَن لأحد منهم ، قال : فأذنَ لأبي بكر فدخل ، ثمّ جاء عمرُ فاستأذن فأذن له ، فوجد النّبيّ ﷺ جالسًا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا . قال : فقال : والله لأقولنَّ شيئا أُضحِكُ رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة سألتني النّفقة ، فقمتُ إليها فوجأتُ عُنُقَها ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : «هُنَّ حولي كما ترى يسألنني النّفقة» ؛ فقام أبو بكر إلى عائشة يجأُ عُنُقَها ، وقام عمرُ إلى حفصة يجأُ عُنُقَها ، كلاهما يقول : تسألن رسولَ الله ما ليس عنده! فقلن : والله لا نسألُ رسول الله ﷺ شيئًا أبدًا ليس عنده . ثمّ اعتزلهنَّ شهرًا أو تسعًا وعشرين . ثمّ نزلت عليه هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ . . . ﴾ حتّى بلغ ﴿ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . قال : فبدأ بعائشة فقال : «يا عائشة ، إنّي أريد أن أعرض عليك أمرًا أحبُّ ألّا تعجلي فيه حتّى

تستشيري أبويك». قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيك يا رسول الله أستشيرُ أبويّ! بل أختارُ اللهَ ورسولَه والدّارَ الآخرة، وأسألُك ألّا تُخبِرَ امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: لا تسألُني امرأةٌ منهنّ إلّا أخبرتُها. إنّ الله لم يبعثني مُعنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا، ولكن بعثني مُعلّمًا مُيسّرًا»[1].

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري ومسلم.



المَبْحَثُ السَّابِعُ

سورتا القيامة والبلد

سُمّيت سورة القيامة بهذا الاسم لوقوع القسم بيوم القيامة في مُستهلّها ، وسُمّيت في بعض كتب التّفسير: سورة لا أُقسِمُ ، وهي مكّيّةٌ باتّفاق علماء التّنزيل ، وهي الحاديةُ والثّلاثون نُزولًا بعد سورة القارعة ، وقبل سورة الهُمَزة.

يغلبُ على السّورة من حيثُ المضمون الحديثُ عن يوم القيامة ، وأشراطه ، وإثبات الجزاء على الأعمال ، وذكْرُ اختلاف أحوال النّاس يوم القيامة بين سعداء وجوههم ناضرة ، تستمتع بالنّظر إلى ربّها الكريم ، وبين أشقياء وجوههم باسرةٌ كالحةٌ ، عن رؤية ربّهم محجوبون.

كما جاء فيها تذكيرٌ بالموت ، وبيانٌ لمرحلة الاحتضار التي يمرُّ بها البشرُ أجمعون ، وزجرٌ عن إيثار متاع الدّنيا الزّائل على نعيم الآخرة الدّائم.

أمّا سورة البلد؛ فهي مكيّة في القول الرّاجح ، وعُدّت الخامسة والثلاثين في تعداد نزول السّور ، بعد سورة «ق» ، وقبل سورة الطّارق.

جاء في مطلعها القسم بمكّة المكرّمة ، وبيانٌ لِمُقام النبيّ المُبارَك

محمد ﷺ بها ، وتنويهٌ بأسلافه من الرّسل والأنبياء ، الذين أقاموا بها مثل إبراهيم خليل الرّحمن ، وابنه إسماعيل عليهما السّلام ، وذِكرٌ للإنسان الذي خلقه الله تعالى ليذوق شدّةَ الابتلاء في هذه الدّنيا.

ثمّ جاء فيها تذكيرٌ للإنسان بنعمٍ كثيرةٍ أنعم الوهّابُ الكريمُ عليه بها ، مثل نعمة العقل المُميِّز ، ونعمة الحواس ، ونعمة الأرزاق المتنوّعة. وعِوض أن يقوم الإنسانُ بالشّكر والحمد على ما أسدى إليه ربُّه من النِّعم ، فإنَّه يُبادِرُ إلى الجحود والكُفران ، مُتكبِّرًا ومُتعاليًا ، وجاحِدًا اليوم الذي ترجِعُ فيه الخلائقُ إلى الله ، ومن ثَمّ جاء وصف حال الفريقين في ذلك اليوم العظيم: فريق أصحاب الميمنة ، وفريق أصحاب المشأمة.

وليس من مقصود هذه الأسطر أن تُحلِّلَ مضمون السّورتين أو الوقوف على ما قاله علماءُ التّفسير في شرح آياتهما؛ فأسفارُ التّفسير قديمُها وحديثُها حافلةٌ بدلالات الألفاظ ، ومعاني الآيات ، وما يُستنبَطُ منها من أحكام. وإنّما المُرادُ في هذا المقام بيانُ الرّوابط الموضوعيّة التي تجمع بين سورتي القيامة والبلد بِحكم استهلال كلٍّ منهما بصيغة القسم ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾؛ فالله جلّ ثناؤه ، وعظمت حكمته لا يبدأُ سورتين قرآنيتين أو أكثر بالبداية اللفظية نفسها إلّا إذا كان ثمّة ما يربِطُ بين السّورتين ويُوحِّدُ بينهما في المضمون العام ، ويجمع بينهما في كثير من الملامح والمعالم.

ويمكن إيجازُ ما يجمع بين سورتي القيامة والبلد فيما يأتي:

١ - الاشتراكُ في صيغة القسم بعبارة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ في بداية السّورتين:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ - ٢].

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١].

وفعلُ القسم المنفي ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ الأرجح عند جميع اللّغويين أنّه يُفيدُ توكيد القسم. قال الزمخشري: «إدخالُ (لا) النّافية على القسم مُستفيضٌ في كلامهم وأشعارهم.

قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري لا يدّعي القومُ أنّي أَفِرّ

وقال غوثةُ بن سلمى:

ألا نادت أمامةُ باحتمال لتحزنني فلا بك ما أُبالي

وفائدتُها توكيدُ القسم»[1].

ورجّح الرّازي أنّها تُفيد النّفي، وهي في هذا السّياق لنفي القسم؛ فالله تعالى يقول: لا أُقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس، ولكنّي أسألُك غيرَ مُقسِمٍ، أتحسبُ أنّا لا نجمع عظامك إذا تفرّقت بالموت، فإن كنت تحسبُ ذلك؛ فاعلم أنّا قادرون على أن نفعل ذلك.

ثم قال: «كأنّه تعالى يقولُ: لا أُقسمُ بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب؛ فإنَّ إثباتَه أظهرُ وأجلى وأقوى وأحرى»[2].

وورود صيغة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ ليس أسلوبًا خاصًّا بالسّورتين فقط، وإنّما ورد في مواضعَ أخرى من الذِّكر، ويجمع بينها على تعدُّدها أنَّها جاءت في سياق القسم على حكم أو ظرف من ظروف الإنسان، وفي

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٦٥٨.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣٠، ص ٧٢٠.

سياق القسم على عظمة القرآن الكريم.

القسم بشأن الإنسان:

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [المعارج: ٤١].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٦ ـ ١٩].

القسم بشأن القرآن:

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٩].

٢ ـ الاشتراكُ في الحديث عن الإنسان:

تحدّثت السّورتان عن الإنسان من حيثُ كونُه إنسانًا مُفكّرًا عاقلًا، يسأل ويُجيبُ، ويتأمّل في شأن ذاته ووجوده في هذا الكون، من حيثُ حبُّه لهذه الدّنيا، واغترارُه بما فيها من ملذّات ومُشتهيات، ومن حيثُ تنكُّرُه للنّعم التي أنعم عليه بها مولاه، ومن حيثُ تكبُّرُه في هذه الدّنيا مُعتزًّا بماله وملكه، ومن حيثُ عدمُ خشيته لربّه، وحسبانه بأنَّ ربّه لا يراه، وقد تكرَّر لفظ (الإنسان) في سورة القيامة ٦ مرّات، وجاء ذكره بالاسم الظّاهر في سورة البلد مرّةً واحدة،

وجاء ذكرُه بضمير الكناية مرّات عديدة في السّورتين:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣].

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥].

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ١٠].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

٣ ـ التّحدُّث عن حُسبان الإنسان وظنّه:

هذا الإنسانُ الذي خلقه الله تعالى ليحمل أمانةَ الخلافة في الأرض، وزوّده بالوسائل التي تُمكِّنُه من القيام بأعبائها، وعبادة الله في الأرض، سُرعان ما تستهويه الدُّنيا بما فيها من ملذّات ومُغريات، ويستجيبُ لها واقعًا في حمأة المعاصي الآسنة المحفوفة بالمُشتهيات الجاذبة؛ فهذا الإنسان ـ تحت وطأة ما يُحيط به، وتحت وطأة ما يتقلّبُ فيه من ذنوب وخطايا ـ تختلُّ موازينُ الحكم في عقله، ويُصبح مُحتكِمًا للهوى، مُفضِّلًا الظّنون على الحقائق، ومُؤثِرًا الحُسبانَ على الجزم؛ من هنا جاء في السّورتين اللّتين خصّصهما الله تقدّست أسماؤه للحديث عن أحوال الإنسان حديثٌ عن حُسبان هذا الإنسان، وإبطالٌ لظنونه وأوهامه؛ فهو ضحيّةُ ظنون غير صحيحة، وأوهام باطلة، لا بدَّ أن يستفيق من سباته، ويعود من غيابات انحرافاته الفكريّة، ويعود ليَحتكِمَ إلى الشّرع القويم، مُستعملًا ميزان العقل الصّحيح في جميع القضايا التي تواجهه في حياته: قضيّة

الخلق ، وقضية الحياة التي يقضيها في هذه الأرض ، وقضيّة الموت ، والرّجوع إلى الله تعالى ، والوقوف بين يديه للحساب والجزاء :

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة : ٤].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة : ٣٦].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد : ٥ ـ ٦].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد : ٧].

والذي يجعلُنا نحكم بتجاذب موضوعي السّورتين ، والقطع بوحدتهما ؛ ليس موضوع الإنسان المُتحدَّث عنه فقط ، وإنّما الصّيغة المُستعملة ﴿أَيَحْسَبُ﴾؛ فهذه الصّيغةُ في حالة الإفراد لم تأت في القرآن الكريم كلّه إلّا في هاتين السّورتين ، وهذا يدلُّ على أنّهما خرجتا من مشكاةٍ بيانية واحدة ، بل هما مُتكاملتان ، تُكمِّلُ إحداهما الأُخرى؛ فسورةُ القيامة تطرح على عقل الإنسان ، كلّ إنسان ، هذا التّساؤل الذي يُوقظه بشأن يوم البعث ، حيثُ يجمع الله عظام كل إنسان بعد أن أصبحت رفاتًا ورميمًا : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة : ٤].

وهذا الإنسان ، ليس متروكًا في هذه الدُّنيا سُدًى ، يفعل ما يشاء ، ويُعربِدُ فيها كما يشاء ، ولا يُحاسَبُ على ما يصدرُ منه ، بل هو تحت قبضة الله تعالى ورقابته ، وتحت علمه وبصره : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة : ٣٦].

فهذا الإنسان الذي تحدّثت عنه سورة القيامة ، وفضحت كثيرًا من خبايا نفسه ، وفضحت كثيرًا من حُسبانه الباطل ، وظنّه الدّاحض ، جاءت سورةُ البلد المماثلة لها في المطلع ، واللاحقة نزولًا ، تُواصِلُ

الحديثَ عن حسبانه الباطل، وظنّه المُعوَجّ: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٥ ـ ٦]، ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧].

والجديرُ بالتّنبيه إليه أنَّ فعل الحُسبان ورد مرّتين في كلٍّ من السّورتين، وهذا من التّناسق العظيم، والتّوافق البديع الذي يتميّزُ به البيانُ القرآني في أسلوبه وعرضه.

٤ ـ حديثُ السّورتين عن أعضاء جسم الإنسان:

حفِلت سورتا القيامة والبلد بذكر أعضاء عديدة من جسم الإنسان، وبعضٌ منها لم يُكَرَّرْ في القرآن في موضع آخر، والأعضاء التي جاء ذكرُها في السّورتين هي كالآتي:

سورة القيامة: (عظامه، بنانه، البصر، لسانك، وجوه، التّراقي، السّاق، نطفة، مَنِيّ، علقة).

سورة البلد: (عينين، لسانًا، شفتين، رقبة).

والذي يجعل القارئَ المُتدبِّرَ يزدادُ دهشةً وإعجابًا؛ الانسجامُ بين هذه الأعضاء ومواضع ورودها؛ ففي سورة القيامة التي تتحدّثُ عن النّشأة وعن يوم القيامة، جاء فيها ذكرٌ لمواد النّشأة الأولى (المني، نطفة، علقة)، وحين يقترب الأجل، ويدخلُ الإنسان في حالة الاحتضار، جاء ذكرُ (التّراقي، والتفاف السّاق بالساق)، وعند قيام السّاعة وبعث الخلق أجمعين جاء ذِكرُ (العظام، وتسوية البنان)، وبعد الحساب والفصل جاء ذكر (وجوه) السعداء، و(وجوه) الأشقياء.

أمّا سورة البلد، التي ركّزت فيها العدسةُ البيانية على أحوال الإنسان في الدّنيا، وحُسبانه الخطأ أنّه لا يراه أحد، وأنّهُ غيرُ

مُراقَب ، فقد جاء فيها ذِكرُ نعمة (العينين ، واللسان ، والشّفتين) ، وهذه حواسّ يحتاج إليها الإنسان في إقامة شؤون حياته ، وجاء فيها ذكرُ الرّقاب التي يستعبِدها البشر إهانةً وإذلالًا ، وهم مُطالبون إذا حرصوا على النّجاة يوم لقاء الله أن يفكّوا جنس الرّقبة حتّى يقتحموا بسلام العقبة : ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴾ [البلد: ١٦].

وبمثل هذا الوضوح ، يبدو جليًّا كيف أنَّ السّورتين اللّتين تحدّثتا عن شأن الإنسان في العاجلة والآجلة ، قد حفلتا بذكر (١٤) أربعة عشر لفظًا من قاموس ألفاظ جسم الإنسان ، بعضٌ منها يتعلّق بمرحلة النّشأة ، وبعضٌ يتعلّقُ بالحواس ، وألفاظ أخرى تتعلّق بجوارح أخرى.

٥ ـ حديثُ السّورتين عن السّعداء والأشقياء:

جاء في السّورتين حديثٌ عن الفريقين: فريق أهل الجنّة ، وفريق أهل النّار ، وقد جاء التعبير عنهم في سورة القيامة بوصف وجوههم؛ فالسّعداءُ الفائزون وجوههم مبيضّةٌ تغشاها نضرةُ النّعيم: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] ، والأشقياء المتقلّبون في النّار وجوهم مُسوَدّة ترهقُها قترةُ الجحيم: ﴿ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴾ [القيامة: ٢٤ ـ ٢٥].

أمّا سورة البلد ، فتحدّثت عنهم بأسلوبٍ صريح ، وذكرت جملةً من أعمال كلٍّ منهم ، وقد جاء التّعبيرُ عنهم بأصحاب المَيمنة ، وأصحاب المشأمة. قال جلّ شأنه: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴾ [البلد: ١٧ ـ ٢٠].

مِمّا سبق عرضه ، تبدو نقاطُ التّلاقي بين سورتي القيامة والبلد ، من حيثُ المضامين المتشابهة ، والصّيغ التعبيرية المتشابهة ، والتّكامل الموضوعي ، الذي يلمسه كلٌّ متدبّر في قاموس ألفاظ جسم الإنسان في القرآن الكريم.

❊ ❊ ❊



المَبحَثُ الثّامِنُ

سورتا المطفّفين والهمزة

تشترك سورتا المطفّفين والهُمزة في مطلعهيما ، إذ افتتح الباري كلتيهما بالتّعبير (ويلٌ لـ)؛ فالمطفّفون لهم الويلُ ، والهُمزةُ اللّمزةُ له الويل. ووَفق المقاربة التّفسيريّة التي نحن بصدد إيضاح معالمها في هذا الكتاب؛ فإنّه لا يستقيم في العقل المستنير بنور القرآن أن تُفتَتَحَ هاتان السّورتان بالمطلع ذاته ، ثمّ لا تكون بينهما روابطُ في الموضوعات تجمعهما أو ألفاظ تتجاذب فيما بينهما ، أو أنساق تعبيريّة تتشابهان فيها. وقبل الخوض في لجّة المقارنة بين الثّوبين اللفظيين للسّورتين ، يحسُنُ أن نسوق بين يدي القارئِ الكريم تعريفًا موجزًا لكلّ سورة ، ثم نشرع في نسج خيوط المقارنة المضمونيّة واللفظيّة بينهما.

بين يدي سورة المطفّفين:

اختلف أهل التّفسير في مكيّة سورةِ المطفّفين أو مدنيّتها؛ ومردّ اختلافهم تضاربُ الرّوايات التي وردت بشأن تحديد وقت نزول آياتها؛ فالسّورة مدنيّة وفق ما أورده الإمام ابن كثير في تفسيره ، نقلا عن الإمامين النّسائي وابن ماجه ، اللّذين رويا حديثًا موقوفًا عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، أنّه قال: «لمّا قدِم نبيّ الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث

النّاس كيلًا، فأنزل الله: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ فحسّنوا الكيل بعد ذلك»[(١)].

وأورد الإمام القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن) بأنّها مكيّة في قول ابن مسعود والضّحّاك ومقاتل، ومدنيّة في قول الحسن وعكرمة[(٢)].

وسورة المطفّفين لا تخرج عن الإطار العام للقضايا التي عالجها القرآن المكيّ؛ إذ يجدُ المتدبّرُ في آياتها حضورًا لمسألة البعث بعد النّشور، وحديثًا عن انقسام النّاس يوم القيامة إلى أبرار وفُجّار، ووصفًا لمشاهد نعيمهم وتعذيبهم، وحديثًا عن موقف أهل الكفر من أهل الإيمان.

إلّا أنّ الموضوع البارز الذي يطفو في مطلعها هو موضوع تطفيف الميزان، والنّقص في المكيال الذي كان عادة منتشرة في الجاهلية لدى كثير من الأقوام. وعلى الرّغم من أنّ هذا الموضوع ينتمي إلى حقل المعاملات؛ إلّا أنّه جاء في سورة المطفّفين، التي أشرتُ إلى اختلاف أهل التّفسير في موضع نزولها: أفي مكّة المكرّمة أُنزلت، أم في المدينة المنوّرة؟

بين يدي سورة الهُمزة:

سورة الهمزة مكيّة باتّفاق أهل العلم بأسباب النّزول وتاريخ نزول سور القرآن الكريم؛ فقد ذكر الإمام الزّركشيّ في البرهان أنّها الثانية والثلاثون نزولًا بعد سورة القيامة، وقبل سورة المرسلات، وهي الرّابعة بعد المائة في ترتيب المصحف الشّريف.

---

(١) رواه النّسائي وابن ماجه.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٩، ص ٢٥٠.

المحور العام الذي تناقشه هو محور الأخلاق والمعاملة بين النّاس، حيث تبشّر الهُمَزَةَ اللّمزةَ بشرّ المصير، بنار مؤصدة يذوق فيها ألوان العذاب، ويُنبَذ فيها مُهانًا. وإمعانًا في تأنيبه وتوبيخه جاء فيها وصف النّار بأنّها الحُطمة الموقدة التي لا تبقي ولا تذر، وتأتي على جميع أعضائه، بل تطّلع على فؤاده.

الرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة بين السّورتين:

أحيانا لا تُظهِرُ القراءةُ الأولى للسّورتين ما بينهما من علاقة، ويسود نوعٌ من التّردّد في ذهن الباحث، الذي اقتنع بأنّه لا بدّ أن تكون بين السّور المتشابهة المطالع أنواع من العلاقات والرّوابط، رشّحتها للانتماء إلى أسرة واحدة، وإلّا فما الحكمة - والقرآن هو كلام العليم الحكيم - أن تتشابها في المطلع في كلمتي (ويلٌ لـ)؛ أولاهما تُنذرُ المطفّفين بالويل، وثانيتهما تُنذرُ الهمزة اللّمزة بالويل.

١ - تتناول سورة المطفّفين موضوع تطفيف الميزان، الذي شاع وذاع في أهل مكّة وفي أهل المدينة في إبّان نزول الوحي؛ فالمطفّفون دأبُهم أنّهم إذا اكتالوا على النّاس يستوفون حقوقهم في الكيل والميزان، وإذا كالوا للنّاس أو وزنوا لهم يُخسرون في الميزان، ويبخسونهم حقوقهم.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

والتّطفيف لغة هو إنقاص الشّيء الطّفيف أثناء الوزن، والمطفّفون من التّجّار لا يدفعهم إلى التّطفيف في الميزان إلّا جشعُهم وحبُّهم للمال، وعدم مراعاتهم لحقوق الآخرين.

أمّا سورة الهمزة، فهي تتناول موضوعًا أخلاقيًّا خطيرًا، وهو

عادة ازدراء النّاس وتحقيرهم بهَمْزهم ولَمْزهم، بالإشارات والألفاظ القبيحة والألقاب الشّنيعة، التي لا تُرضي المخاطبين. قال جلّ شأنه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

جاء في لسان العرب: همز رأسه يهمِزُهُ همزًا: غمزه. وهمزه: دفعه وضربه. والهمّاز والهُمزةُ: الذي يهمزُ أخاه في قفاه من خلفه، والهمْزُ: الغضّ والكسرُ والعيب»[١].

وذكر ابن منظور في اللسان أيضا لدى شرحه معاني مادّة (لمز): «اللّمزُ كالغمز في الوجه تلمِزُهُ بفيك بكلام خفيّ. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، أي: يُحرّك شفتيه. ويقال: لمزته ولهزته إذا دفعته، وذكر عن الفرّاء قوله: الهمز واللّمزُ والمرزُ واللّقسُ والنّقسُ: العيبُ»[٢].

وجاء في فتح القدير: الهُمَزةُ هو الذي يهمزُ الناس بيده، واللّمزةُ الذي يلمِزُهم بلسانه، وهذه الرواية عزاها لمجاهد وهو من أئمّة التفسير. وذكر أنّ الإمام الثّوري كان يقول: «يهمزُهم بلسانه، ويلمِزُهم بعينيه. وذكر أنّ ابن كيسان قال: الهُمزة الذي يُؤذي جُلساءه بسوء اللّفظ، واللّمزةُ الذي يكسِرُ عينه على جليسه ويشيرُ بيده وبرأسه وبحاجبه»[٣].

ممّا سبق، يتّضح أنّ الهمزة اللّمزة حِرْفتُهُ أنّه ينتقصُ من منازل النّاس. يغتابُهم في وجوههم وفي غيبتهم. يشيرُ إليهم بيديه، ويغمزُهم بعينيه، ويومئ إليهم بشفتيه، ويزدريهم بعينيه، وكلّ هذه

---

(١) لسان العرب، مادة همز.

(٢) لسان العرب، مادة لمز.

(٣) الشّوكاني فتح القدير، ج٥، ص ٦٢٨.

الإشارات هي انتقاصٌ من شأنهم، وتحقيرٌ لقيمهم، وتصغيرٌ لمنازلهم، وبلغة التّجارة والبيع هي تطفيفٌ من قيمة كلٍّ منهم.

وبهذا يتّضحُ أنّ سورة المطفّفين تناقش مسألة تطفيف الميزان والإنقاص منه، وسورة الهمزة تناقش موضوع ازدراء النّاس واحتقارهم، ويلتقي الموضوعان في التّطفيف والإنقاص.

.. علاوة على اتّحاد السّورتين في موضوع النّيل من حقوق النّاس وازدرائهم وبخس حقوقهم المادّيّة والمعنويّة، نجدُ أنّ سورة المطفّفين خصّصت جملة من الآيات في نهايتها لوصف معاملة المشركين للمؤمنين؛ حيث إنّها أبرزت جانب التّغامز بالمؤمنين، والاستهزاء بهم، والضّحك عليهم.

قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٣].

جاء في التّفسير الوسيط: «وإذا مرّ هؤلاء المُجرمون بالمؤمنين سخِروا منهم، وتغامزوا فيما بينهم على سبيل الاستهزاء بفقراء المؤمنين. والتّغامزُ تفاعل من الغمز، وهو الإشارةُ بالجفون والحواجب على سبيل الطّعن والتّهكّم. أي: يغمِزُ أحدُهم الآخرَ ليُنبّه إلى ما عليه فقراء المسلمين من شظف العيش، ومن غير ذلك من الأحوال التي لا يرضاها المشركون لجهلهم وغرورهم وبلادة حسّهم.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ أي: وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من مجالسهم التي كانوا فيها، رجعوا مُتلذّذين باستخفافهم بالمؤمنين والسّخرية منهم.

فهم لإيغالهم في الكفر والفسوق والعصيان، لا يكتفون بالغمز

واللّمز عندما يرون المؤمنين ، بل يجعلونهم عند عودتهم إلى أهليهم مادّة تفكّههم وضحكهم»[(١)].

وقد ردّ الله تبارك وتعالى عليهم سخريّتهم وتغامزهم بأهل الإيمان بأنّ مصيرهم سيكون شرّ مصير ، وبأنّ عاقبتهم هي السّوأى؛ إذ ستنقلبُ الكرّة لصالح المؤمنين ، وسيضحكون من المشركين ، وينظرون إليهم وهم يُعذّبون ويُزَجُّ بهم في سواء الجحيم: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ ـ ٣٦].

لا أظنّ بعد هذا الإيضاح ، أنّ واحدًا من أهل العلم يُخالف في النّتيجة التي توصّل إليها هذا البحث من أنّ هاتين السّورتين ، ما افتتحهما الباري جلّ ثناؤه بهذين المطلعين المتشابهين ؛ إلّا وبينهما من الرّوابط والوشائج ما يجعل القارى يقطعُ أنّهما تنحدران من أسرة واحدة.

٢ ـ من ناحية أخرى ، لو سألنا هذا السّؤال: ما الذي يدعو المطفّف إلى التّطفيف؟ فإنّ الجواب هو جشعُ المُطفّف وحبّه للمال ، وحِرصُهُ على الحصول عليه بكل الطرق حلالِها وحرامِها. أقول: إنّ هذا المعنى هو ذاته المعنى الذي جاء في وصف الهُمزة اللّمزة ، حيث ذكر جلّ شأنه أنّه: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٢]. وفي هذه النّقطة أيضًا يلتقي المطفّف والهُمزة اللّمزة ، فهما حريصان على المال ، وكم أذلّ المال من صناديد الرّجال!

---

(١) محمد سيد طنطاوي ، التفسير الوسيط ، دار السعادة ، القاهرة ، ج١٥ ، ص٣٢٨.

٣ ـ سجّلت سورة المطفّفين أنّ المطفّفين لا يُقدِمون على عادتهم الشّنيعة وفعلتهم الفظيعة في تطفيف الميزان إلّا لأنّهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم في ذلك اليوم العسير، ولا يوقنون بأنّهم واقفون بين يديه. قال الله تعالى في حقّهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦].

وهذا المعنى ذاته هو الذي جاء التّعبير عنه في سورة الهمزة، بأنّ الهمّاز اللّمّاز يظنّ أنّ ماله سيُخلدُه، ولا حسبان ليوم القيامة في خلده، ولا اعتبار له في عقله ووجدانه: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٣].

٤ ـ تلتقي السّورتان في توظيف أداة الرّدع (كلّا) حيث جاء في سورة الهمزة قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤]. والحُطمة نارٌ موقدةٌ متأجّجةٌ مُحرقةٌ يُلقى فيها الهُمزةُ اللّمزةُ بطريقة مُهينة مُزرية، والذي يدلّ على الإلقاء المُزري في النّار هو فعل ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾، وهو من قبيل الجزاء من جنس العمل؛ فكما أنّ الهُمزة اللّمزة اعتاد أن يُزري بالنّاس، وأن يُهينهم وينتقص من أقدارهم، فكذلك يلقى المصير ذاته في اليوم العسير الذي نسيه، حيث يُنبَذُ ويُلقى مهانًا ذليلًا حسيرًا خاسئًا في قعر الحُطمة.

وثمّة لطيفة لغويّة تتميّزُ بها سورة الهمزة دون أخواتها المكّيّات والمدنيّات، هي توظيف صيغة (فُعَلة) التي لم تتكرّر في القرآن كلّه إلّا في هذه السّورة، في وصف هذا الإنسان الشّرير، الذي ينتقص من أقدار النّاس، ويزري بهم فهو هُمزةٌ لُمزة، وهذه الصّيغة تدلّ ببنائها على المبالغة في الاتّصاف بالفعل.

جاء في الدّرّ المصون: «فُعَلة بفتح العين، لمن يكثر منه الفعل، وبسكونها لمن يكون الفعلُ بسببه»(١).

واللّطيفة البيانيّة تبدو جليّة في اسم النّار، التي اختير لها في سورة الهمزة صيغة فُعلة (الحُطمة)، وهذا أيضا من قبيل كون الجزاء مجانسًا للعمل؛ فإنّ النّار التي يصلاها الهُمزة اللّمزة صيغت على وزن وصفه، وكأنّي بالبيان القرآني يومئ إلى أنّها نارٌ حيكت على قدّه، وأعِدّت مشاكلةً لوصفه.

قلت: جاءت أداة الرّدع (كلّا) في هذا التعبير ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤]، وتكرّرت في سورة المطففين أربع مرّات في الآيات التالية:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧].

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

٥ ـ تقنيّةٌ لغويّة أخرى جاء توظيفُها في السّورتين، وهي عبارة (وما أدراك ما...)؛ حيث جاء في سورة المطففين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: ٨]، وجاء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: ١٩]، وجاء في سورة الهمزة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: ٥].

وجملة (وما أدراك ما كذا...؟) من مبتكرات التّعبير القرآني،

---

(١) السمين الحلبي، الدر المصون، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، ط ١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٦، ص ٥٦٨.

وهي تستعمل في تفخيم الأمر وتهويله. قال آلالوسي في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣]: «أيُّ شيء أعلمك ما هي؟ تأكيدٌ لهولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات، على معنى أنَّ عِظم شأنها ومدى هولها وشدّتها بحيث لا يكادُ تبلغه دراية أحد ولا وهمُهُ، وكيفما قدّرت حالها فهي وراء ذلك وأعظم وأعظم، فلا يتسنّى الإعلامُ، ومنه يُعلَمُ أنَّ الاستفهامَ كُنّيَ به عن لازمه من أنّها لا تُعلَمُ ولا يصِلُ إليها درايةُ دارٍ، ولا تبلُغُها الأوهامُ والأفكارُ»[1].

وقد أورد القرطبي في تفسيره رواية عن سفيان بن عيينة قوله: «كلّ شيء قال فيه: (وما أدراك) فإنّه أُخبر به، وكل شيء قال فيه: (وما يدريك) فإنّه لم يُخْبَر به»[2].

٦ ـ اختلف المفسّرون طرائق قددًا في المراد بكلمة (سِجّين) في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]؛ فمنهم من فَهِم من السّياق أنّ (سِجّين) هي اسمٌ من أسماء النّار، ومنهم مَنْ ذكر بأنّ (سجّين) هي الكتاب المرقوم الخاصّ بالفُجّار، ومنهم من قال: إنّها صخرةٌ تحت الأرض السّابعة، ورأيٌ رابعٌ بأنّ سجّين هي الأرض السابعة السفلى، وخامس بأنّه جُبٌّ مُغطّى، وسادس بأنّه حبس وضيقٌ شديد، وغيرها من الأقوال[3].

---

(١) آلالوسي، روح المعاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد أحمد الأمد، وعمر عبد السلام السلامي، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ج٢٩، ص ٦٤.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: محمد رضوان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ج٢١، ص ١٨٩.

(٣) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: كامل محمد الخرّاط، وماهر حبّوش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ج٢٢، ص ١٤٠، ١٤١.

والذي يترجّحُ لدى الباحث، أنّ (سجّين) اسم يُطلَقُ على النّار المُغلَقة، والكلمة مشتقّة من (سجن) على وزن (فِعّيل)، وصيغة (فِعّيل) في اللغة العربيّة تُطلَقُ للمبالغة مثل: شِرّيب، وفِسّيق، وخِرّيت، وصِدّيق.

والذي يدعونا إلى هذا التّرجيح، هو أنّ سورة الهمزة وصفت الحُطمة بأنّها نارٌ مغلَقةٌ مؤصدةٌ على أهلها. قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨ ـ ٩]. وبما أنّ السورتين متشابهتان في مطلعيهما، فإنّ كثيرًا من المضامين والمعاني فيهما تتشابه كما رأينا في نماذج من الأسر القرآنية، التي بسطنا فيها القول سابقًا مثل أسرة (تبارك الذي)، وأسرة الحمد، وأسرة المسبّحات وغيرها.

هذه نتيجة مباشرة من النّتائج التي يتحصّلُ عليها المتدبّرُ في كتاب الله تعالى، حين يعمدُ إلى قراءة سور القرآن الكريم بطريقة تكامليّة، وينظر في النّصوص نظرات إجماليّة، والله أعلم بأسرار التّنزيل.

❋ ❋ ❋

الفَصْلُ الثَّانِي

السّورُ المتشابهة الفواصل





الفَصْلُ الثَّانِي

السّورُ المتشابهة الفواصل

في هذا الفصل ، سيتم الحديث ، بإذن الله تعالى ، عن وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن الكريم الخاص بالأسر القرآنيّة. وهذا الوجه لا يتعلقُ بتشابه المطالع ، وأثره في التّكامل والتّرابط بين الأسر القرآنية ، كما رأينا في مباحث الفصل الأوّل ؛ وإنّما يتعلّق بتشابه الفواصل في السّور القرآنية؛ فكما هو معلوم ، فإنّ نهايات الآيات في السورة القرآنيّة سمّاها علماء التّنزيل الفواصل ، تفريقًا بينها وبين الأسجاع والقوافي ، التي ارتبطت في أذهان جميع قرّاء العربيّة ، وفي الاستعمال الأدبي بفنّ الشّعر.

والنّظر من هذه الزّاوية في نصوص التنزيل أمرٌ خطرٌ غير مسبوق ، وفجٌّ من البحث عميق غير مسلوك ، لم تتطرّقْ إليه الدّراساتُ السّابقةُ ولا المُعاصرة ، وليسَ ذلك لصعوبته ، أو دقّةِ مسالكه ، ولكنْ لأنَّ طريقةَ تناوُله ، وزوايا مُناقَشَته لم تكنْ مسلوكةً من قِبل الباحثين في عهود التّدوين الأُولى. ولمّا جاء الباحثون المُحدَثون عكفوا على ما كتبه المُفسّرون السّابقون وجادت به قرائِحُهم ، فوسّعوا القولَ فيه ، وأبدعوا في تفصيله ، وربطوا بين الآيات القرآنية وشتّى علوم العصر؛ فظهرت نتيجةً لذلك دراساتٌ أصيلةٌ في الإعجاز العلميّ في القرآن

مثل: الإعجاز العلمي في علم الأجنّة، وعلم الفلك، وعلوم الأرض والبِحار، والسّحاب والرّياح، وغيرها. ولمّا توسّعت دائرة البحث الإعجازية كان قُصارى ما توصّلت إليه الفهوم والأذهانُ، أن ربطت بين الآيات القرآنية وبين العلوم الإنسانية المتنوّعة، مثل: علاقة القرآن بعلم النفس، وبيان السّبق القرآني في لغة التّواصل غير اللّفظي والإدارة وغيرها.

أمّا أن يَتِمَّ النّظرُ في آيات القرآن وسُوره نظرةً إجماليةً وشاملةً تُحدِّدُ جمالَ النّصّ المُعجز، وتُوضِحُ الصّورةَ الكُبرى للمعجزة العقليّة الخالدة؛ فذلك ما لم تخُضْ في لُججه أذهانُ الباحثين، ولم تَجْرِ به أقلامُ الدّارسين إلّا في بعض الدّراسات الحديثة التي تتنوّع أساليب وطرائق البحث فيها.

وحتّى لا يعزُبَ ذهنُ القارئِ عن حقيقة الفِكرة الجديدة، التي تُحاوِلُ المباحثُ الآتيةُ تجليتَها، يحسُنُ تحديدُ معالم هذه المقاربة، وملامحها بشيءٍ من التّقصّي التّاريخي، والتأصيل النّظري، ثُمَّ يأتي دورُ تقديم نماذج تطبيقيّة، تُوضِحها وتُثبِّتُها في أذهان القرّاء المُتدبّرين في خبايا النّصّ المُعجِز.

تحدَّثَ المفسّرون عن إحكام النّصّ القرآنيّ وعظمته، وتحدّثوا عن تكامل آياته وسُوَره، وخاض الذين عُنوا منهم بالتّفسير الموضوعي في جمع الآيات، التي تتحدَّثُ عن الموضوع الواحد مُجرين مقارنات بينها، ذاكرين بعض خصائص الموضوع الواحد، مِمّا تجمّع لديهم من معارف حول هذا الموضوع أو ذاك، وقد تمّ في الغالب تناولُ هذه المواضيع تحت عناوين مثل: العلم في القرآن، المَكر في القرآن، التّقوى في القرآن، أو تمّ دراسةُ الموضوع دراسة

دلالية مثل: ألفاظ الجنّة في القرآن ، وألفاظ النّار في القرآن وغيرها. وأيضا تناولوا من جهة أخرى السورة القرآنية في كثير من البحوث والدّراسات ، التي تتعلّق بالتناسق الموضوعي في سورة كذا ، والوحدة الموضوعيّة في سورة كذا وكذا.

وما قدّمه الباحثون وما يقدّمونه في التّفسير الموضوعي عملٌ عظيم ، وهو يُيَسِّرُ للقارئِ التّعرُّفَ على الموضوع الواحد من جميع أقطاره وزواياه في القرآن الكريم ، ولكن يبقى هذا العملُ في إطار محاولة الجمع بين الآيات المتشابهة المضامين.

أمّا المقاربة الجديدة ، التي يبسُطُها هذا الفصل ، فهي تتعلّقُ بنمط جديد من العلاقات والمناسبات أفرزها تشابُهُ الفواصل ، ودلّت المقارنة النَّقديّة الكاشفة أنّ السّورتين أو السّور التي تتشابه فواصلها أو تتشابه أغلب فواصلها تجمعها روابط كثيرةٌ ، ويكون بين أنسجتها اللّفظيّة وأثوابها التّعبيريّة تناسبٌ بل اتّساقٌ وتلاحم يقول بلسان حاله: هذه من تلك ، وإنّهما تخرجان من مشكاة واحدة ، وإنّهما تتضافران وتتآزران وتتظاهران، لتؤدّيا دلالات ومعانيَ إيمانيّة وشرعيّة، لا تؤديها إحداهما منفردةً عن سلك أختها أو أخواتها.

وسوف أُمثّلُ لهذه المقاربة التّفسيريّة بإجراء مقارنةٍ بين سورتَي الإسراء والفرقان في المبحث الأول ، وبين سورتَي الكهف والجِنّ في المبحث الثاني ، وبين سور (طه ، والنجم ، والأعلى ، والليل ، والضحى) في المبحث الثالث ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو المُلهم والهادي إلى سواء الصراط.

* * *



المبحث الأول

سورتا الإسراء والفرقان

سبق في المبحث الثّالث من الفصل الأوّل لهذا الكتاب بيانُ العلاقات التي تربط بين سورتي الفرقان والملك، باعتبار أنّهما سورتان من أسرة واحدة، تشتركان في تشابه المطلعين ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ...﴾، وأوضحت الدّراسة أنّ بين السّورتين وشيجةً قويّة، وتماثلًا في نسيجهما اللغوي إلى حدّ التّلاحم والاّتساق والتّكامل.

أمّا هذا المبحث فيتناول سورتي الإسراء والفرقان، اللتين تتشابهان في أغلب فواصلهما، وهي فاصلة الرّاء المفتوحة المسبوقة بياء أو واو، وذكر العلاقات والرّوابط المعنويّة، واللفظيْة التي تربط بينهما.

وفي أوّل الأمر يتبادرُ لذهن القارئ بعض الأسئلة من مثل:

١ ـ أين العلاقة التي تربطُ بين سورة الإسراء التي تتحدّثُ عن حادثة الإسراء وبعض القضايا الإيمانية، وسورة الفرقان التي تتحدّث عن تنزيل الفرقان وجملة من الشّبهات، التي اختلقها أهل الكفر في وجه دعوة الإسلام؟

٢ ـ ما العلاقة التي تربطُ بين سورة الإسراء التي هي السّورة

الخمسون في عداد تنزيل السّور ، وسورة الفرقان التي هي الثانية والأربعون في عداد التنزيل؟

٣ ـ ما الحكمة أن جُعلت سورة الإسراء قبل الفرقان في ترتيب المصحف الشّريف ، والحالُ أنّها قد أُنزلت بعدها بزمن غير يسير؟؟

هذه التّساؤلات وأمثالها تدعو إلى مزيد من التّدبّر وسبر أغوار النّصوص للوقوف على بعض أسرار هذا الكتاب العَظيم المُعجز الذي جاء في وصفه على لسان الجِنّ بأنّه عجب: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

سورة الإسراء مكّيّة باتّفاق علماء التّنزيل. هي السّورة الخمسون نزولًا بعد سورة القصص ، وقبل سورة يونس. تسمّى سورة الإسراء لحديث مطلعها عن حادثة الإسراء التي كرّم الله تعالى فيها نبيّه محمّدًا ﷺ ، وجعلها معجزة مادّيةً على صدقه وصدق نبوّته ، وتسمّى سورة بني إسرائيل ، نظرًا لتناوُلها جانبًا من تاريخ بني إسرائيل وحديثًا عن الإفسادتين وغير ذلك من شؤونهم.

جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أنّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: «إنّهنّ من العِتاق الأُول ، وهُنَّ من تلادي»[١].

مِحورُ سورة الإسراء هو شخص رسول ﷺ ، ولو كانت أسماء السّور اجتهاديّة لَحُقَّ لنا أن نسمّيَها بحقّ سورة محمد ﷺ؛ ذلك لتناولها حادثة الإسراء ، التي هي من تكريم الله تعالى له دون غيره من الأنبياء والمرسلين ، ولحديثها عن جوانب من شخصه الكريم ،

---

(١) أخرجه البخاري.

وتسليطها بعض الأضواء على سيرته وما لاقاه من عنت وإعراض وصدّ ومحاججة ومجاهدة من قبل المشركين، ومطالبهم التّعجيزيّة وغيرها.

يلتفّ حول هذا المحور جملة من المواضيع على رأسها إثباتُ نبوّته ﷺ، وبيانُ جانب من تاريخ بني إسرائيل مع التّركيز على الإفسادتين، وإثبات أنّ القرآن الكريم هو وحي الله المنزّل على قلب محمد ﷺ، والإشادة به، وبمن أُنزل عليه.

أيضا نجد حضورًا واضحًا لجملة من التّوجيهات الخُلُقيّة المتعلّقة بالأفراد والجماعات، والعلاقات فيما بينهم، وبعض المعاملات ابتداء من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]؛ وقد يعجب القارئ من وجود آيات تتعلّق بالأحكام ضمن القرآن المكيّ، والجواب عن هذا التساؤل هو أنّ سورة الإسراء من أواخر السّور نزولًا في مكة المكرّمة، وفي ذلك العهد كان عدد المسلمين يكثر، وكان سوادُهم يزداد، وهذا يجرّ إلى أنّ الأحداث التي تتعلّق بحياتهم اليومية، والخاصة، والمعاملات المجتمعيّة كانت في ذلك الزمن المبكّر تحتاج إلى بسط في التّوجيه والإرشاد.

كما يجد القارئ في نهاية السّورة حديثًا واضحًا عن شخص رسول الله ﷺ، والكيفيّة التي كان يعامله بها المشركون؛ إذ كانوا يحاولون المكر به، ومضايقته، ويجتهدون في استفزازه من الأرض، ويتفنّنون في مطالبهم التّعجيزيّة للتصديق بنبوّته: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ

بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣].

أمّا سورة الفرقان، فهي سورة مكّيّة أيضًا، محورها العام هو الحديث عن القرآن الكريم، وردّ الشّبهات التي أثارها المشركون في وجه دعوة التّوحيد التي جاء بها الإسلام.

ويقوم محورها على أربعة عُمُدٍ:

الأوّل: إنشاء الثّناء على الله تعالى وتمجيدُه بما هو أهلُه، وذِكْرُ دلائل التّوحيد في الكون العظيم الذي خلقه الله تعالى.

الثّاني: الحديثُ عن تنزيل القرآن، ووصفُهُ بكونه فرقانًا يُفرّقُ بين الحقّ والباطل.

الثالث: ترسيخُ مبدأ بشريّة الرّسول ﷺ، ونقضُ شُبُهات المشركين وافتراءاتهم.

الرّابع: الحديثُ عن الرّسول ﷺ بكونه نذيرًا للعالمين.

ومن عظيم الحكمة في بناء سورة الفرقان، أنَّ الآيةَ الأولى منها حَوَتْ هذه العُمُدَ الأربعةَ في إيجازٍ بديع: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]؛ حيثُ يتمثّلُ التّوحيد والثّناءُ على الله بما هو أهله في قوله ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى ﴾، ويتجلّى التّنويهُ بالكتاب المُنزّل في قوله: ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾، وتظهرُ بشريّةُ الرّسول في كونه عبدًا في قوله: ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾، ويظهر التّركيزُ على وظيفة النِّذارة في قوله: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾. وهكذا، وبدون مبالغة، يتجلّى بوضوح أنَّ الآيةَ الأولى حوت الخيوطَ الأساسيّة لمحور السّورة، وما يلتفُّ حوله من موضوعات، ولو كان الحديثُ في غير القرآن لصحّ للقارئ أن

يسمِّيَها ديباجة الخطبة أو مقدّمة الفصل أو الباب[١].

المقارنة بين الإسراء والفرقان:

١ ـ تبدأ سورة الإسراء بالحديث عن معجزة الإسراء التي أكرم الله تعالى بها نبيّنا محمدًا ﷺ، وهي خارقة في طبيعتها للعادة؛ فليس في طاقة البشر أن يسريَ أحدُهم في برهة من الزّمن قصيرة جدًّا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثمّ يُعرَجُ به إلى ما فوق سدرة المنتهى ثمّ يعود إلى فراشه، ويجد دفئه وحرارته. وكأنّ عقارب السّاعة أوقفها الله تعالى فلم تَعُدْ تعمل، وهذا ليس بعجيب حين تُقاسُ الأشياء بقدرة الواحد الأحد، الفرد الصّمد، القدير المقتدر فهو جلّ جلالُهُ أسرى به وعرج به بقدرته التي لا تُحَدّ؛ لأنّه هو الذي يقول للشّيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ من هنا جاء مطلعها الفريد باسم المصدر (سبحان الذي)؛ لأنّ كلمة (سبحان) تقال في الأمور المُعجبات المُدهشات الجليلات. قال ﷺ: «لكلّ مُعجبة سبحان الله».

بينما تحدّث مطلعُ سورة الفرقان عن تنزيل القرآن الكريم، وهو المعجزة العقليّة الخالدة التي جعلها الله تعالى فُرقانا بين الحقّ والباطل، وبمثل هذا الوضوح، يتجلّى للقارئ أنّ سورة الإسراء مطلعُها هو الحديثُ عن الإسراء وهو مُعجزةٌ مادّيةٌ، وسورة الفرقان مطلعُها يتحدّثُ عن معجزة القرآن العقليّة العلميّة الخالدة، وكلتاهما تُثبتان نُبُوّةَ محمد ﷺ.

٢ ـ المطلعان جاء فيهما تنزيه الله تبارك وتعالى وتقديسُهُ وتعظيمُهُ

---

(١) انظر: كتابنا في رحاب سورة، الجزء الأول.

بما هو أهلُه؛ فكلمة (سبحان) هي اسم مصدر معناه: أُسبّح الله تسبيحًا، وأُجِلُّهُ وأُنزّهه عن كلّ ما لا يليق بجلاله وعظمته وإلهيّته وتفرّده وعدم مشابهته لخلقه.

قال البيضاوي: «(سُبحان): اسمٌ بمعنى التّسبيح الذي هو التّنزيه، وقد يُستعمَلُ علَمًا له فيُقطَعُ عن الإضافة ويُمنَعُ من الصّرف... وانتصابُهُ بفعلٍ متروكٍ إظهارُهُ، وتصديرُ الكلام به للتّنزيه عن العجز عمّا ذُكِرَ بعدُ» (١).

أمّا قوله (تبارك) فمعناه: تمجّد وتعاظم خيرُهُ وزاد وتكاثر. جاء في فتح القدير: «وأصلُ (تبارك) مأخوذةٌ من البركة، وهي النّماءُ والزّيادة، حسّيّةً كانت أو عقليّة. قال الزّجاج: تبارك تفاعل من البركة. قال: معنى البركة الكثرةُ من كلّ ذي خير. وقال الفرّاء: إنّ (تبارك) و(تقدّس) في العربيّة واحد، ومعناهما العظمة. وقيل: المعنى: تبارك عطاؤه، أي: زاد وكثُرَ» (٢).

٣ ـ من وجوه التّناظر بين السّورتين أنّه جاء فيهما حديثٌ عن إيتاء موسى عليه السلام الكتاب: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٥].

٤ ـ جاء في سورة الفرقان حديثٌ عن اتّخاذ المشركين أولياء من دون الله تعالى لا يملكون شيئًا، ولا يخلقون، وليس لهم من خصائص الإلهيّة شيء: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ

---

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٣، ص٢٤٧

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص٧٠.

يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣] ، وجاء في سورة الإسراء نهيٌ مُوَجّهٌ لبني إسرائيل ألّا يتّخذوا من دون الله وكيلًا يفيئون إليه ، ويتوكّلون عليه: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٢].

٥ ـ جاء في سورة الفرقان استفهام إنكاريّ يفيد النّفي بأنّ محمّدًا ﷺ لم يجعله الله تعالى على المشركين وكيلًا ، وهو ليس مُكلّفًا أن يهديَ القلوب إلى الله تعالى ، وإنّما عليه التّبليغ فقط: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]. قال القرطبي: «(أفأنت تكونُ عليه وكيلًا): أي: حفيظًا وكفيلًا حتّى تردّه إلى الإيمان وتُخرجه من هذا الفساد. أي: ليست الهدايةُ والضّلالةُ موكولتين إلى مشيئتك ، وإنّما عليك التّبليغ»[1].

والمعنى ذاته ، والتّعبير ذاته تكرّرا في سورة الإسراء ، حيث جاء بصيغة النّفي: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٥٤]. أي: «وما وكّلناك في مَنعهم من الكفر ، ولا جعلنا إليك إيمانهم»[2].

٦ ـ جاء في سورة الفرقان بأنّ الله تعالى جعل الليل والنّهار يتعاقبان ، وهما محطّتان زمنيّتان للتّذكّر والشّكر ، والكيِّسُ العاقل هو الذي يستثمرُ جميع عمره في شكر الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢] ، وجاء في سورة الإسراء وصفُ نوح عليه السلام بأنّه كان عبدًا شكورًا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣] ، وجاء فيها تقرير أنّ الذي يبغي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٣ ، ص ٣٦.

(٢) الجامع لأحام القرآن ، ج١ ـ ، ص ٢٧٨.

الآخرة، ويأخذ للسّفر إليها عُدّته، ويسعى لها سعيها فإنّ سعيه يكون مشكورًا؛ لأنّ الله جلّ ثناؤه لا يُضيعُ أجرَ من أحسن عملًا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

٧ ـ واللّافت للانتباه أنّ الحديث عن تعاقب ظاهرتي اللّيل والنّهار جاء ذكرُهما في السّورتين للاعتبار بتعاقبهما وتواليهما؛ جاء في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وفي سورة الإسراء جاء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

٨ ـ ذكر الله تبارك وتعالى في سورة الفرقان بأنّ المشركين المعاصرين لرسول الله ﷺ عتَوْا عُتُوًّا كبيرًا: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وسجّلت سورة الإسراء عُلوّ بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]. والملاحَظُ أنّ الذين واجههم محمد ﷺ كانوا أعتى وأشدّ وأظلم؛ إذ وصفهم بالعتو الذي هو شدّة العلوّ والتّكبّر والظّلم.

قال ابن عطيّة: «ولمّا تمنّت كفّارُ قريش رؤية ربّهم أخبر تعالى عنهم أنّهم عظّموا أنفُسَهم وسألوا ما ليسوا به بأهل، وعَتَوْا: معناه صَعُبُوا عن الحقّ واشتدّوا»(١). وقال الزّمخشري: «وعتوا: تجاوزوا الحدّ في الظلم. يُقال: عتا علينا فلانٌ. وقد وصف العُتُوّ بالكبير،

---

(١) المحرر الوجيز، ج٤، ص ٢٠٥.

فبالغ في إفراطه، يعني أنّهم لم يخسروا على هذا القول العظيم إلا لأنّهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو»[(١)].

٩ - يلحظُ القارئُ للسّورتين أنّهما وظّفتا قالبًا تعبيريًّا نادرًا وهو فعل التّتبير بمعنى الإهلاك، ومصدره (تتبيرًا). قال تعالى في وصف إهلاك القرى التي ضرب لها الأمثال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩]، وجاء في وصف إهلاك المسلمين لِما يفسده بنو إسرائيل في الأرض قوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧].

.. والتّتبير لغة الإهلاك. قال الفخر الرازي: «يُقالُ: تَبِرَ الشّيء تَبْرًا إذا هلك، وتبَّرَه أهلكه. قال الزّجّاج: كلّ شيء جعلته مُكَسّرًا ومُفَتّتًا فقد تبّرْته، ومنه قيل: تِبرُ الزّجاج، وتِبْرُ الذّهب لِمُكَسّره، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]»[(٢)].

.. هذا، ولم يرد لفظ (التّتبير) بصيغة المصدر إلا في هاتين السورتين المتشابهتين في فواصلهما، مِمّا يُؤذن ويدلّ دلالة قطعيّة على الاتّساق والتّجاذب اللفظي الموجود بينهما.

١٠ - جاء في سورة الفرقان حديثٌ عن حشر المشركين إلى جهنّم على وجوههم: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤]، وجاء فيها ذكرٌ لتضرّع عباد الرّحمن ودعائهم بين يدي ربّهم متضرّعين قائلين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٢٧٣.

(٢) مفاتيح الغيب، ج ٢٠، ص٣٠٢.

أمّا سورة الإسراء فذكرت أنّ الله تبارك وتعالى جعل جهنّم حصيرًا جامعًا للكافرين: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨].

١١ - في سورة الفرقان، جاء حديثٌ عن القرآن بكونه فُرقانًا فارقًا بين الحق والباطل، بل إنّ السّورة تسمّت باسمه (الفرقان) لورود هذا الوصف في أوّلها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]؛ وجاء ذكرُ لفظ القرآن حين شكا الرّسول ﷺ هجران قومه لهذا الكتاب العظيم المُنزّل من عند الله ليهديهم ويشرح صدورهم بالإيمان، ويُنير طريقهم: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وجاء ذكرُهُ على ألسنة الكافرين وهم يعترضون على تنزيله نجومًا، وإنّما يريدون مخالفة الحكمة الإلهيّة كأنهم يُحيطون بكل شيء علمًا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

بينما سورة الإسراء، على الرّغم أنّها تحمل اسم حادثة الإسراء؛ إلا أنّ الموضوع الأكثر حضورًا فيها هو القرآن الكريم، ولا أدلّ على هذا الكلام من تكرير اسم القرآن فيها إحدى عشرة مرّة:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٦٠].

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩].

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

والذي يدلّ دلالة قاطعة على الاتّساق والتّناسب بين السّورتين في ثوبيهما اللّفظيين، هو ورود لفظ (فرَقناهُ) في سورة الإسراء الذي يحمل إشارة واضحةً إلى سورة الفرقان، وكأنّي بالبيان القرآني يقول لك: أيّها التّالي المتدبّرُ في لغة الذّكر استحضر هذا الفعل، وانظر أين ورد في سورة أخرى، وبما أنّ الحديث عن القرآن بكونه فرقانًا بين الحق والباطل، وبكونه فرَقه الله ليقرأه الرّسول ﷺ على الناس على مُكث؛ إذن ثمة علاقة وطيدة، ووشيجة وثيقة بين السّورتين. والطّريف في الأمر أنّ اسم الفرقان في سورة الفرقان هو أوّل ما ذُكرَ في السّورة، والفعل (فرقناه) بالمقابل جاء في آخر آية تحدّثت عن الذكر وهي الآية ١٠٦. ألا فما أعظم إحكام هذا الذّكر الجليل، وما أروع اتّساقه!!

١٢ ـ تكرّر القالب اللّفظي (أعتدنا .... عذابًا أليمًا) في السّورتين

حيث جاء في سورة الفرقان: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧]، وجاء في سورة الإسراء: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ١٠].

١٣ ـ تكرّرت مادّة (نشر) في سورة الفرقان ثلاث مرّات في ثوب المصدر: (نشور). قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

.. ووردت المادة ذاتها (نشر) في صيغة اسم المفعول في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

١٤ ـ حفلت السورتان بتشريف رسول الله ﷺ وإضافة ضميره (كاف الخطاب) إلى ربّه (ربّك)، حيث تردّد هذا المركّب الإضافي في سورة الفرقان خمس مرّات:

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

وتردّدت الإضافة ذاتها في سورة الإسراء خمس عشرة مرّة، وهذا يدلّ على مدى احتفاء السورتين بشخص رسول الله ﷺ، ومدى المعاناة التي عاناها في تبليغ دعوة الإسلام، والتّثبيت الذي كان يلقاه من ربّه جل جلاله.

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٨].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣٠].

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٨].

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ ﴾ [الإسراء: ٣٩].

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦].

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [الإسراء: ٥٥].

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٧].

١٥ ـ جاء في السّورتين خطابٌ للرّسول ﷺ يُوجّهه إلى النّظر في أمور هذه الحياة الدّنيا نظر تبصّر وتفكّر وتدبّر، حيث حثّه في سورتي الفرقان والإسراء أن ينظر في الأمثال التي ضربها له المشركون،

ووجّهه في سورة الإسراء إلى النّظر في حقيقة التّفضيل؛ فليس إيتاء الأموال في الدّنيا هو المقياس الصّحيح للتّفضيل، وإنّما ثمّة تفضيل من نوع آخر وهو الدّرجات العُلى عند الله في اليوم الآخر:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١].

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٨].

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩].

١٦ ـ من الثّوب اللّفظي المشترك بين السّورتين القالب اللغويّ «دمّرناهم تدميرًا»، حيث لم يرِد هذا القالب إلّا في هاتين السّورتين، وهذا الصّنيع هو ذات الظّاهرة التي تحكم السّورة القرآنية ذاتها، حيث دلَّ الاستقراء أنّ كل سورة تتمتّع بثوب لفظيّ تختص به دون غيرها، وتوجد بين ألفاظها تجاذبات لفظيّة لا توجد في غيرها، وتوجد بينها وبين أخواتها من نفس الأسرة تجاذبات لفظيّة أيضا تختصّان بهما، ولا تُشاركهما فيه سور أخرى، ومن هذا الضرب الأخير قوله تعالى ﴿ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ في قوله تعالى في الفرقان: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٦]، وفي قوله تعالى في الإسراء: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

١٧ ـ جاء في سورة الإسراء حديث مجملٌ عن قوم نوح عليه السلام، وعن القرون الذين جاؤوا من بعدهم: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧]. أمّا سورة الفرقان، ففصّلت الحديث في هذه القرون وذكرت أسماءهم. قال

تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٧ ـ ٤٠].

١٨ ـ جاء في سورة الإسراء نهيٌ مُوَجّهٌ إلى رسول الله ﷺ بضرورة توحيد الله تعالى، ونبذ الشّرك، ومن المعلوم المُسلّم به أنّ محمدًا ﷺ هو أفضل المُوحّدين، وأعظم من نادى بعقيدة التّوحيد، وهو بعيدٌ كلّ البعد عن الإشراك بالله تعالى، ولكنّ النّهي حين يُوَجّهُ إليه؛ فيه دلالاتٌ كثيرة، أبرزها أنّ قضيّة التّوحيد بالغة الأهميّة، وإذا أوصى الله العظيم رسوله الكريم ونهاه مرّات عديدة عن الإشراك؛ فإنّ الخطاب في حقيقة الأمر مُوَجّهٌ إلى أمّته، وعليها أن تأخذ هذا الأمر بجدّيّة وقوّة، وفي ذلك يُردّد الفقهاء والمفسّرون: خُوطِبَت الأمّة في شخص نبيّها.

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال جل شأنه: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٩].

أمّا سورة الفرقان، التي رسمت في نهايتها صورة مشرقة نيّرة لعباد الرّحمن، فقد جاء فيها أنّه من أخصّ خصائصهم أنّهم لا يشركون بالله أحدًا، ولا يدعون معه غيره: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨].

١٩ ـ تتمّة للمعنى السّابق، جاء تحذير للنّبيّ ﷺ من الإشراك بالله

تعالى ، لأنّ الإشراك يلقي بصاحبه في جهنّم: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].
أمّا المشركون الكافرون في سورة الفرقان ، فقد سجّلت السّورة بأنهم يُلْقَون في جهنّم ، ويكون مصيرهم بئيسًا يوم القيامة نظرًا لعدم استماعهم لنصيحة الدّاعي إلى التّوحيد ، وسوف يدعون على أنفسهم بالثبور والهلاك ، ولا يتحقّقُ لهم الثُّبور الذي يرجونه ويطلبونه: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ۝١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٣ ـ ١٤].

٢٠ ـ من المعاني التي وردت في السّورتين تصريفُ الله تعالى الأمثال للنّاس في القرآن الكريم ليتّعظوا وينتصحوا ويعتبِروا؛ فقد جاء هذا المعنى في السّورتين: في سورة الإسراء في آيتين هما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله جلّ شأنه ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٨٩]. وفي سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٥٠].

وانظر ، هداني الله وإيّاك إلى التّعرّف على أسرار كتابه ، إلى تطابق نهايتي الآيتين (٨٩) من الإسراء ، و (٥٠) من الفرقان ، حيث تحدّثتا بأنّ أكثر النّاس أبَوْا إلّا كفورًا وإعراضًا ، ولم يرد هذا التّعليق بنفس الثّوب التّعبيري إلّا في هذين الموضعين.

٢١ ـ جاء في سورة الإسراء ، والتي هي مخصّصة للحديث عن كثير من شؤون رسول الله ﷺ كما أسلفت ، نهيٌ له ﷺ عن التّقتير والتّبذير ، ولكنّ هذا النّهي جاء في ثوب صورة حركيّة من لغة الجسم التي يتعامل بها البشرُ عالميًّا. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ

وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] ، أي: «لا تجعل يدكَ في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط: ولا تبسُطها كل البسط ، أي: ولا تتوسّع في الإنفاق توسّعًا مُفرِطًا بحيث لا يبقى في يدك شيء. وحاصلُ الكلام: أنّ الحكماء ذكروا في كتب «الأخلاق» أنّ لكل خُلُق طرَفَيْ إفراط وتفريط وهما مذمومان ، فالبُخلُ إفراطٌ في الإمساك ، والتّبذيرُ إفراطٌ في الإنفاق ، وهما مذمومان ، والخُلُقُ الفاضلُ هو العدلُ والوسَطُ ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»(١).

أمّا في سورة الفرقان ، فالله تبارك وتعالى وصف عباد الرّحمن أنّ من صفاتهم أنّهم معتدلون في الإنفاق لا يُقتّرون ولا يُسرفون:
﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٢٢ ـ جاء في الإسراء نهيٌ للمؤمنين أن يجترحوا كبيرتي القتل والزّنا ، فهما معصيّتان ذميمتان في جميع الأعراف والشّرائع ، وعند جميع أولي الألباب والنُّهى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣١ ـ ٣٣].

وفي سورة الفرقان جاء وصف عباد الرّحمن بأنّهم لا يتعاطون هذه الصّفات الذّميمة ، ولا يقربون منها ، وهم أعفّاء شُرفاء لا يقرب الخنى والجُرم من خيامهم: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

---

(١) مفاتيح الغيب ، ج٢٠ ، ص ٣٢٩.

٢٣ ـ جاء في سورة الإسراء تعظيم للعهد، وبيان بأنّ الله تعالى يسألُ أصحاب العهود عن عهودهم، وعن وفائهم بها: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأوضح في سورة الفرقان أنّ الله تعالى وعد عباده المتّقين بالجنّات خالدين فيها، وقرّر بأنّ ذلك وعدٌ مسؤول عليه، للدّلالة على أنّه جلّ شأنه مُوَفّيهم أجورهم، ومُجازيهم خيرًا على أعمالهم الصالحة: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

٢٤ ـ جاء في سورة الإسراء نهيٌ مُوَجّهٌ إلى رسول الله ﷺ بأن يتجنّب أن يمشيَ في الأرض كما يمشي فيها المَرِحون المتبطّرون الأشِرون، والنّهي في حقيقته كما أسلفت مُوَجّهٌ لأمّته، لأنه عُرِفَ ﷺ بدماثة خُلُقه وتواضعه وحسن خلقه منذ ولادته. قال جل شأنه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

أمّا سورة الفرقان، فجاء فيها وصف عباد الرّحمن بأنّهم يمشون على الأرض هونًا، وهم على خلق جميل من التّواضع والحِلم والرّفق: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٢٥ ـ جاء في سورة الإسراء خطابٌ مُوَجّهٌ إلى النّبيّ ﷺ بالتّهجّد باللّيل، ووعده ربّه جلّ ثناؤه أن يبعثه مقامًا محمودًا يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وجاء في وصف الذين أوتوا العلم بأنّهم إذا سمعوا آيات القرآن تُتلى عليهم يخرّون للأذقان سجّدًا، ويدعون ربّهم مسبّحين ومتضرّعين: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا

يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨].

أمّا عبادُ الرّحمن، فجاء وصفُهم في سورة الفرقان بأنّهم يبيتون لربّهم سُجّدًا وقيامًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٤]. والملاحظ أنّ قيام الليل في حق نبيّنا ﷺ جاء مأمورًا به نظرًا لعلوّ مكانته، وسموّ منزلته، وعِظم مسؤوليّته، وقربه من ربّه تعالى. أمّا عباد الرّحمن، فجاء وصفهم بأنّهم يقومون اللّيل على وجه التّطوّع فقط، وليس على وجه الإلزام.

٢٦ ـ ورد المصدر (نفورًا) في السّورتين ثلاث مرّات، مرّتين في الإسراء في معرض وصف تولّي المشركين حين يسمعون القرآن الكريم، وحين يسمعون رسول الله ﷺ يذكر ربّه جل جلاله؛ فالله تعالى يأمر نبيّه ليقرأه عليهم ليتّعظوا ويرعَوُوا عن غواياتهم، ويرشدوا، ولكنّهم يزدادون نفورًا وإعراضًا عنه حين يسمعونه. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تقدّست أسماؤه: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦]. والمعنى أنّهم يزدادون من الله بُعدًا وغفلةً عن النّظر والاعتبار، والنّفور لفظ من قاموس عالم الحيوان، ومنه يُفهَم أنّه شبّههم بالحيوانات التي تنفِرُ حين يُصيبُها الفزع من أمر تخافه، وفي هذا الاختيار إزراءٌ وتنقيصٌ من شأنهم، ومنه قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثّر: ٥٠].

جاء في لسان العرب: «النّفْرُ: التّفرّق. نفرَت الدّابّةُ: تنفِرُ وتنفُرُ نِفارًا ونُفورًا، ودابّةٌ نافرٌ. وكذلك دابّةٌ نفورٌ، يُقال: أَنفرْنا: تفرّقت إبلُنا. ونفرَ الظّبيُ وغيرُهُ نفرًا ونفرانًا: شرد، وظبيٌ نيفورٌ: شديدُ

النّفار. ويُقالُ: في الدّابّة نِفارٌ»[(١)].

وفي سورة الفرقان، جاء تصوير سلوكهم حين يُطلَبُ منهم أن يسجدوا للرّحمن؛ فإنّ ذلك يزيدهم أيضًا إعراضًا ونفورًا كأنّهم حُمُرٌ مُستنفِرَةٌ فرّت من قسورة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾ [الفرقان: ٦٠].

٢٧ - من الأيقونات اللّفظيّة التي تكرّرت في السّورتين بشكل واضح ولافت للانتباه، واصطبغ به ثوبهما اللّفظي كلمة (سبيل)، حيث تكرّرت في سورة الإسراء ست مرّات:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وتكرّرت في سورة الفرقان سبع مرّات:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩].

---

(١) لسان العرب، مادة نفر.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧].

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٤].

﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٢].

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥٧].

٢٨ ـ نبّأ الله تعالى نبيّه ﷺ بأنّه جعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا حين قراءته للقرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥].

وفي سورة الفرقان اشتكى الرّسول ﷺ إلى ربّه هَجْرَ قومه للقرآن: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠]؛ ففي السورتين حديث عن موقف النّاس من القرآن. في سورة الإسراء وصفٌ لموقف المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة الذين استحقّوا لكُفرهم وجحودهم أن يجعل الله تعالى بينهم وبين القرآن حجابًا مستورًا؛ بينما تعرّضت سورة الفرقان لشكوى الرّسول ﷺ من موقف قومه الذين بُعِثَ إليهم بما فيهم المؤمنون وغيرُ المؤمنين.

٢٩ ـ في سورة الإسراء، وسَمَ المشركون الرّسول محمدًا ﷺ بأنّه مسحورٌ: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]،

وكذلك فعلوا في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

والوصف ذاته أطلقه فرعون الجبار على كليم الله موسى عليه السلام في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]؛ فانظر، يا رعاك الله، كيف تتجاذب الألفاظ في السّورة الواحدة، وكيف تتجاذب في السُّور التي تتشابه فواصِلُها وقل: سبحان الذي أنزل هذا الذّكر الحكيم!

علما أنّ لفظ (مسحورًا) لم يرد إلّا في السورتين، وورد في صيغة الجمع في سورة الحِجر في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ ـ ١٥]، ولم يرد في القرآن الكريم كلّه في موضع آخر.

٣٠ ـ يجد القارئُ المتدبّرُ في آيات الذّكر الحكيم أنّ البيان القرآنيّ يتهكّم بالمشركين أحيانًا، وفي أحيان أخرى يتحدّاهم، ويأمرُهم أن يدعوا شركاءكم لعلّهم يكشفون عنهم الضّرَّ، أو يُغدقون عليهم من الرّزق، أو يُحوّلون حياتهم من السّقم إلى الصّحّة، ومن البأساء إلى الرّخاء، ومن هذا القبيل قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

قال الإمام البيضاوي: «قل ادعوا الذين زعمتم أنّها آلهة من دونه كالملائكة والمسيح وعُزير. فلا يملكون: فلا يستطيعون كشفَ الضُّرّ عنكم كالمرض والفقر والقحط، ولا تحويلًا: ولا تحويل ذلك منكم إلى غيركم»[1].

---

(١) أنوار التنزيل، ج٣، ص ٢٥٩.

أمّا سورة الفرقان فجاء فيها تكميلٌ لهذا المعنى ، فالأصنام التي يعبدونها من دون الله لا تملك بذل الشّفاء لهم ، ولا تُحسّن ظروفهم المعيشيّة ، ولا تُحوّلها إلى الأحسن ، ولا تملك لهم موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ والإله الذي يعبده الإنسان ولا يتدخّلُ في نفعه ولا في ضرّه ، ولا دخل له في موته ولا في حياته ولا في نشره ، ماذا يفعل به هذا العابد المسكين المحتاج: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

٣١ ـ أيقونة لفظيّة أخرى لها حضورٌ واضحٌ في السّورتين هي الوصف (كبير) ، حيث يطالع القارئ في جملة من المواضع تكرّرها؛ جاءت في سورة الإسراء سبع مرّات:

﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٧].

﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

ومنها في سورة الفرقان ثلاث مرّات:

﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩].

﴿وَعَتَوۡ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

٣٢ - من الأنساق التّعبيريّة التي حفِلت بها السّورتان التّركيبُ اللّغويّ: (إن كاد + الفعل الماضي)، وقد ورد هذا التعبير في القرآن أربع مرّات، ثلاث منها في سورتي الإسراء والفرقان، وهذا يؤكّد تشابه الثّوبين اللّفظيين للسّورتين:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].

٣٣ - امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ في سورة الإسراء بأنّه ثبّته حتّى لا يركن إلى كلام المشركين، ولا يستجيب لوساوسهم وإغراءاتهم: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. وفي سورة الفرقان، حين سأل المشركون مستنكرين: لماذا لم يُنزل الله القرآن جملة واحدة؟ جاء الجواب بأنّ الله تعالى أنزله منجّمًا ليُثبّتَ به قلب النبيّ ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

والمقصود أنّ السّورتين تحدّثتا عن موضوع تثبيت قلب النّبيّ ﷺ.

٣٤ - أخبر الله تعالى نبيّه ﷺ بأنّه لا ناصرَ له إلّا هو، وجاء توظيف صيغة المبالغة (نصير). قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥]، وأوضح له في سورة الفرقان بأنّه

هو الهادي وهو النّصير: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وفي موضع آخر من سورة الإسراء علّمه أن يدعُوَه وأن يستنصرَه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

٣٥ ـ جاء في السّورتين حديثٌ عن محاولات المشركين تعجيز النّبي ﷺ بالمطالب والمقترحات، التي لا يقصدون من ورائها الاستزادة من العلم أو الازدياد من الإيمان؛ وإنّما غرضُهم التّحدّي والتّعجيز.

قال تعالى عنهم في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقريب من هذه المطالب قولهم في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨].

والملاحَظُ أنّ مطالبهم في سورة الإسراء أخذت شكل التّرقّي، حيث إنّهم سألوا محمدًا ﷺ أن يُفجّر لهم ينبوعًا من الأرض، ثم أن تكون له جنّة تجري من تحتها الأنهار، وطلبوا أن يُفجّر الأنهار خلالها تفجيرًا، ثم طلبوا منه أن يُسقِطَ السماء عليهم كسفًا أو يأتي بالله والملائكة قبيلًا، ثم طلبوا أن يكون له بيت من زخرف أو أن

يرقى إلى السماء ، ومع كل هذه المطالب التّعجيزيّة صرّحوا بأنّهم لا يؤمنون به ولا برقيّه حتّى يُنزّل عليهم كتابا يلمسونه بأيديهم ويقرؤونه. وهذه المطالب التّعجيزيّة التي بدأت من الأدنى إلى الأعلى تتناسب مع معجزتَي الإسراء والمعراج حيث أَسرى الله تعالى برسوله محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عرج به من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى ، وقد سجّلت سورة الإسراء حادثة الإسراء في بدايتها ، وسجّلت في وسطها حادثة المعراج ، بالحديث عن الرّؤيا التي أراها الله رسوله في المعراج.

أمّا سورة الفرقان فجاءت فيها مطالبُهم بصيغة تنازليّة ، أي: بدؤوا بالأصعب الأشقّ في نظرهم وهو إنزال ملَك ليكون نذيرًا ، ثم تنازلوا عن هذا المطلب وطلبوا أن يكون مع الرّسول ملَك ، ثم تنازلوا وطلبوا أن يُلقى إلى الرّسول كنزٌ من السماء ، ثم تنازلوا وطلبوا أن تكون له جنّة يأكل منها. وهذا التّنازل في مطالبهم يتناسبُ مع سورة الفرقان ، التي تحدّثت عن تنزيل الفرقان على قلب محمد ﷺ منذ الآية الأولى.

٣٦ - تشترك السّورتان في موضوع إنكار المشركين بشريّة الرّسول؛ فقد لقّن الله نبيّه ﷺ في سورة الإسراء أن يقول بعدما اطّلَعَ على مطالبهم التّعجيزيّة: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣]. وجاء بعدها في السّورة ذاتها تسجيل استنكارهم متعجّبين أن يبعث الله بشرًا رسولًا: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤].

أمّا سورة الفرقان فقد جاء فيها موضوع إنكار المشركين بشريّة الرّسول في ثوب سؤال إنكاري تعجّبيّ ألقاه المشركون؛ إذ لم تستسغ

عقولُهم أن يكون الرّسول بشرًا يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق، واقترحوا أن يكون ملكًا منزّلًا من السّماء: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وكأنّي بسورة الفرقان تطرح السّؤال ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ والرّسول يُجيب في سورة الإسراء بعدما تلقّى التأييد والنّصر والتّكريم من ربّه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

٣٧ ـ لمّا اتّهم فرعون موسى عليه السّلام بأنّه مسحور، واجهه موسى في صراحة وشجاعة قائلًا له: إنّك سوف تهلك، وإنّك لمثبور: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٢].

أمّا سورة الفرقان فتحدّثت عن المشركين الذين يبحثون عن الموت يوم القيامة فلا يجدونه، ويدعون على أنفسهم بالثّبور والهلاك فلا يهلكون، ويُقالُ لهم: إنّكم ماكثون، وستخلدون في النّار مُعذّبين مهانين: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣ ـ ١٤].

هذا، ولفظ (ثبور) من المواد المعجميّة القليلة الاستعمال حيث لم يرد هذا اللّفظ إلّا في سورتي الإسراء والفرقان كما مرّ، وورد مرّة واحدة في سورة الانشقاق لدى الحديث عن الذي يُؤتى كتابه من وراء ظهره بأنّه سوف يدعو ثبورًا، ويصلى سعيرًا: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: ١١].

٣٨ - ورد في السّورتين حديث عن إرسال الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ مبشّرًا ونذيرًا. قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال جل شأنه في سورة الفرقان: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٦].

هذا، ولم يرد الحديث بأنّ الله تعالى أرسل رسوله مبشّرًا ونذيرًا بصيغة الحصر والقصر المكوّنة من النّفي والاستثناء (ما . . . .إلا) إلّا في هذين الموضعين من الإسراء والفرقان، وهذا دليل على شدّة التّلاحم بين السّورتين وتشابه ثوبيهما اللّفظيين أيضًا.

٣٩ - جاء في السّورتين حديث عن الله باسمه الرّحمن، الذي حاول المشركون عدم التّعرّف عليه بهذا الاسم، حيث كانوا يقولون: نعرف الله ولكن لا نعرف الرّحمن، فقال لهم القرآن: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وسورة الفرقان أيضا جاء فيها حديث عن الرّحمن في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩﴾ [الفرقان: ٦٠].

٤٠ - في نهاية سورة الإسراء جاء حديث عن تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به جلّ جلاله؛ حيث خوطِب رسول الله ﷺ بأن يحمد ربّه، وأن يشهد بأنّه ليس له شريك في الملك، وليس له وليّ من الذل، وأن يُكبِّره تكبيرًا: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

وفي بداية سورة الفرقان جاء حديث مباشر عن الشّأن نفسه، أي: عن تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به من صفات المخلوقين، وتفرّده بصفات الإلهيّة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ومن جميل الموافقات أنّ آية التّنزيه في سورة الكهف هي آخر آية من السورة، وآية التنزيه في سورة الفرقان هي أوّل آية من السورة.

جدول إحصائي لفواصل سورتي الإسراء والفرقان:

فواصل سورة الإسراء:

الْبَصِيرُ (١) شَكُورًا (٣) كَبِيرًا (٤) مَفْعُولًا (٥) نَفِيرًا (٦) تَتْبِيرًا (٧) حَصِيرًا (٨) كَبِيرًا (٩) أَلِيمًا (١٠) عَجُولًا (١١) تَفْصِيلًا (١٢) مَنْشُورًا (١٣) حَسِيبًا (١٤) رَسُولًا (١٥) تَدْمِيرًا (١٦) بَصِيرًا (١٧) مَدْحُورًا (١٨) مَشْكُورًا (١٩) مَحْظُورًا (٢٠) تَفْضِيلًا (٢١) مَخْذُولًا (٢٢) كَرِيمًا (٢٣) غَفُورًا (٢٥) كَفُورًا (٢٧) مَيْسُورًا (٢٨) مَحْسُورًا (٢٩) بَصِيرًا (٣٠) كَبِيرًا (٣١) سَبِيلًا (٣٢) مَنْصُورًا (٣٣) مَسْئُولًا (٣٤) تَأْوِيلًا (٣٥) مَسْئُولًا (٣٦) طُولًا (٣٧) مَكْرُوهًا (٣٨) مَدْحُورًا (٣٩) عَظِيمًا (٤٠) نُفُورًا (٤١) سَبِيلًا (٤٢) كَبِيرًا (٤٣) غَفُورًا (٤٤) مَسْتُورًا (٤٥) نُفُورًا (٤٦) مَسْحُورًا (٤٧) سَبِيلًا (٤٨) جَدِيدًا (٤٩) حَدِيدًا (٥٠) قَرِيبًا (٥١) قَلِيلًا (٥٢) مُبِينًا (٥٣) وَكِيلًا (٥٤) زَبُورًا (٥٥) تَحْوِيلًا (٥٦) مَحْذُورًا (٥٧) مَسْطُورًا (٥٨) تَخْوِيفًا (٥٩) كَبِيرًا (٦٠) طِينًا (٦١) قَلِيلًا (٦٢) مَوْفُورًا (٦٣) غُرُورًا (٦٤) رَحِيمًا (٦٦) كَفُورًا (٦٧) وَكِيلًا (٦٨) تَبِيعًا (٦٩) تَفْضِيلًا (٧٠) فَتِيلًا (٧١) سَبِيلًا (٧٢) خَلِيلًا (٧٣) قَلِيلًا (٧٤) نَصِيرًا (٧٥) قَلِيلًا (٧٦) تَحْوِيلًا (٧٧) مَشْهُودًا (٧٨) مَحْمُودًا (٧٩) نَصِيرًا (٨٠) زَهُوقًا (٨١) خَسَارًا (٨٢) يَئُوسًا (٨٣) سَبِيلًا (٨٤) قَلِيلًا (٨٥) وَكِيلًا (٨٦) كَبِيرًا (٨٧) ظَهِيرًا (٨٨) كُفُورًا (٨٩)

يَنْبُوعًا (٩٠) تَفْجِيرًا (٩١) قَبِيلًا (٩٢) رَسُولًا (٩٣) رَسُولًا (٩٤) رَسُولًا (٩٥) بَصِيرًا (٩٦) سَعِيرًا (٩٧) جَدِيدًا (٩٨) كُفُورًا (٩٩) قَتُورًا (١٠٠) مَسْحُورًا (١٠١) مَثْبُورًا (١٠٢) جَمِيعًا (١٠٣) لَفِيفًا (١٠٤) وَنَذِيرًا (١٠٥) تَنْزِيلًا (١٠٦) سُجَّدًا (١٠٧) لَمَفْعُولًا (١٠٨) خُشُوعًا (١٠٩) سَبِيلًا (١١٠) تَكْبِيرًا (١١١).

فواصل سورة الفرقان:

نَذِيرًا (١) تَقْدِيرًا (٢) نُشُورًا (٣) وَزُورًا (٤) وَأَصِيلًا (٥) رَحِيمًا (٦) نَذِيرًا (٧) مَسْحُورًا (٨) سَبِيلًا (٩) قُصُورًا (١٠) سَعِيرًا (١١) وَزَفِيرًا (١٢) ثُبُورًا (١٣) كَثِيرًا (١٤) وَمَصِيرًا (١٥) مَسْئُولًا (١٦) السَّبِيلَ (١٧) بُورًا (١٨) كَبِيرًا (١٩) بَصِيرًا (٢٠) كَبِيرًا (٢١) مَحْجُورًا (٢٢) مَنْثُورًا (٢٣) مَقِيلًا (٢٤) تَنْزِيلًا (٢٥) عَسِيرًا (٢٦) سَبِيلًا (٢٧) خَلِيلًا (٢٨) خَذُولًا (٢٩) مَهْجُورًا (٣٠) وَنَصِيرًا (٣١) تَرْتِيلًا (٣٢) تَفْسِيرًا (٣٣) سَبِيلًا (٣٤) وَزِيرًا (٣٥) تَدْمِيرًا (٣٦) أَلِيمًا (٣٧) كَثِيرًا (٣٨) تَتْبِيرًا (٣٩) نُشُورًا (٤٠) رَسُولًا (٤١) سَبِيلًا (٤٢) وَكِيلًا (٤٣) سَبِيلًا (٤٤) دَلِيلًا (٤٥) يَسِيرًا (٤٦) نُشُورًا (٤٧) طَهُورًا (٤٨) كَثِيرًا (٤٩) كُفُورًا (٥٠) نَذِيرًا (٥١) كَبِيرًا (٥٢) مَحْجُورًا (٥٣) قَدِيرًا (٥٤) ظَهِيرًا (٥٥) وَنَذِيرًا (٥٦) سَبِيلًا (٥٧) خَبِيرًا (٥٨) خَبِيرًا (٥٩) نُفُورًا (٦٠) مُنِيرًا (٦١) شُكُورًا (٦٢) سَلَامًا (٦٣) وَقِيَامًا (٦٤) غَرَامًا (٦٥) وَمُقَامًا (٦٦) قَوَامًا (٦٧) أَثَامًا (٦٨) مُهَانًا (٦٩) رَحِيمًا (٧٠) مَتَابًا (٧١) كِرَامًا (٧٢) وَعُمْيَانًا (٧٣) إِمَامًا (٧٤) وَسَلَامًا (٧٥) وَمُقَامًا (٧٦) لِزَامًا (٧٧).

عدد فواصل حرف الراء في سورة الإسراء = ٤٩ فاصلة: النسبة المئوية = ٤٤,١٤.

عدد فواصل حرف اللام في سورة الإسراء = ٣٥. النسبة المئوية = ٣١,٥٣.

عدد فواصل حرف الراء في سورة الفرقان = ٤٣ . النسبة المئوية = ٥٥,٨٤.

عدد فواصل حرف اللام في سورة الفرقان= ١٧ . النسبة المئوية = ٢٢,٠٧.

الملاحظ: أن مجموع نسبتي حرف الراء في فواصل السورتين هو ٩٩,٩٨.

وهي نتيجة دقيقة تدلّ دلالة قاطعة على التكامل بين السورتين في الحرفين البارزين في فواصلهما.

ألا ، فلتتدبّر يا أخي القارئ في هذه الظاهرة العجيبة ، وردّد معي في خشوع: سبحان من أنزل هذا الذكر العظيم بهذا الإحكام الدّقيق!!!

* * *



المَبحَثُ الثّاني

سورتا الكهف والجِنّ

بين يدي سورة الكهف:

تُعَدُّ سورةُ الكهف سورةً فريدةً من نوعها من بين أخواتها المكّيّات والمدنيّات؛ وذلك لاحتوائها على جملة مضامينَ قصصيّةٍ لم يتكَرَّرْ ذِكرُها في القرآن كلّه مثل: قصّة أصحاب الكهف، وقصّة الرّجلين، وقصّة كليم الله موسى عليه السلام مع العبد الصّالح، وقصّة ذي القرنين وطوافه بشرق الأرض وغربها.

وقد ذكر المُفسّرون ورواةُ السّيرة النّبويّة سببًا لنزولها مُفادُهُ أَنَّ جمعًا من القرشيّين التقَوْا بطائفةٍ من أحبار يهود، واستنصحوهم في شأن محمّد ﷺ وأمْر دينه الجديد؛ فنصحهم أحبارُ يهود بأن يسألوه عن ثلاثة أمور ماضية، فإنْ هو أتاهم بخبرها فهو نبيٌّ مُرسَلٌ يأتي بخبر السّماء، وإنْ هو عجزَ عن الإجابة عنها كانَ ذلكَ مِدعاةً لإفحامه والتّشكيك في نُبُوَّته وأمْرِ دينه.

والمسائلُ الثلاثُ هي خبرُ الفِتية الذين ذهبوا في الزّمن الأوّل، وخبرُ الرّجل الطّوّاف، وحقيقةُ الرّوح.

روى ابنُ جرير الطّبري عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بعثَتْ قُريشٌ النَّضرَ بنَ الحارث وعُقبةَ بنَ أبي مُعَيطٍ إلى أحبار يهود

بالمدينة ، فقالوا لهم: سلوهم عن محمّدٍ ، وصِفوا لهم صِفَتَه ، وأخبروهم بقوله؛ فإنّهم أهلُ الكتاب الأوّل ، وعِندهم علمُ ما ليسَ عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتّى قدِما المدينةَ فسألوا أحبارَ يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمرَهُ وبعضَ قوله ، وقالا: إنّكم أهلُ التّوراة ، وقد جِئناكم لِتُخبِرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم أحبارُ يهود: سلوهُ عن ثلاثٍ نأمرُكم بهنَّ ، فإنْ أخبرَكم بهنَّ فهو نبيٌّ مُرسَلٌ ، وإنْ لم يفعلْ فالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ ، فَروا فيه رأيَكم؛ سلوهُ عن فتيةٍ ذهبوا في الدَّهر الأوّل ، ما كان من أمرهم؟ فإنّه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ ، وسلوهُ عن رجلٍ طوّافٍ بلغَ مشارقَ الأرض ومغاربها ما كان نبؤُهُ؟ وسلوهُ عن الرّوح ما هو؟ فإنْ أخبرَكم بذلك فإنّه نبيٌّ فاتَّبِعوه ، وإنْ هو لم يُخْبِرْكم فهو رجلٌ مُتقَوِّلٌ ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم»[1].

ولمّا سألت قريشٌ محمّدًا ﷺ عن الأخبار الثلاثة ، أبدى ﷺ استعدادًا تامًّا للإجابة عن أسئلتهم ، توكُّلًا منه على الله علّام الغيوب ، الذي كان على يقينٍ من أنّه سيُنبِّئُهُ بأنبائها كما أنزل عليه القرآن الكريم ، وعلَّمه من العلوم ما لم يعلم ، ولَمْ يكُنْ يرجو في يومٍ من الأيّام أنْ يكونَ نبيًّا أو رسولًا؛ ولكنَّه ﷺ لمّا أجابهم بأنّه سيُخبِرُهم بأنباء المسائل الثلاث لم يستَثْنِ ، أي: لم يقُلْ إن شاء الله تعالى.

نسِيَ ـ تحت وطأةِ المُفاجأة ـ أن يُسنِدَ الأمرَ لصاحب الأمر والمشيئة المُطلَقة ، وكانَ مُتلهِّفًا للإجابة عن تساؤلاتهم رغبةً في إسلامهم ، واستبشارًا بظُهور دين التّوحيد الذي يدعوهم إليه ، وهنا

---

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج١٥ ، ص ١٤٣.

جاء دورُ التّربيّة الرّبّانيّة ، حيثُ فتَرَ الوحيُ عنه لمُدَّةٍ من الزّمن اختلف المؤرِّخون في ضبطها ، وحتّى تطاولت عليه ألسنةُ السّوء بالاستهزاء والسّخريّة: أينَ إلهُك يا محمد!؟ ، وردّدَ عقلاؤُهم وسُفهاؤُهم في تشَفٍّ وحقدٍ دفينٍ: ودَّعَ محمَّدًا ربُّه!

وبعد فترة الابتلاء والتّمحيص ، جاءه التَّعليمُ الرّبّانيُّ من فوق السّبع الطِّباق يُذكِّرُهُ بأنْ يُسْنِدَ الأمرَ إلى المشيئة المُطلَقَة في جميع أحواله؛ فلا شيءَ يحدُثُ في الأرض ولا في السّماء إلّا أنْ يأذنَ الله تعالى ، ونزل قولهُ جلَّ ثناؤُه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

هذا من حيثُ مناسبةُ نزولها ، أمّا من حيثُ جوُّها العامُّ وثوبُها اللّفظيُّ الذي تُعرَفُ به ، والمضامينُ التي احتوتها ؛ فلها ملامِحُ خاصّةٌ تُميِّزُها عن غيرها ، حتّى إنَّ القارئَ العاديَّ الذي له صُحبةٌ مع آيات القرآن وسُوَره ، إذا سمِعَ آيةً أو مقطعًا من مقاطِعها يتعرَّفُ عليها ، ويستيقِنُ بأنَّ الآيات المَتلُوَّةَ أو المقطع المسموعَ هو من سورة الكهف ، التي تضُمُّ بين مضامينها أغربَ القَصص والأحداث ، غرابةَ الكهف الذي أوى إليه الفِتيةُ فِرارًا بِدينهم من الفِتنة.

وقبل الشّروع في بيان علاقتها بسورة الجن في هذا المقام ، يحسنُ الوقوفُ عند السّؤال الآتي: لماذا يقرأُها المسلمون في كلّ يوم جمعة؟ ما الذي تتضمّنُهُ من حيثُ المحتوى دون غيرها من السّور المكّيّة والمدنيّة؟

يقرأُها المسلمون في كلّ جمعة مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «مَنْ

حفِظَ عشرَ آياتٍ من أوّل سورة الكهف ، عُصِمَ من الدَّجّال»[١] ، وقوله ﷺ في حديثه الذي يتحدّثُ فيه عن فتنة الدّجّال: «إنْ يخرُجْ وأنا فيكم فأنا حجيجُهُ دونكم ، وإن يخرُجْ ولستُ فيكم فامرُؤٌ حجيجُ نفسه ، والله خليفتي على كلّ مسلم ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتِحَ سورة الكهف؛ فإنَّها جِوارُكم من فِتنته»[٢].

والجوابُ عن هذا السّؤال والله أعلمُ بأسرار قرآنه: إنَّ سورةَ الكهف تضمّنت أربع قصص ، كلُّ واحدةٍ منها تُعالِجُ فِتنةً عظيمةً من الفِتن التي تعترِضُ حياةَ كلّ فردٍ في هذه الدّنيا: قِصّةُ فتية الكهف وهي تعرِضُ فِتنةَ العقيدة ومجابهة السّلطان ، وقصّةُ صاحب الجّنّتين وهي تتحدّثُ عن فِتنة المال ، وقِصّةُ موسى عليه السلام مع العبد الصّالح وهي تتناولُ فِتنةَ العِلم ، وقصّةُ ذي القرنين وهي تُعالِجُ فِتنة الأخذ بالأسباب والاغترار بها؛ والمسلم مُطالَبٌ بأن يعتصِمَ بحبل الله تعالى من الفِتن ، وخيرُ ما يقي المسلمَ من الفِتن المُداومةُ على تلاوة الذِّكر الحكيم والمداومة على تدبّره ، وأخَصُّ سور القرآن الكريم المتعلّقة بأهم أنواع الفِتن هي سورة الكهف. هذا ، علاوةً على ما يُستنبَطُ من آياتها الأُخر من التّحذير من فِتنة الشّباب ، وفِتنة العشيرة والأهل ، وفِتنة الولد ، وفتنة إبليس الرّجيم ، وفتنة يأجوج ومأجوج ، وقانا الله وجميع المسلمين منها ومن غيرها.

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه في باب فضل سورة الكهف ، عن أبي الدّرداء رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، من حديث النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه.

بين يدي سورة الجن:

سورة الجِنّ مكيّة باتّفاق أهل العلم بالتّنزيل. هي السورة الأربعون في تعداد النّزول بعد سورة الأعراف وقبل سورة (يس). أمّا في المصحف الشّريف فهي بعد سورة نوح وقبل سورة المزّمّل، وعدد آياتها ثمان وعشرون آية.

موضوعها العام هو الحديث عن طائفة من الجنّ الذين استمعوا القرآن وآمنوا، والجِنّ جنس مخالف لجنس البشر. مخلوقات لطيفة، لا تُرى بالأبصار، لها خصائص وشؤون تختلف عن خصائص البشر وشؤونهم. والسّورة تتحدّث عن نفرٍ منهم ساقهم الله تعالى في جهة تهامة في جزيرة العرب، فاستمعوا إلى طائفة من قراءة الرّسول ﷺ للقرآن الكريم، فعلموا أنّه الحقّ من ربّهم، وانصرفوا إلى قومهم منذرين: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وفي إخبار القرآن بنبإ استماعهم للقرآن وتعجّبهم منه، وإيمانهم به، وعودتهم إلى قومهم منذرين معلّمين تنويهٌ بالرّسالة المحمّديّة، وتنويهٌ بالرّسول ﷺ، وإيذان بأنّ رسالته موجّهة للبشر جميعًا وللجنّ، فهي عامّة وعظيمة وخاتمة.

وفي السّورة بيان لبعض خصائص عالم الجِن، مثل إيضاح أنّ منهم الصّالحين وغير الصالحين، وبأنّهم كانوا في سالف أمورهم منقسمين طرائق قِددًا، وأنّهم لا يعلمون الغيب، وأنّهم لمّا أرادوا أن يُلقوا السّمع في عهد بعثة محمد ﷺ حيل بينهم وبين خبر السّماء حفاظًا على نزاهة

الوحي، ووقاية له من أن يتداولوه بينهم وبين رجال الكهنوت الذين يُضلّونهم. وجاء فيها أيضًا بيان أنّهم مُكلّفون، ومثابون ومعاقَبون، ولا يملكون لأحد نفعًا ولا ضرًّا، وأنهم خاضعون لقضاء الله وقدره.

كما جاء في سورة الجن حديث عن بعض السّنن التي لا تتخلّف مثل سنّة الاستقامة على الطّريقة المستقيمة، فإنّ مُتّبعيها يصلون إلى حميد العاقبة وعظيم المآل في الدنيا والآخرة.

المقارنة بين سورتي الكهف والجن:

درج البيانُ القرآنيُّ على ذِكر بعض الاتّهامات أو القضايا في سورة، ويذكُرُ الجوابَ أو التّفنيد الخاصَّ بها في سورةٍ أخرى، حتّى إنَّ القارئَ الذّكيّ ليشعُرُ أنَّ هذه الآيةَ هي جواب عن تلك، وأنَّ هذه الآيةَ تُجيبُ عن ذلك السّؤال أو توضح تلك القضيّة، وتقطعُ الأمرَ في شأنها، من ذلك أنَّ المُشركين اتّهموا رسول الله ﷺ بالجنون في مواضع من الذِّكر، أحيانا بنَعْته بصفة (مجنون) في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، وأحيانًا أُخرَ بعبارة (به جِنّة): ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، وقوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

وقد رَدّ القرآنُ اتّهاماتهم، وفنَّدَ مقولاتهم ومفترياتهم في آيات منها: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

واتّهموه ﷺ بأنّه شاعرٌ: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠]، وأنَّ ما أتى به هو من قبيل الشّعر، فردَّ الله جلّ شأنه عليهم، وفنّد أقاويلهم بنفي الشّعر عنه: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة: ٤١]، وقوله: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩]، ومثل ذلك كثير.

ومن هذا القبيل، نجد الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٩]؛ فهذا السّؤال بقي بدون جواب، وفي سَوْق هذا المعنى بهذا الثوب الاستفهامي ﴿ أَمْ حَسِبْتَ... ﴾ إيماء إلى أنّ القرآن لا يوافق على أنّ قصّة أصحاب الكهف هي أعجب القصص كما كان يرى أحبارُ يهود.

إذن فما العجب؟ وأين يكمنُ هذا العجب؟

حاول ابن الزُّبير الغرناطي الإجابة عن هذا السؤال ببيان أَنَّ جواب الاستفهام الإنكاري الذي ورد في فاتحة الكهف ﴿ أَمْ حَسِبْتَ... ﴾ تضمّنته فاتحةُ سورة مريم؛ فالعَجبُ ليسَ في قصّة فِتية الكهف الذين أنامهم الله جلّ جلالُه فترةً طويلةً من الزّمن، وإنّما العَجبُ في ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ وما تضمّنته من قَصَصٍ غريبٍ عجيب؛ ففي قصّة زكريّا عليه السلام، وزوجه العجوز العاقر، وولادة يحيي عليه السلام أمرٌ عجبٌ، وفي مولد عيسى عليه السّلام من أُمٍّ دون أبٍ، وفي تكليمه النّاسَ صبيًّا كثيرٌ من العَجَب!!.

قال ابن الزّبير الغرناطي: «لمّا قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ

﴿ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، ثم أورد خبرهم وخبر الرّجلين وموسى والخضر وقصّة ذي القرنين، أتبع سبحانه ذلك بقصصٍ تضمّنت من العجائب ما هو أشدّ عجبًا وأخفى سببًا، فافتتح سورة مريم بقصّة يحيى بن زكريّا، وبشارة زكريّا به بعد الشيخوخة وقطع الرّجاء وعُقر الزّوج حتّى سأل زكريّا مستفهمًا مُتعجّبًا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، فأجابه تعالى بأنّ ذلك عليه هيّنٌ، وأنّه يجعل ذلك آية للنّاس.

وأمرُ هذا أعجب من القصص المتقدّمة، فكأنْ قد قيل: أم حسبت يا محمد أنّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجبًا، نحن نُخبرُك بخبرهم، ونُخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آيةً، وهو قصّة زكريّا في ابنه يحيى عليه السّلام، وقصّة عيسى في كينونته بغير أب، ليعلم أنّ الأسباب في الحقيقة لا يتوقّفُ عليها شيء من مسبّباتها إلا بحسب سنّة الله، وإنّما الفعل له سبحانه لا للسّبب»(١).

قلتُ: هو رأيٌ عظيمٌ، ومَسلَكٌ وجيهٌ في إيجاد المناسبة بين السّورتين، وقد تبِعَه في ذلك مَن تبِعَه مِمّن عُنُوا بإيجاد المناسبات بين الآيات والسّور من أمثال الإمام البِقاعي وغيره.

ولكن ثمّة مهيعٌ آخرُ للوقوف على الجواب الصّحيح، وهو مسلَكٌ دقيقٌ في النَّظر في العَجَب المُستَفْهَم عنه في سورة الكهف. فإذا كانت آيةُ الكهف أنكرَتْ في سياقٍ استفهاميٍّ أن تكونَ قصّةُ فِتية الكهف عجبًا؛ فإنَّ الجنَّ في مَطلَع سورة الجنّ أثبتوا العَجَبَ لهذا القرآن

(١) ابن الزبير الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص ١٢٨.

العظيم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]؛ فهذا قولُ طائفة الجِنّ الذين أسلموا حين حضروا تلاوة الرّسول ﷺ القرآنَ في أرض تُدعى (نخلة) غِبَّ مرجعه من الطّائف في صلاة الفجر(١) حيثُ شهِدوا هذه الشّهادةَ العظيمة ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، وقد أقرَّهم القرآنُ على ذلك بدليل أنَّ هذه الشّهادة جاء ذِكرُها في سياق تقريريّ يحكي ما قاله الجِنّ، وبدليل قول النّبيّ ﷺ يومَ تلا سورة الرّحمن على أصحابه، وكانوا سُكوتًا؛ حيثُ إنَّه قال لهم: «لقدْ قرأتُها على الجِنّ ليلةَ الجِنّ، فكانوا أحسنَ مردودًا منكم، كنتُ كلّما أتيتُ على قوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيءٍ من نِعمِك ربَّنا نُكذِّبُ فَلَك الحمدُ»(٢).

فهذا إقرارٌ من النّبيّ ﷺ، وشهادةٌ منه أَنَّ الجِنَّ كانوا أكثرَ تفاعلًا مع القرآن، وكانوا أعرفَ بما يحويه ويتضمَّنه من أسرار وحِكَم.

قد يسألُ سائلٌ: ما العلاقةُ التي تربِطُ بين سورة الجِنّ وسورة الكهف حتّى نربط هذا الرّبط، والمسافةُ بينهما واسعة؛ فالكهفُ من المئين، وهي في وسط القرآن؛ فهي السّورةُ المُكمِّلةُ للجزء الخامس عشر، والجِنُّ من المُفصّل، وهيِ صدرُ الحزب الثامن والخمسين؟ كذلك لا شيءَ يدلُّ في فاتحة كلٍّ منهما على شيءٍ من التّشابه أو التّقارب؛ فالكهفُ افتُتِحَت بقوله: (الحمد لله)، والجِنُّ مطلَعُها (قلْ أوحي...).

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٣، ص٣١٠، وانظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢١، ص ٢٧٣.

(٢) رواه التّرمذي (٣٢٩١)، وقال: حديث غريب.

وهذا التّساؤُلُ بدَوْره وجيهٌ مِمَّنْ يتدبَّرُ في الذِّكر الحكيم ، والإجابةُ بعون الله كالآتي:

سبق أن أسلفتُ في مقدِّمة هذا الفصل أنّ الزاوية التي نريد النّظر من خلالها هي زواية تشابه الفواصل في السّور المختلفة ، والبحث التّدبّريّ في سورتي الكهف والجنّ قد دلّ على أنّ بين السّورتين رِباطًا متينًا يجمعهما ، وأنّ ثمّة خصائصَ تُوَحِّدُهما ، وملامِحَ تُميِّزُهما ، تقود إلى الاستنتاج الذي مُفادُهُ أنّهما تصدُران من معينٍ واحد ، وتتفتَّقُ أكمامُهما من نسيجٍ واحد.

وفيما يأتي بيان لهذه (الدّعوى المفترضة) إلى أن تستقرّ في ذهن كل قارئ لتتحوّل بعد ذلك إلى حقيقة كما هي في ذهن كاتب هذه الكلمات الآن:

١ - الثّوبُ اللّفظيُّ الخاصّ بالإيقاع الصّوتي والفواصل لسورة الجِنِّ مُشابهٌ إلى حدٍّ كبيرٍ للثَّوب اللّفظي لسورة الكهف، على ما بسورة الكهف من طولٍ ، وما بسورة الجِنّ من قِصَرٍ؛ حيث يغلب على سورة الجنّ فاصلة الدّال المفتوحة المنوّنة في آخرها (أَحَدًا ، وَلَدًا ، أَحَدًا ، رَصَدًا ، رَشَدًا ، قِدَدًا. . . . .) حيث تكرّرت هذه الفاصلة تسع عشرة مرّة من إجمالي عدد فواصلها الذي يقدّر بـثمان وعشرين.

والأمر ذاته في سورة الكهف ، حيث يبلغ عدد الفواصل التي تنتهي بالدّال المفتوحة المنوّنة ٢٩ فاصلة من إجمالي عدد فواصلها الذي يبلغ ١١٠ فاصلة.

٢ - ذكر القرآنُ على لسان الجِنّ أنَّ القرآنَ يهدي إلى الرُّشد: ﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ ، وقد تكرَّرَت مادة (رشد) في سورة الجنّ أربع مرّات:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠].

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٤].

﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ [الجن: ٢١].

وهذا العدد ذاته (٤) هو الذي حفلَت به سورة الكهف من مادّة (رشد):

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠].

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧].

﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٤].

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦].

عِلمًا بأنَّ الجنَّ أنفُسَهم قال بعضُهم لبعضٍ في سورة الأحقاف بأنَّهم سمعوا كتابًا أُنزِلَ من بعد موسى يهدي إلى الحقّ: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وهذا أيضًا من التّناسق اللّفظي في سورة الأحقاف التي تُعَدُّ كلمةُ (الحقّ) أيقونةً من أيقوناتها اللّفظيّة بتكرُّرها ٦ مرّات في مشاهد مختلفة.

فانظر، يا رعاك الله، كيف تمّت مراعاةُ الاتّساق اللّفظي في كلّ سورة، حيثُ جاء على لسان الجنّ في الأحقاف ما يتناسقُ مع ثوبها اللّفظي الذي من مُكوِّناته لفظ (الحقّ)، وجاء على لسانهم في سورة

الجِنّ بأنَّ القرآن يهدي إلى الرّشد ، وذلك أيضًا يتناسقُ وينسجمُ مع الثّوب اللّفظي لسورة الجِنّ الذي من مُكوِّناته الأساسية لفظ (الرّشد) ، وتدبّرْ أيضًا في التّشابه في توظيف مادة (رشد) أربع مرّات في السّورتين كلتيهما.

٣ - قرَّرَ الجِنُّ في مطلَع سورة الجِنّ بعدما سمعوا الذِّكرَ أنَّهم لن يُشرِكوا بربِّهم أحدًا: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ٢] ، وجاء في السورة ذاتها تعليمٌ لرسول الله ﷺ وحثٌّ له بأن يقول: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الجن: ٢٠].

والأمرُ ذاتهُ جاء تقريرُهُ في سورة الكهف بالقالب اللّفظيّ ذاته؛ حيثُ تبرَّأ الفِتيةُ الذين اعتزلوا قومهم من الشّرك وأهله ، وقالوا: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] ، وقال الرّجلُ المؤمن لصاحبه وهو يُحاوِرُهُ ناصِحًا ومُرْشِدًا: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٣٨] ، وقد صوَّرَ البيانُ القرآنيُّ ندمَ صاحب الجنّتين الكافر الذي اغترَّ بماله وسلطانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢] ، ثُمَّ جاء ختامُ السّورة يُوَجِّهُ كلَّ مؤمنٍ بالله واليوم الآخر بأن يعملَ عملًا صالحًا ولا يُشرك بعبادة ربّه أحدًا: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

٤ - جاء في مطلع سورة الكهف بأَنَّ الإنذارَ بالقرآن مُوَجَّهٌ للذين قالوا اتّخذ الله ولدًا ، وهو قولٌ كذبٌ واختلاقٌ لا يصدرُ إلّا عن جهلٍ مُطبِقٍ بحقائق الأمور: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ [الكهف: ٤].

أمّا سورةُ الجِنِّ ، فقد جاء فيها تقريرٌ على ألسنة الجِنّ بأَنَّ الله جلّ

ثناؤه لم يتَّخِذْ صاحبةً ولا ولدًا: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]؛ فالجِنُّ المُؤمنُ المسلمُ يُنزِّهُ الله تعالى عن الشّريك، والإنسُ الكافرُ يُشرِكُ وينسبُ الأقوالَ الباطلةَ إلى الله تعالى.

٥ ـ جاء توظيفُ المصدر (شططًا) في السّورتين فقط، ولم يَرِدْ في غير هذين الموضعين من القرآن كلّه. هذا، وقد جاء توظيفُهُ بالصّيغة نفسها في الموضعين حيثُ جاء استعمالُه في حالة النّصب على المفعولية:

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٤].

والشّططُ لغةً: «الإفراطُ في البُعْد، يُقالُ: شطّت الدّارُ، وأشطَّ يُقالُ في المكان وفي الحُكم وفي السّوم، وعُبِّرَ بالشَّطط عن الجَوْر، قال: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]، أي: قولًا بعيدًا عن الحقِّ»[(١)].

٦ ـ جاء في مطلع سورة الكهف وَصْمُ المُشركين الذين قالوا اتّخذ الله ولدًا بأنّهم يكذبون: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وجاء على ألسنة الفِتية أنفسهم وعيدٌ شديدٌ للذين يفترون على الله الكذب: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

والحديثُ ذاتُه تكرّرَ عند الجنّ الذين آمنوا، حيثُ إنّهم كانوا يستبعدون أن يفتريَ الإنسُ والجِنُّ على ربّهم الكذب: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٥].

---

(١) الراغب، المفردات، مادة شطط.

والموقعُ الإعرابيُّ ذاته ألبسه البيانُ القرآنيّ لكلمة (كذِبًا) حيثُ جاءت منصوبةً على المفعولية في الآيات الثلاث.

وأيضًا يظهرُ من المسألة نفسها مزيّةُ الجنّ على الإنس؛ فالإنسُ خاضَ كثيرٌ منهم في حمأة الشّرك الآسنة، ومُستنقعات القول بالباطل على الله تعالى، أمّا الجِنُّ المسلمُ فظنّوا ببراءتهم أنَّ الإنسَ والجِنَّ لا يُمكنُ أن يصدُرَ منهم كذبٌ على الله تعالى.

٧ - جاء في سورة الكهف توظيفُ الفعل (رهق) في موضعين: في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]، وفي قوله جلّ ثناؤُه: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

قال الإمام البغويّ في معرض شرحه معنى الإرهاق في قوله ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾: «لا تُكلّفني مشقّةً. يقال: أرهقتُه عسرًا، أي: كلّفته ذلك. يقول: لا تُضيّق عليّ أمري، وعاملني باليُسر ولا تعاملني بالعسر» (١).

والمادّةُ ذاتُها تكرّرت مرّتين في سورة الجِنّ، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، وفي قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجنّ: ١٣].

وهذا دليلٌ آخرُ يدلُّ على ما بين السّورتين من تجاذب وتوافقٍ في المواد اللّفظية المستعملة، وهو يقودُ بدوره إلى الحكم بتشابه ثوبيهما اللّفظيين.

---

(١) البغوي، معالم التنزيل، ج٥، ص ١٩٠.

٨ - جاء في سورة الكهف توظيفُ كلمة (ملتحدًا) مع الفعل (وجد)، والتّعبيرُ ذاتُه تكرّر في سورة الجنّ:

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧].

﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٢].

وفي الآيتين أمرٌ مُوَجَّهٌ لرسول الله ﷺ، في الكهف أمره أن يتلوَ الكتاب، وأعلمه أنَّه لن يَجِدَ من دون ربّه مُلتحَدًا أي: ملجأً يلجأُ إليه سواه، أو ملاذًا يلوذُ به إلّا هو، وفي سورة الجنّ أمرَه أن يقولَ وأن يُعلِنَ للناس بأنَّه يلجأُ إلى ربّه في كلّ أمره وشأنه؛ فلن يُجيرَهُ من الله أحدٌ، ولن يجدَ ملجأً ولا مُلتَحدًا من دونه.

وفعلًا أعلنَ الرّسولُ ﷺ براءته من كلّ حولٍ ومن كلّ جهة، وأعلنَ بوضوحٍ دعوته، وصدع باعتقاده الصّحيح في وجه الزّمان والمكان جهارًا نهارًا: «فلا ملجأ ولا منجى منك إلّا إليك». كان يقولُها حين يلقي جنبه للنّوم، وكان يُردِّدها في كلّ آنٍ وحين.

اللّافتُ للانتباه في هاتين الآيتين توافقُهما في جملةٍ من النّقاط:

أ - ابتداء الآيتين بفعل في صيغة الأمر: (اتلُ)، و(قُلْ).

ب - استعمال أداة النّفي المفيدة للتأبيد في أحد أقوال النّحاة: (لنْ): لن تجِد، ولن أجد.

ج - استعمال الفعل (وجد) في المضارع: لن تجد، ولن أجد.

د - توظيف اسم المفعول (ملتحدًا) في صيغة النّصب على المفعوليّة في الآيتين: ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾.

كلّ هذه الرّوابط اللّفظية في حقيقة الأمر هي مؤشّراتٌ دقيقة وقاطعةٌ بأنَّ هذه السورة من تلك ، وأنَّ بين السّورتين نسبًا يجمعهما ، وسرًّا يُوحِّدُهما ، خصوصًا حين يعلمُ الباحثُ المُتدبّرُ أنَّ لفظ (ملتحدًا) لم يتكرّر في القرآن كلّه إلا في هذين الموضعين.

٩ - جاء في سورة الكهف توظيفُ لفظ (أحدًا) وإيقاعه مفعولًا به في ثمانية مواضع ، وجاء الاستعمالُ نفسُه في سورة الجنّ في خمسة مواضع ، وهذا أيضًا من النّسيج اللّفظي المتشابه بين السّورتين:

جاء في سورة الكهف:

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨].

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وجاء في سورة الجن:

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢].

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ٧].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠].

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

وإذا علمت، أخي القارئ، أنَّ لفظ (أحدًا) في حالة النّصب تكرَّرَ في القرآن كلّه عشرين مرّة، ١٣ منها في سورتي الكهف، والجنّ؛ علمت مدى التّشابه، والتّجاذب بين السّورتين في ثوبيهما اللّفظيين، وفي نسيجيْهما اللّغويين، ولا يسعُ القارئَ اللّبيبَ وهو يرى هذا التّشابُهَ العجيبَ في الاستعمال إلّا أن يُردِّدَ في يقينٍ وخشوع: إنَّ وراءَ الأكمة ما وراءها، وإنَّ بين السّورتين لأمرًا.

١٠ ـ جاء في مطلَع سورة الكهف ذِكرُ رسول الله ﷺ بصفة العُبُوديّة: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾ [الكهف: ١]، وبالصّفة ذاتها جاء ذِكرُهُ في سورة الجن: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩].

والصّفتان مستعملتان في مقام الثّناء عليه ﷺ؛ فالعبودية مقامٌ عظيمٌ عند الله تعالى، ولا يقومُ بحقّها إلّا عباد الله الصّادقون المُخلِصون، والأخيارُ المُصْطَفَون.

١١ ـ جاء في سورة الكهف حديثٌ عن الذين يُنكِرون البعثَ، وتكرَّرَت فيها مادّة (بعث) في مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴾ [الكهف: ١٢]، وقوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

أمّا في سورة الجنّ، فقد أنكرَ الجنُّ على إخوانهم الذين ظنّوا أن لن يبعثَ الله أحدًا: ﴿ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾ [الجن: ٧].

١٢ - ذكر الله تعالى في سورة الكهف أنَّ كثيرًا من النّاس امتنعوا عن الإيمان بالهُدى، الذي جاءهم من الله تعالى، بحُجّة أنّهم كانوا يرغبون في رؤية خوارقَ مُعجزة، وآياتٍ كونية تَقْسِرُهم على الإيمان قسْرًا؛ فبيّنَ الله تعالى أنَّ المجيءَ بالآيات لا يسوق النّاس إلى الإيمان سوقًا اضطراريًّا، وأنَّ الرُّسل يبعثُهم الله مبشّرين ومنذرين، وليست وظيفتُهم أن يأتوهم بالعذاب قبلًا: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]، وجاء في السورة ذاتها وصفهم بعدم الاهتداء؛ فإنّك إذا دعوتَهم ازدادوا نفورًا وإعراضًا عن الحق: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

أمّا الجِنُّ، فإنَّهم لمّا سمِعوا الهدى آمنوا به واستجابوا لداعي الهدى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، وجاء في سورة الأحقاف على لسان الجنّ الذين حضروا قراءة القرآن واستمعوا له: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

١٣ - والدّليلُ القاطع الذي لا يدعُ مجالًا لمتحدّثٍ، ويقطعُ قولَ كلّ خطيب، ويُجهِزُ على شكّ كلّ مريب في أنَّ ما جاء ذِكرُهُ في سورة الجِنّ، هو جوابُ ما جاء التّساؤلُ عنه في سورة الكهف، علاوةً على ما سبق ذكره، هو أنَّ قصّةَ آدمَ وإبليسَ تكرَّرَ ذِكرُها في القرآن الكريم في سبعة مواضع: في البقرة، والأعراف، والحِجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص.

يتشابَهُ عرضُها في الجملة، ولكن يتميَّزُ كلُّ عرضٍ بخصائص ومميّزات السّورة التي جاء عرضُهُ فيها، ومِمّا يخدمُ القضيةَ التي نحنُ

بصددها أنَّ إبليس جاء ذِكرُه في كلّ سياقٍ بأنَّه أبى أن يكون مع الساجدين ، أو أنّه كفر واستكبر وكان من الكافرين ، أو أنّه لم يكن من السّاجدين ، وقد جاء ذِكرُه في كل مشهد باسمه العلَم (إبليس) دون إشارةٍ إلى جنسه: أهُوَ من طائفة الجِنّ ، أم من الملائكة ، أم من الإنس؟

أمّا في سورة الكهف ، فقد جاء ذِكرُه بأنَّه من طائفة الجِنّ ، وفي هذا لفتٌ يكادُ يكونُ صريحًا إلى ضرورة الانتباه إلى سورة الجِنّ التي ينتمي إليها إبليسُ ، والتّدبّر في معاني آياتها ، ففيها الجوابُ الشّافي للعجب الذي جاء الحديثُ عنه في صيغة استفهامٍ إنكاريّ في سورة الكهف ، والله أعلم بأسرار تنزيله.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١].

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣٠ ـ ٣١].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ [طه: ١١٦].

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص: ٧٣ ـ ٧٤].

مِمّا سبق ذكرُه، يتبيّنُ لكلّ ذي عقلٍ حصيفٍ، ولبّ رشيد، أنّ سور القرآن يُوضِحُ بعضُها بعضًا، وأنّ آياته يُفسّرُ بعضُها بعضًا أيضًا، وأنّ نسيجَ سورة الجِنّ هو من جنس نسيج سورة الكهف؛ حيثُ إنَّهما تتشابهان في كثيرٍ من الاستعمالات اللفظيّة، وتتميّزان بذكر ألفاظٍ لم ترِدْ في غيرهما مثل (شططًا، ملتحدًا)، والمؤشّر الذي دعانا إلى إجراء هذه المقارنة بين النسيجين اللغويين للسّورتين هو تشابه فواصلهما وإيقاعهما الصّوتي، وهذا الأسلوبُ من المقارنة هو عينُ طريقة تفسير القرآن بالقرآن التي دعا إليها المفسّرون، وجعلوها في التّرتيب الأوّل في قائمة الوسائل والأساليب التي يتمُّ بها تفسير القرآن الكريم.

فواصل سورة الكهف:

عِوَجَا (١) حَسَنًا (٢) أَبَدًا (٣) وَلَدًا (٤) كَذِبًا (٥) أَسَفًا (٦) عَمَلًا (٧) جُرُزًا (٨) عَجَبًا (٩) رَشَدًا (١٠) عَدَدًا (١١) أَمَدًا (١٢) هُدًى (١٣) شَطَطًا (١٤) كَذِبًا (١٥) مِرْفَقًا (١٦) مُرْشِدًا (١٧) رُعْبًا (١٨) أَحَدًا (١٩) أَبَدًا (٢٠) مَسْجِدًا (٢١) أَحَدًا (٢٢) غَدًا (٢٣) رَشَدًا (٢٤) تِسْعًا (٢٥) أَحَدًا (٢٦) مُلْتَحَدًا (٢٧) فُرُطًا (٢٨) مُرْتَفَقًا (٢٩) عَمَلًا (٣٠) مُرْتَفَقًا (٣١) زَرْعًا (٣٢) نَهَرًا (٣٣) نَفَرًا (٣٤) أَبَدًا (٣٥) مُنْقَلَبًا (٣٦) رَجُلًا (٣٧) أَحَدًا (٣٨) وَوَلَدًا (٣٩) زَلَقًا (٤٠) طَلَبًا (٤١) أَحَدًا (٤٢) عُقْبًا (٤٤) مُقْتَدِرًا (٤٥) أَمَلًا (٤٦) أَحَدًا (٤٧) مَوْعِدًا (٤٨) أَحَدًا (٤٩) بَدَلًا (٥٠) عَضُدًا (٥١) مَوْبِقًا (٥٢) مَصْرِفًا (٥٣) جَدَلًا (٥٤) قُبُلًا (٥٥) هُزُوًا (٥٦) أَبَدًا (٥٧) مَوْئِلًا (٥٨) مَوْعِدًا (٥٩)

حُقُبًا (٦٠) سَرَبًا (٦١) نَصبًا (٦٢) عَجَبًا (٦٣) قَصَصًا (٦٤) عِلْمًا (٦٥) رُشْدًا (٦٦) صَبْرًا (٦٧) خُبْرًا (٦٨) أَمْرًا (٦٩) ذِكْرًا (٧٠) إِمْرًا (٧١) صَبْرًا (٧٢) عُسْرًا (٧٣) نُكْرًا (٧٤) صَبْرًا (٧٥) عُذْرًا (٧٦) أَجْرًا (٧٧) صَبْرًا (٧٨) غَصْبًا (٧٩) وَكُفْرًا (٨٠) رُحْمًا (٨١) صَبْرًا (٨٢) وذِكْرًا (٨٣) سَبَبًا (٨٤) سَبَبًا (٨٥) حُسْنًا (٨٦) نُكْرًا (٨٧) يُسْرًا (٨٨) سَبَبًا (٨٩) سِتْرًا (٩٠) خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) قَوْلًا (٩٣) سَدًّا (٩٤) رَدْمًا (٩٥) قِطْرًا (٩٦) نَقْبًا (٩٧) حَقًّا (٩٨) جَمْعًا (٩٩) عَرْضًا (١٠٠) سَمْعًا (١٠١) نُزُلًا (١٠٢) أَعْمَالًا (١٠٣) صُنْعًا (١٠٤) وَزْنًا (١٠٥) هُزُوًا (١٠٦) نُزُلًا (١٠٧) حِوَلًا (١٠٨) مَدَدًا (١٠٩) أَحَدًا (١١٠).

فواصل سورة الجن:

عَجَبًا (١) أَحَدًا (٢) وَلَدًا (٣) شَطَطًا (٤) كَذِبًا (٥) رَهَقًا (٦) أَحَدًا (٧) وَشُهُبًا (٨) رَصَدًا (٩) رَشَدًا (١٠) قِدَدًا (١١) هَرَبًا (١٢) رَهَقًا (١٣) رَشَدًا (١٤) حَطَبًا (١٥) غَدَقًا (١٦) صَعَدًا (١٧) أَحَدًا (١٨) لِبَدًا (١٩) أَحَدًا (٢٠) رَشَدًا (٢١) مُلْتَحَدًا (٢٢) أَبَدًا (٢٣) عَدَدًا (٢٤) أَمَدًا (٢٥) أَحَدًا (٢٦) رَصَدًا (٢٧) عَدَدًا (٢٨).

مما سبق يتبيّن ما يأتي:

عدد فواصل حرف الدال في سورة الكهف = ٢٩. النسبة المئوية = ٢٦,٣٦.

عدد فواصل حرف الدال في سورة الجن = ١٩. النسبة المئوية = ٦٧,٨٥.

مجموع نسبتي الفاصلتين في السورتين = ٩٤,٢١ ، وهذا يدل على أنّ حرف الدال هو الغالب في السورتين ، ويدل أيضا على

تكامل السورتين في مبناهما اللفظي ، وفي معانيهما ودلالاتهما كما تمّ إيضاحه ، والله تعالى أعلم.

* * *



المَبحَث الثَّالِث

سور (طه، والنّجم، والأعلى، واللّيل، والضّحى)

في هذا المبحث سيتم عرض أوجه التّقاطع والتّشابه ، التي تجمع بين أفراد أسرة جديدة من السّور القرآنيّة تتشابه في أغلب فواصلها ، وهي أسرة (طه) وأخواتها من ذوات الألف المقصورة اللّيّنة ، أي: سور النّجم ، والأعلى ، واللّيل ، والضّحى.

وقبل الشّروع في بيان أوجه التّشابه والتّكامل بين الأثواب اللّفظيّة لهذه السّور ، يحسن تقديم **ملخص موجز لكل سورة يُبرِزُ محورها وأهم الأغراض التي تعالجها**.

سورة طه:

.. سورة مكّيّة في قول جمهور المفسّرين. هي السّورة الخامسة والأربعون في تعداد النّزول ، بعد سورة بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة ، وهي السّورة العشرون في ترتيب المصحف بعد سورة مريم وقبل سورة الأنبياء.

.. وقد ذكر ابن إسحاق في سيرته ، والإمام الدّارقطني وغيرهما ، أنّ سورة طه كانت سببا في إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. جاء في سيرة ابن هشام: «خرج عمرُ متقلّدًا بسيف. فقيل له: إنّ ختنك وأختك قد صبوا ، فأتاهما عمرُ وعندهما خبّابُ بن الأرتّ

رضي الله عنه يُقرئهما سورة (طه)، فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه؟ فقالت له أخته: إنّك رِجس، ولا يمسّه إلّا المطهّرون، فقم فاغتسل أو توضّأ. فقام عمرُ وتوضّأ وأخذ الكتاب فقرأ (طه)؛ فلمّا قرأ صدرًا منها قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمه»[١].

.. محورها العام هو تسلية رسول الله ﷺ ومواساته فيما يلاقيه من شدائد، وما يُكابد من مشقّات في طريق الدّعوة إلى عقيدة الإسلام. ولأنّ دعوة موسى عليه السلام هي أشبه الدّعوات بما جاء به محمد ﷺ، جاء في سورة طه ـ كما ورد في سور أخرى ـ مشاهد من قصّة موسى عليه السّلام تخدم موضوع تثبيت الرّسول وتأييده، وبيان حفظ الله تعالى له ورعايته، وصنعه وتربيته على عينيه جلّ ثناؤه، وبأنّه أرسله في هذه الدّنيا محمّلًا بهذه الرّسالة لا ليشقى، وإنّما ليسعد هو ومن اتّبعه على صراط الله المستقيم، القائم على التّوحيد والعبادة الحقّة لله الواحد الدّيّان.

هذا، وقد جاء فيها ذكرُ جملة من المواضيع التي تخدم محورها العام المتمثل في نصرة الرّسول ﷺ وتثبيته، وبيان أنّ دين الإسلام هو دين الهدى الذي لا يضلّ من اتّبعه، وأنّ القرآن هو وحي الله المنزّل على قلب محمد ﷺ، وأنّه تنزيل عظيم، وذكرٌ حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجاء فيها أيضا حديث عن بعض مشاهد يوم القيامة بما يتّفق مع جوّها العام، ويتّسق مع ثوبها اللّفظي.

سورة النّجم:

سورة (النّجم) مكّيّة في الرّاجح من أقوال علماء التّنزيل، بل هي أوّل سورة، كما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أعلنها

(١) .. ابن هشام، السيرة النّبويّة، ج١، ص ٣٤٢ وما بعدها.

رسول الله ﷺ بمكّة وصدع بها في فناء الكعبة ، وكبراء قريش يستمعون لتلاوته ، حتّى إذا بلغ موضع السجود منها سجد ، وسجد معه المؤمنون ، وسجد المشركون[١].

.. هي السّورة الثالثة والعشرون في تعداد النّزول بعد سورة الإخلاص وقبل سورة عبس. والمحور العام الذي تعالجه هو إثبات نبوّة محمّد ﷺ ، وبأنّ القرآن الكريم وحيٌ يُوحى. ويندرج تحت مظلّة هذا المحور موضوع التّوحيد ، وموضوع إبطال إلهيّة الأصنام التي يعبدونها ويدعونها من دون الله تعالى ، وذِكْرٌ لعواقب نماذج من الأقوام السابقين الذين كفروا بالله ، وكذّبوا رسله ، وآذوهم وازدجروهم ، فكانت نهاياتهم متشابهة ، وغشيهم من العذاب ما غشيهم.

سورة الأعلى:

سورة الأعلى مكيّة ، وهي الثامنة نزولًا بعد سورة التّكوير ، وقبل سورة اللّيل. هي الوحيدة من المُسبّحات التي افتتحها الباري بفعل الأمر: سبّحْ. يدور محورها العام حول توحيد الله تعالى وتنزيهه عمّا لا يليق بجلاله وعظمته ، وبيان تفرّده بالخلق والإبداع وهداية كل ما خلق إلى وظيفته في هذه الدنيا. وأيضًا تناولت جانبًا من قضيّة إثبات نبوّة محمد ﷺ ، وتعليمه القرآن الكريم ، ووعده بأنّ الله سيجمعه في قلبه فلا ينساه ، وحثّ النّاس على الإيمان بالله تعالى ، والاتّعاظ والتّذكّر بالهدى الرّبّاني الذي جاءهم من الله تعالى لعلّهم يخشون ويُفلحون.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ، ج١٧ ، ص ٨١.

سورة اللّيل:

تُعَدُّ سورة الليل مكيّةً في قول جمهور أهل العلم، وهي التاسعة نزولًا بعد سورة الأعلى وقبل سورة الفجر. وهي الثانية والتّسعون في ترتيب المصحف بعد سورة الشّمس وقبل سورة الضّحى.

تبدأ بالقسم باللّيل حين يغشى بأسجافه الكائنات، وبالنّهار حين يتجلّى بأنواره، وبالقسم بالله الذي خلق الذّكر والأنثى، والمقسم عليه هو أنّ أمر النّاس شتّى، وأنّ أفعالهم وأعمالهم ومعتقداتهم قبل ذلك تُميّز بينهم في الدّنيا، وتفرّق بينهم في المصير يوم القيامة؛ فالذين آمنوا واتّقوا وصدّقوا بالحسنى وآتوا أموالهم ابتغاء وجه الله تعالى فلهم الفلاح والفوز والرّضوان. وأمّا الذين كفروا، وصدّوا عن الهدى وبخلوا بما أوتوا، واتّبعوا العسرى؛ فإنّ لهم يوم القيامة العسرى من الجزاء، ومآلهم إلى سوء المصير.

وأوضحت أنّ المترفين الذي لم يتّبعوا داعي الحق، وكفروا بالله تعالى؛ لا ينفعهم غناهم، ولا تُجدي عنهم أموالهم شيئًا، والله تبارك تعالى وعد بهداية من يهتدي ويبتغي إليه سبيلًا: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢ - ١٣].

سورة والضّحى:

هي من أوائل السّور المكّيّة. هي الحادية عشرة من حيث ترتيب النّزول، بعد سورة الفجر وقبل سورة الشّرح، والثالثة والتسعون في ترتيب المصحف، بعد الليل وقبل الشّرح. أنزلها الله تبارك وتعالى بعد فتور الوحي عن محمد ﷺ. كان ذلك حين ردّد المشركون في حقد وتشفّ وتهكّم: ودّع محمّدًا ربُّه؛ فقال الله له يسلّيه ويثبّته ويقوّيه ويبيّن رضاه عنه في الدّنيا والآخرة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ

لَكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٣ ـ ٥].

وهي لا تخرج في محورها العام عن الأغراض التي عالجها القرآن المكيّ بشكل عام، ويتجلّى فيها بيان نبوّة محد ﷺ، وبيان امتنان الله تعالى عليه، وحفظه له، ورعايته له في سابق أمره ولاحقه.

الثوب اللّفظيّ المشترك بين أسرة (طه):

١ ـ من عظيم العلامات التي جعلها الله نبراسًا تهدي التّالين والمتدبّرين في آي الذّكر إلى إدراك التناسب والتّناسق والإحكام في نصوص التّنزيل؛ ظاهرةُ تجاذب الألفاظ في السّورة الواحدة، وتجاذبُها في السّور المتشابهة الفواصل. والتّجاذب يكون أحيانا بورود ألفاظ بعينها سواء كانت أسماء أو أفعالًا أو حروفًا، وأحيانًا يتمثّلُ التّجاذب في تآلف وتجمّع الكلمات التي تحمل دلالات متقاربة من نفس الحقل المعرفيّ أو من حقول معرفيّة متقاربة، وهذه الظاهرة تجعل القارئَ يستحضر ذات المعنى الذي قرأه في نص آخر، وتعود به ذاكرتُه إلى الموضع الأوّل، وهذا يؤدّي ـ بفتح من الله تعالى وتوفيق ـ إلى الاهتداء إلى معان ودلالات؛ ما كانت لتظهر لولا النّظر من هذه الزّاوية الخاصّة، أقصد: زاوية التّجاذب والمقارنة بين النّصوص.

من ذلك ورود اسم (الأعلى) في أربع سور من مجموع خمس سور من أسرة طه وأخواتها التي تتشابه في الفواصل، وهي قوله تعالى:

﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النجم: ٧].

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١].

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠].

نلحظ أنّ لفظ (الأعلى) الذي هو اسم من الأسماء الحسنى ورد في سورتين هما سورة الأعلى وسورة اللّيل. أمّا في سورة طه فلفظ الأعلى جاء وصفًا لموسى عليه السلام، وفي سورة النجم جاء وصفًا للأفق.

من ناحية أخرى، نجدُ في سورة طه حديثًا عن القرآن الكريم بكونه تنزيلًا ممّن خلق الأرض والسماوات العُلى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]، أي: في الآية إشارة إلى علوية السّماوات، وفي سورة النّجم يجد القارئُ حديثًا مماثلًا يصفُ عُلويةَ المكان الذي تمّ فيه الإيحاء لمحمد ﷺ في ليلة المعراج حين عرج به إلى السّماوات العلى حيث سدرةُ المنتهى، وحيثُ رأى من آيات ربّه ما رأى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٤ ـ ٩].

علما أنّ وصف (العُلى)، الذي هو جمع (عُليا)، مؤنّث (أعلى)؛ لم يرِد في القرآن كلّه إلّا في سورة طه مرّتين، الأولى في الموضع السّابق في وصف السماوات العُلى، والموضع الثاني في وصف الدّرجات في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

وبمثل هذا الجلاء والوضوح، يتجلّى لكل قارئٍ متدبّر كيف تتجاذب الألفاظ المستقاة من المادّة ذاتها في السّورة الواحدة، وكيف أنّها أيضا تتجاذب فيما بينها في السّور التي تنتمي إلى أسرة واحدة، كما هو الشّأن بالنسبة لما نحن فيه بين طه، والنّجم، والأعلى، والليل، والضّحى.

٢ ـ الأشقى هو أفعل تفضيل من الفعل (**شَقي**)، بمعنى: تعب

ونصب في هذه الدّنيا. والأشقى في سورة الأعلى هو الذي يجتهد لتجنّب الذكرى. يجتهد لتجنّب كلّ من يدعوه إلى عقيدة التّوحيد، ويُذكِّرُه بربّه، وبضروره سلوك الصّراط المستقيم للوصول إليه. وحين يجتهد في تجنّب صراط الله، تكون نهايته أنّه يَصْلى النّار الكبرى، ويظلُّ فيها أحقابًا يُعَذَّب، لا يموت فيها ولا يحيى، أي: لا يموتُ فيرتاح من العذاب، ولا يحيى حياة هنيّة سعيدة. هذه حالُه في سورة الأعلى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠ ـ ١٣].

أما مصيرُه المشؤوم في سورة الليل فهو مُظلِمٌ قاتم؛ فهو يصلى نارًا تتلظّى بسبب تكذيبه للدّاعي، وتوَلّيه عن الدّين الحق: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦].

أمّا محمّد ﷺ فقد بشّره ربُّهُ الذي اجتباه واصطفاه لحمل الرّسالة الخاتمة بأنّه لم يُنزِل عليه القرآن ليشقى بل ليسعد ويهنأ، في حياة إيمانية يعبد فيها ربّه، ويتضرّع بين يديه، ويدعو النّاس أجمعين إلى صراطه المستقيم. ومَنْ أسعَدُ مِمَّن جعله الله تعالى سببًا إلى هداية قلوب الخلق إلى عبادة ربّهم وتوحيده: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصّلت: ٣٣].

قلت: جاء مطلع سورة (طه) مُثَبِّتا قلب نبيّنا محمّد ﷺ، ومُبْعِدًا عنه كلَّ وساوس أهل الشّرك وشياطينهم: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ ـ ٢]، وإنّما أنزلناه عليك لتسعدَ وتذوق طعم حياة الإيمان والإسلام.

وليست السّعادة حِكْرًا على محمد ﷺ، وإنّما جعلها الله العليم الحكيم في متناول كل بشرٍ استمع إلى نداء الفطرة، وأنصت إلى نداء

الحق، وفي مقدّمتهم الأنبياء والمرسلون، وفي مقدّمة الأنبياء والمرسلين آدم أبو البشر أجمعين، حيث أوضح له ربُّه أنَّه إنِ التزم بالتَّوجيهات الموجّهة إليه فلا يضلُّ ولا يشقى، أي: لا يضلُّ في الدّنيا، ولا يشقى بسعيه في الآخرة: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

وقد يقول قائل: وهل السّعادة ودفع الشّقاء خاصّان بالأنبياء والمرسلين؟ والجواب: لا. إنّ جميع البشر إذا آمنوا بالله تعالى ربّهم، ووحّدوه، واتّبعوا شرعه المُنَزَّل على خاتم أنبيائه فإنّهم يشملهم البيان الرّبّاني الذي يكفل لهم السّعادة في الدّنيا، والفوز يوم القيامة، والبُعدَ عن مصير الأشقياء. قال جلّ شأنُه في نهاية سورة طه مُخاطبًا الناس أجمعين: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، فاتّباع صراط الله المستقيم هو الضّمان الوحيد، الذي يجعل الإنسان يذوق طعم السّعادة في الدّنيا ولا يشقى، ويتمتّع بحسن المآب يوم يلقى ربّه.

٣ ـ القرآن الكريم تذكرةٌ لمن يخشى؛ فكلّ من يخشى الله ويتّقيه يدعوه ذلك إلى التّذكّر والإنابة. جاء في سورة طه بأنّ القرآن تذكرة لمن يخشى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ ـ ٣]. وجاء في سورة الأعلى بيانُ أنّ الذي يخشى هو الذي يتذكّرُ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾. أي: أنّ الذي يملأ الإيمانُ قلبَه فإنّ الخشية تجعله يتذكّرُ ولا يغفل. قال الفخر الرّازي: «الذي يخشى هو الذي يكون عارفًا بالله، وعارفًا بكمال قدرته وعلمه وحكمته»[1].

وفي سورة طه أيضًا أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون أن يذهبا

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣١، ص ١٣٣.

إلى فرعون وينصحاه لعلّه يتذكّرُ أو يخشى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]. والتّرجّي هنا واقعٌ في حقّ الرّسولين، أي: اذهبا وأنتما ترجُوان إسلامَه واهتداءه.

فانظر، أخي القارئ، كيف اصطحبت مادّتا التذكّر والخشية مرّتين في سورة (طه)، ومرّة في سورة الأعلى، وهما من أسرة واحدة.

٤ ـ جاء في سورة الأعلى تعريف الله الرّب الأعلى بأنّه هو الذي: ﴿ خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٣]، وهذا كلام عظيم مركّز وموجز يُجلّي حقيقة أنّ الله العليم الخالق خلق كلّ شيء بقدر وسوّاه، وهداه إلى وظيفته الجِبِلّيّة في الكون. ثمّ جاء تفصيل هذا المعنى في سورة طه حيث إنّ موسى وهارون عليهما السلام دَعَوَا فرعون وقومهما إلى الإيمان، وأوضحا لهم بأنّ الإله الحقّ الذي يدعوان إليه، ويجبُ على الخلق أجمعين التَّوجُّهُ إليه بالعبادة؛ هو الله الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَهُ ثم هداه إلى وظيفته التي أعدّه لها يومَ خَلَقَهُ، أي: إنَّ وظيفته مغروزة في جِبِلّته وخِلْقَته: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، وجاء فيها أيضًا ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٥٣].

٥ ـ جاء في سورة الأعلى تعريف الله تعالى بأفعاله: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ [الأعلى ٤ ـ ٥]، والتّصوير في هذه السّورة الغرض منه بيان أنّ الله هو الذي يُحيي، وهو الذي يُميت، وكما أنّ عمليّة إخراج النّبات تنتهي بموته ويُبْسه وتحوُّله إلى غثاءٍ أحوى؛ فكذلك الإنسان يمرّ بدورة الحياة؛ حيث إنّ الله تعالى خلقه من نطفة

ثمَّ من علقة ثمّ من مُضغة ثمّ يُخرِجه وليدًا فرضيعًا ففطيمًا ، ثم ينمو ويكبر ، ويُكلَّف في هذه الحياة الدّنيا بعبادة ربه وتوحيده ، ثم تدركه دورة الحياة فيشيخ ثم يموت . . .

بالمقابل جاء في سورة طه حديث عن أنواع النّبات الذي يُخرجه الله الخالق للخَلق ، ليستفيدوا منه في طعامهم ورَعْي أنعامهم: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه ٥٣ ـ ٥٤].

وانظر كيف تناسق المعنيان ، وتناسق الفعلان (أخرج ، فأخرجنا) ، ولم يقل: فأنبتنا به أزواجًا كما جاء في مواضع أخرى.

٦ ـ طمأنَ الله تعالى رسوله ﷺ في سورة الأعلى بأنّ ربَّهُ الذي أنزل عليه القرآن ، وأنعم عليه بنعمة الوحي ؛ لن يتركه في طريق الدّعوة بدون مساندة وتثبيت ، وأوّلُ ذلك أنه يُقرئه القرآن فلا ينساه ، ويوضح له معناه ومَبناه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى: ٦ ـ ٧]. وكفى بهذا معجزة: أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، يأتي قومَهُ الفصحاءَ البلغاءَ اللُّسْنَ بكتاب هو الذُّروةُ في الفصاحة والبيان ، يتلوه على مسامعهم ، ويتلقّاه مباشرة عن العليم الحكيم ، ولا يتردّد في كلمة منه ، بل يقرأه كأنّما نُقِش في قلبه نقشًا.

كفاكَ بالعلم في الأُمّيِّ مُعجزةً   في الجاهليّة والتّأديب في اليُتُمُ

أمّا في سورة طه ، فجاء تثبيت قلبه بتعليمه بأنّ الله الإله الحقّ لا يضلّ ولا ينسى؛ فهو مُنزّهٌ عن جميع الأوصاف التي تُزري بالبشر مثل الغفلة والنّسيان والضّلال وغيرها: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

٧ ـ الله تعالى هو العليم، الذي لا يعزبُ عن علمه شيءٌ في الأرض

ولا في السّماء. جاء في سورة الأعلى الحديث عن علمه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]. أمّا في سورة طه، فجاء وصفه بأنّه يعلم السّرّ وأخفى: ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

تُشيرُ الآية السّابعة من سورة الأعلى إلى معنى خاص في السّياق الذي وردت فيه؛ فهي تتعلّق بتعليم الله تعالى لرسوله ﷺ القرآن، حيث نبّأه في الآيات قبلها أنّه سيُقرئُهُ فلا ينسى، ثمّ شفع ذلك بقوله ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]. : أي: «أنّه سبحانه عالمٌ بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام، وعالمٌ بالسّرّ الذي في قلبك وهو أنّك تخاف النّسيان؛ فلا تخفْ فأنا أكفيك ما تخافُهُ»[1].

أمّا آية سورة طه، فهي أيضا في سياق تعليم القرآن وإنزاله، ولكن المعنى فيها أشمل، حيثُ أفادت الآية أنّه جلّ جلالُهُ يعلم ما هو أخفى من السّرّ. قال الحافظ ابن كثير: «عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ﴿ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾، قال: السّرُّ ما أسرَّ ابنُ آدم في نفسه، ﴿ وَأَخۡفَى﴾: ما أُخْفِيَ على ابن آدم ممّا هو فاعلُهُ قبل أن يعلمه؛ فاللهُ يعلمُ ذلك كلّه، فعِلمُهُ فيما مضى من ذلك وما بقي عِلْمٌ واحدٌ، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفسٍ واحدة، وهو قولُهُ: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. وقال الضّحّاك ﴿ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾» قال: السّرُّ: ما تُحدّثُ به نفسَك، وأخفى: ما لم تُحدّث به نفسَك بعدُ.

وقال سعيد بنُ جبير: أنت تعلمُ ما تُسِرُّ اليوم، ولا تعلمُ ما تُسِرُّ غدًا، والله يعلمُ ما تُسِرُّ اليوم وما تُسِرُّ غدًا»[2].

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣١، ص ١٣١.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار العقيدة، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ج٣، ص ١٨٢.

ومن الموافقات العجيبة أنّ آلايتين تحملان الرّقمَ ذاته هو الرقم (٧) في السورتين. ألا فما أعظم تناسق هذا الذّكر وما أبدع إحكامه!!

٨ ـ جاء في سورة الأعلى حديث مُطمئِنٌ لرسول الله ﷺ بأنَّ ربّه سَيُيَسِّرُه لليُسرى، أي: يُسهّل عليه سلوك الطريقة اليُسرى السَّهلة الموصلة إلى الجنّة: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾. ومن لطيف التَّعبير في الآية أنّ الله تعالى لم يقل لنبيّه: سنُيسّر اليُسرى لك، وإنّما قال: سنُيسِّرك لليسرى، أي: نجعل حياتك طيّعةً مُيَسّرةً، ونجعل فطرتك سليمة مُنصاعة للسّيرة اليُسرى، سنجعلك أنت مُيَسَّرًا لليسرى.

وليس هذا التّيسيرُ خاصًّا برسول الله ﷺ، وإنّما كلّ من انصاع إلى أحكام الشَّرع بعد الإيمان الصّحيح، وأعطى وأنفق ممّا رزقه ربّه، واتّقى المنهيات والمحرّمات التي جاء الشّرعُ ناهيًا عنها، وصّدق بأنَّ الشّريعة التي يدعو إليها محمّد ﷺ هي الطريقة الحسنى؛ فإنَّ الله سيسهّل حياته، ويهدي قلبه، ويجعل حركاته وسكناته طيّعة منصاعة ومتناغمة مع شرعه، وهنا يظهر لطفُ الله وتوفيقه بعباده المؤمنين؛ فليس علمك هو الذي يهديك إلى طريق الرّشاد، وإنّما الأمرُ كلّه يتعلّق بتوفيق الله ولطفه وتيسيره. جاء المعنى ذاته في سورة الليل في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

أمّا سورة النّجم، فجاء فيها بيان أنّ الله أعدّ للذين أحسنوا الحُسنى. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

٩ ـ ذكرت سورة الأعلى أنَّ من يُزكّي نفسه ويُطهّرُها من أدناس الشّرك وأرجاس الصّفات الذّميمة؛ فإنّه يفلح في الدّنيا والآخرة،

والعكس صحيح حيث إنّ الذي يُتبعُ نفسه هواها ، وينغمس في لجج الشّهوات الآسنة ؛ فإنّه يخيبُ سعيُهُ، ويحيط به النّدم حيث لا ينفعُ النّدم ولا التّحسّر : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥].

في الوقت ذاته ، بيّنت سورة الليل وسيلة من الوسائل التي تساعد الإنسان على تطهير نفسه ، وهي وسيلة الصّدقة والإنفاق الخالص لوجه الله الكريم، حيث جاء وصف الأتقى بأنّه : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٨] ، ولا يكون ذلك رياءً ولا سمعةً ولا ردًّا لجميل سابق أو يدٍ سلفت ، وإنّما يكون ذلك ابتغاء وجه ربّه الأعلى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢٠].

بالمقابل ، وفي المضمون ذاته ، جاء في سورة النّجم نهيُ النّاس عن تزكية أنفسهم ، أي: نهيهم عن ادّعاء الفضل لأنفسهم ، ووصفها بصفات حسنة محمودة ، أمام أعين النّاس رغبةَ نيل إعجابهم ، والظّفر بتقديرهم وثنائهم: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]. فليس السّباق في حلبة التّقوى من أجل التّظاهر والاستيلاء على اهتمام النّاس ، ونيل كلمات المدح والثناء منهم ، فذلك مُنزَلَق خطير ، وإنّما التّزكية الحقيقيّة التي تُنجي صاحبها من النّار هي التي تكون ابتغاء وجه الله تعالى ، ولا يعلم حقيقة نفوس البشر إلا خالقها المطّلع على ما في الصّدور.

١٠ ـ جاء في سورة الأعلى من صفات المتزكّي المتطّهر أنّه يُصلّي حين يذكر ربّه جلّ جلاله : ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٥] ، وجاء في سورة طه توجيهٌ لموسى عليه السلام أن يقيم الصلاة لذكر الله : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤] ، ويحتمل هذا التعبير ثلاثة معان:

الأول: أقم الصلاة لأجل أن تذكرني ، وتكون اللام مفيدةً معنى العلّة.

الثاني: أقم الصلاة حين تذكرني.

الثالث: أقم الصلاة لأذكُرَك بالمدح في عليين بها[(١)].

فانظر إلى هذا التناسق بين المضامين، التي تتضمّنُها السّور التي تتشابه فواصلها! إنّها لحمة واحدة. إنّها نسيج محكم متناسق لا تنفصل قطعة منه عن أختها.

١١ - ومن تلاحم المواضيع وتكاملها، أنّ سورة الأعلى بشّرت الذي يتزكّى بالفلاح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤]، وسورة الليل أوضحت للذي يريد أن يتزكّى الطريق الموصلة إلى التزكية وهو إيتاء المال ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٨]، ثم جاءت سورة طه وذكرت المصير الجميل والمقرّ الرّائع، الذي أعدّه المنعم الوهّاب للذي يتزكّى في حياته الدّنيا. إنّ نهايته مرضية. إنّها: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٦].

١٢ - جاء في سورة الأعلى خطابٌ للمشركين المنغمسين في حبّ الحياة الدنيا بنعيمها وجحيمها، بعسلها وعلقمها، بأنّهم بتصرّفاتهم هذه لا يحسنون اختيار الطريق الأسلم لنفوسهم؛ فهم يؤثرون دنيا فانية على آخرة باقية: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٧ - ١٦].

لذلك لمّا استيقظت حقيقة الإيمان في نفوس السّحرة، واشتعلت جذوة التّوحيد في نفوسهم قالوا لفرعون غير مبالين بسوطه وعذابه: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢].

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١١، ص ١٧٧.

تجدر الإشارة إلى أنّ سورة الأعلى قرّرت أنّ الآخرة هي خيرٌ وأبقى ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٧]؛ فاستفاد السّحرة الذين انقدح الإيمان في نفوسهم، وعرفوا أنّ الله خير وأبقى من فرعون الذي تهدّدهم وتوعّدهم وقال: ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴾ [طه: ٧١]. فأجابوه بتحدٍّ وإيمان وثبات: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣]. ومن التّجاذب اللفظي في سورة طه أيضًا أنّ الله تعالى خاطب محمدًا ﷺ ورسّخ في ذهنه ويقينه الإيماني بأنّ رزقه جل ثناؤه خيرٌ وأبقى من كل شيء: ﴿ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١].

١٣ - جاء في سورة الأعلى تلخيص المعاني الإيمانيّة التي وردت في سورة الأعلى بأنّها جاءت في صحف إبراهيم وموسى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩].

أمّا سورة النّجم، فجاء فيها ذِكرٌ لبعض التفاصيل والمعاني الإيمانية التي وردت في صحف إبراهيم وموسى، أي: أنّ ما في النجم مُفَصِّلٌ لما في الأعلى. قال تعالى: ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٦ - ٤١].

وإذا كانت سورة الأعلى قد قرّرت بأنّ المضامين والمعاني الإيمانية التي وردت فيها قد ضمّتها صحف إبراهيم وموسى بين دفّتيها، وجاء شيءٌ من تفصيلها في سورة النّجم؛ فإنّ سورة طه ألقت الاستفهام الإنكاري في سمع كل النّاس الذين لم ينتبهوا ولم يتّعظوا ولم يُولوا اهتمامًا إلى ما في هذه الصحف العظيمة المنزّلة من الله تعالى. قال جلّ شأنه: ﴿ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [طه: ١٣٣].

وبمثل هذا الجلاء، يجد القارئُ أنّ السُّوَرَ الثلاث (الأعلى والنّجم وطه) تآزرت آياتها وتظاهرت في بيان ما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام؛ سورة الأعلى أشارت إليها بإجمال، وسورة النّجم تحدّثت عن بعض ما جاء فيها، وسورة طه ألقت استفهامًا إنكاريًّا للتّنبيه إلى ضرورة الاتّعاظ بما جاء فيها.

١٤ ـ إذا جئنا إلى سور الليل والضّحى والنجم، فإنّ العلامة الواضحة التي تجمعها ثلاثتها ـ علاوة على توافق البناء في الفواصل ـ هو بداياتُها القسَمية، ففي سورة الليل قسم بالليل إذا يغشى المعمورة بظلامه الدّامس، وبالنّهار حين يجلّيها حيث تنكسر أشعّة الشّمس على حبيبات الغبار والهواء المحيط بالأرض المسمّى بالغلاف الجّوي، فالنّهار هو الذي يجلّي الشمس ويبرزها سراجًا وهّاجًا ووضّاءً، ولو خرج الإنسان كما يخرج روّاد الفضاء من الغلاف الجويّ للأرض (أي على بعد حوالي ٢٠٠ كم) فإنّه ينغمس في ظلام دامس مغطش، ولا تُرى الشّمس إلا كمصباح متوسّط صغير باهت لا إشعاع لها ولا ضياء.

ثم توالى القسم في سورة اللّيل بالذي خلق الذّكر والأنثى. كل هذا القسم الغريب العجيب، والمقسم عليه هو أنّ سعي النّاس متباين ومختلف: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١ ـ ٤].

أمّا في سورة الضّحى فيُقسم ربّنا جلَّ جلالهُ بالوقت، وستائر اللّيل حين تنسدلُ على المعمورة، فيدخل أهلها في ظلام وسكون: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٢]، والمقسم عليه هو عدم توديع محمّد ﷺ، وعدم التخلّي عنه، وعدم مجافاته كما ادّعى

المشركون: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣].

أما سورة النّجم، فتواصل القسم بالنّجم حين هويّه ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، والمقسم عليه هو محمد ﷺ ذاته، هو كون محمّد رجلًا راشدًا مهديًّا من الله تعالى، وليس ضالًا ولا غاويًا، بل هو رجل في قمّة وعيه ورُشده: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٢ ـ ٣].

وبمثل هذا الوضوح، يتبيّن اتّساق الأقسام وتناغمها في هذه السّور، فالمقسَم به في سورة الليل هو الليل والنّهار، وهما ظاهرتان لا وجود لهما بدون الشّمس، فهما أثران من آثار الشّمس، ودوران الأرض حول محورها أمام نجم الشّمس. وفي سورة الضّحى قسم بوقت الضّحى، وهو الوقت الذي يجلّي النّهارُ الشمس في أعين أهل الأرض. وسورة النّجم قسَمٌ بالنّجم حين هويّه، والنّجم هو جنس الشّمس، فما الشّمس إلا نجم متوسّط الحجم أصفر... والمقسم عليه كَوْنُ نبيّنا ﷺ تحت رعاية ربّه وفضله وعنايته وكلئه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]. وفي النّجم المقسم عليه تزكيته ﷺ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النّجم: ٢ ـ ٣]، وفي سورة طه تثبيتٌ لقلبه وتطمين له بأنه ما أنزل عليه الوحي إلّا ليسعد في حديقة الإيمان والتّوحيد لا ليشقى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ ـ ٢].

١٥ ـ ذكر الله تعالى أنّه أوحى إلى عبده محمّدٍ ﷺ ما أوحى، وفي هذا الإبهام في التّعبير تهويلٌ وتعظيمٌ للوحي الذي أوحاهُ إليه، وكأنّ اللغة العربية ـ على الرغم من جودتها، وسعتها وشمولها وطرائق الاشتقاق فيها وتنوّع أساليب تركيب الكلِم فيها ـ لا تستطع أن

تُعبّر عن عظمة الوحي الذي أوحاهُ الله العليم إلى عبده محمدٍ ﷺ فقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

والملاحظ أنّ هذا القالب التّعبيري ذاته استعمله البيان القرآني في وصف الأمر الذي أوحاه الله جلّ جلالهُ إلى أمّ موسى، وذلك حين قذف في قلبها أن تُلقي ابنها موسى في التابوت، وأخبرها بأنَّ هذا التابوت سيلقيه في اليمّ، وبأنّ نهاية رحلته ستكون بين يدي الطاغية فرعون ليُربّى في عقر داره، وبين أحضانه وأحضان زوجته: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٨].

وهذا القالب التّعبيري الذي يفيد التّهويل أيضًا، ممّا يزيد في تشابه الثّوبين اللّفظيين لسورتي طه والنّجم، خصوصًا حين يُدرك القارئُ أنَّ هذا النّسق التعبيريَّ لم يتكرّر في القرآن الكريم إلا في هذين الموضعين.

هذا، وقد نادى الله في عليائه عبدَه موسى عليه السلام مُوَجّها إيّاه إلى ضرورة الاستماع إلى ما يوحيه إليه: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]. والمادّة ذاتها تتكرّر: أوحى، ما أوحى، أوحينا، ما يوحى، لما يوحى..

١٦ - جاء في ثلاث سور من بين الخمس المتشابهة الفواصل حديثٌ عن سعي الإنسان؛ في سورة الليل قرَّر جلَّ جلاله بأنَّ سعي النّاس مختلف، فهذا منشغل بدنياه، وذلك بآخرته، وآخر بإصلاح عبادته، ورابع بالعلم، وأصناف أعمال البشر واهتماماتهم شتّى. هذا ما قرّره قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤].

وذكرت سورة الليل نَمَطين من أنماط سعي الإنسان، أحدهما يُعطي ويتصدَّق على ذوي الحاجة مُتّقيا ربَّه، ومُصدّقًا بالحسنى،

ومصيرُه أنّه مُيَسَّرٌ لليسرى ، وآخر بخيلٌ مُستغنٍ ، ومُكذّبٌ بالحسنى ، ومصيره إلى العُسرى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

أمّا سورة النّجم ، فقد جاء فيها أنَّه ممّا تضمَّنته صحف إبراهيم وموسى عليهما السّلام معنى سعي الإنسان لنفسه؛ فما يعملُه الإنسان يعود إليه بالنّفع إذا كان عملًا حسنًا ، ويعود عليه بالوبال والخسران إذا كان عملًا سيّئًا : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١].

أمّا سورة طه ، فقد قرّر البيان القرآنيّ فيها أنّ كلَّ نفسٍ تُجزى بما تسعى : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٥].

١٧ ـ جاء في سورة الليل بأنَّ الذي لا يستمع إلى نداء الفطرة ويتجاهل نداء التّوحيد فإنّه يهلك شرّ هلاك، وما يُغني عنه مالهُ في ذلك اليوم العظيم : ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل: ١١]. أمّا في سورة طه فوجّهَ الله جل جلاله نبيّه موسى عليه السلام أن لا يطيع الضالّ الذي لا يؤمن بآخره، ويزيّن للنّاس منهجه الكافر؛ فإنَّ مغبّة الاستماع والاستنصاح بأقوال أمثال هؤلاء الضّالّين المُضلّين الهُويّ والتَّردّي في سوء العذاب : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٦].

١٨ ـ أمر الله عزَّ وجلّ كليمه موسى عليه السّلام أن يضّم يده إلى جناحه ، وأراه آية اليد البيضاء ثم قال له: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه: ٢٣]؛ فالله هو الذي أرى موسى عليه السّلام نوعًا من آياته الكبرى ، حيث أسند فعل الإراءة إلى ذاته العليّة. أمّا في سورة النّجم فقد أثنى جلَّ جلالُه على حبيبه وصفيّه محمد ﷺ ، بأنّه حين عرج به إلى حيثُ سدرة المنتهى ، قد رأى من آيات ربّه الكبرى ، فقد أعطاه

الله تعالى من القوّة العقليّة والجسميّة والاستعداد الرّوحي ما أهّله به لرؤية أصناف من آيات ربّه الكبرى ، أو أهّله لرؤية الكبرى من آيات ربّه : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٨].

١٩ ـ موسى عليه السلام دعا ربّه في سورة طه أن يشرح صدره ، وأن يُيَسِّرَ أمره ، وأن يَحُلَّ عقدةً من لسانه ليفهم مُخاطبوه حديثه : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨]. أمّا محمد ﷺ فقد ذكر جل شأنّه بأنّه يسَّرهُ لليُسرى. لم يُيسِّرْ أمرَه فقط ، وإنّما يسَّرَهُ هو للطّريقة اليُسرى ، أي: جعل طبيعته طيّعةً منصاعةً متّسِقةً مع الطريقة اليسرى ، وهي الفطرة السليمة : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٨].

وذكر في سورة النّجم بأنّه لا ينطق عن الهوى ، وإنمّا كل ما تنبس به شفتاه هو وَحْيٌ يُوحى إليه ، سواء كان قرآنًا يتلوه أو سنّةً علّمه الله إيّاها وقذفها في قلبه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣].

٢٠ ـ جاء في سورة طه حين سأل اللهُ تعالى ـ وهو أعلم ـ عبدَه موسى : ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾. فأجاب موسى عليه السّلام : ﴿ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤]؛ فموسى عليه السّلام بادر بالذّهاب إلى لقاء ربّه قبل لحوق قومه ، لأنَّه كان مُتشوّقًا للاستماع إلى كلمات ربّه. يريد رضاه. عجلت إليك يا ربّي لترضى عنّي.

أمّا محمّد ﷺ ، فبشَّرته سورة الضّحى بأنَّه سيُعطيه ربُّه فيَرضى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥] ، وحثّه في سورة طه على مزيد من التّسبيح آناءَ الليل وأطرافَ النّهار؛ فإنَّ ذلك سيقوده إلى الرِّضى : ﴿ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].

ولا يختلف اثنان على أنَّ هذا التّعبير وأمثاله في آيات الذّكر دليلٌ على قمّة الاصطفاء والاجتباء الذي حظيه محمّد ﷺ عند ربّه.

والبديع في الأمر أنّ موسى عليه السّلام دعا ربّه أن يشرح صدره في سورة طه ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه: ٢٥]، وجاءت سورة الشّرح بعد سورة الضّحى في ترتيب النّزول وفي ترتيب المصحف يُقرّرُ مطلعُها بأنّ الله تعالى أنعم على عبده محمد ﷺ بشرح الصّدر في صباه الأوّل: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ١]. ألا فما أعظم تناسق هذا الكلام! وما أجلّه! وما أروعه!

٢١ ـ جاء في سورة الأعلى أنّ الأشقى الذي يتجنّب التّذكرة سيصلى النّار الكبرى ثمّ لا يموت فيها ولا يحيى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]. وجاء فيها أيضا دعوةٌ إلى التّزكّي والتّطهّر الذي يقود إلى الفلاح ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]. أمّا سورة طه ففصّلت القول في مصير الصّنفين: الصنف الأوّل هو المجرم الذي له جهنّم لا يموت فيها ولا يحيى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، والصّنف الثّاني هو الذي يأتي ربّه مؤمنًا قد عمل الصّالحات، فقد بشّرته الآيات بأنَّ له الدّرجات العُلى، وبيّنتها بأنّها جنّات عدن. قال جلّ شأنه: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥ ـ ٧٦].

٢٢ ـ قال السّحرة فيما بينهم حين استهواهم بريقُ أموال فرعون ـ قبل أن تُشرق شمس الإيمان في قلوبهم ـ: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٤]، أي: قد فاز اليوم من تكون له الغلبة. فردَّ الله عليهم هذا المنحى من التّفكير، وأبطل كلامهم، وبيّن لهم بالثوب التّعبيري ذاته بأنّ الفلاح يكون من نصيب من تزكّى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ

فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥]؛ فالفلاح حليف الذين يزكّون ويطهّرون نفوسهم، لا حليف مَن يستعلون في الأرض. أمّا أنت يا محمد فـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

٢٣ ـ جاء في سورة النّجم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]. وموسى وأخوه هارون عليهما السلام جاء فحوى التّعبير ذاته على لسانهما حيث إنّهما قالا لفرعون: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]. فكأنّي بآية سورة طه مُفصّلة للمعنى ذاته الذي جاء في سورة النّجم.

٢٤ ـ جاء في سورة الليل بيان أنّ النّار التي تتلظّى وتتأجّج لا يصلاها إلّا الأشقى، الذي عُرِف بتجنّبه للصّراط المستقيم، والذي من صفاته أنّه كذَّبَ وتولّى، كذّب بالدّين، وتولّى عن الرّسول واتّباع رسالة الحق: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]. وموسى وهارون عليهما السّلام ذكرا في معرض دعوتهما لفرعون وجنوده: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]. وهذا أيضًا تجاذب واضح في عبارة (كذّب وتولّى) بين هاتين السّورتين اللتين تتّفقان اتفاقًا إجماليًا في بناء فواصلهما على الألف اللّيّنة المقصورة في الغالب.

والملاحظ أنّ هذا التّركيب العطفي بين الفعلين (كذّب وتولّى) تكرّر أيضًا في سورتين أخريين هما سورتا القيامة والعلق، واللّافت للانتباه أنّهما تكرّرا في مقطعين ينتهيان بالفاصلة ذاتها: الألف اللينة في نهاية الكلمة.

الموضع الأول: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣١ ـ ٣٣].

الموضع الثاني: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٣ ـ ١٤].

٢٥ ـ جاء في وصف أزواج النّبات بالوصف (شتّى). قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]. وجاء في سورة الليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤].

٢٦ ـ تكرّرت مادّة (ضحى) في الذّكر الحكيم أربع مرّات، ثلاثٌ منها في السّور المتشابهة الفواصل، منها موضعان في سورة طه هما قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩].

والموضع الثالث هو القَسَم في مطلع سورة الضّحى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٢].

٢٧ ـ في سورة طه، قرّر سبحانه وتعالى أنَّ الذي يحِلُّ عليه غضبه فقد هوى، أي: هوى وتردّى في أغوار الجحيم السّحيقة: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

أمّا في سورة النّجم، فضرب مثلا للذين أهواهم، ونصَّ عليهم بالاسم حيث قال: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٤].

٢٨ ـ جاء في قصّة آدم عليه السّلام في سورة طه حديثٌ عن عصيانه وتوبته: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، أما محمّد ﷺ في سورة النّجم فوصفه ربُّه بأنَّه ما ضلّ وما غوى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

٢٩ ـ ورد في سورتي طه والنّجم نسقٌ تعبيريّ يفيد التّهويل والتّفخيم لم يتكرّر في غيرهما، وهو قوله تعالى في سورة طه متحدّثًا عن هول الإغراق الذي أصاب فرعون وجنودَه: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا

غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، وفي هذا المعنى قال الزّمخشريّ: «(ما غشيَهم) من الاختصار، ومن جوامع الكلِم التي تستقلُّ مع قلّتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشِيَهم ما لا يعلمُ كنهه إلّا الله»(١).

والنّسقُ التّعبيريّ ذاته جاء في سورة النّجم في وصف ما يُغطّي سدرة المنتهى وما يُحيطُ بها؛ إذ لا يستطيع البيان اللّغويّ أن يصف ذلك المشهد الجلل. قال تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النّجم: ١٦]. أي: أنّ سدرة المنتهى غشيها من الأمر ومن الأنوار الباهرة ما لا يُحيط به الوصف، ولا تحمله العبارة.

قال الإمام البيضاوي: «تعظيمٌ وتكثيرٌ لما يغشاها بحيثُ لا يكتنهها نعتٌ، ولا يُحصيها عَدٌّ. وقيل: يغشاها الجمُّ الغفيرُ من الملائكة يعبدون الله عندها»(٢).

والتّعبير ذاته تكرّر في وصف إهلاك قرى المؤتفكات، التي جعل الله عاليَها سافلها؛ فوصف الله ذلك العذاب المستأصل بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النّجم: ٥٣ _ ٥٤].

وهنا يتساءل المتدبّرُ في لغة القرآن: لماذا لم يتكرّر هذا النّسق التّعبيريّ إلّا في هاتين السّورتين؟ وما العلاقة التي تجمعهما؟ وما الاسم الذي يُمكن إطلاقه على هذه الظّاهرة البيانيّة؟

والجواب هو ما أسلفنا الحديث عنه في سابق الفصول والمباحث، بأنّ السّورة القرآنيّة لها ملامح ومعالم تُميّزها، ومن أبرز تلك الملامح ملمح التّجاذب اللّفظي في بناء الآيات والنّصوص في السورة نفسها، وملمح التّجاذب اللّفظي بين السور التي تنتمي إلى أسرة واحدة كما

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص ٧٨.
(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥، ص ١٥٨.

رأينا في السّور المتشابهة المطالع، والسّور المتشابهة الفواصل، والسّور المتشابهة الأنساق التعبيرية في بداياتها، كما سيأتي في الفصل الثالث.

٣٠ ـ بقي أن أشير إلى أنّ ثمة آيتين في سورتي النّجم والضّحى قد يظن القارئُ للوهلة الأولى أنّهما متناقضتان، وهما قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، حيث إنّ آية النّجم تنفي عن رسول الله ﷺ الضّلال، وآية الضّحى تثبت أنّه وجده ضالًّا فهداه، والحقّ أنّهما ليستا متناقضتين، لأنّهما تتحدّثان عن سياقين مختلفين، وحادثتين مختلفتين.

أمّا آية النّجم التي تنفي عنه ﷺ الضّلال، فقد وردت في سياق الحديث عن حادثة المعراج، حيث إنّه لمّا أُسري برسول الله ﷺ، وعُرِج به إلى السماوات العُلى، وعاد من رحلته التّكريميّة الخارقة للعادة؛ أخبر المؤمنين، وأخبر قريشًا بما رأى. أمّا المؤمنون الصّادقون ذوو الإيمان الرّاسخ فزادهم ذلك إيمانًا وتسليمًا، وأمّا بعض الذين لم يترسّخ الإيمان في قلوبهم فاهتزّت نفوسهم، وانساقوا وراء أقاويل المشركين الذين لاكوا كلمات وعبارات مُفادها الاستهزاءُ بمحمّد ﷺ، والانتقاص من عقله؛ إذ كيف يدَّعي عاقل أنّه يأتي بيت المقدس، ويُعرَج به إلى السّماوات العُلى في زمن قليل من ليلة واحدة! إنّ هذا لشيءٌ عُجاب في نظرهم؛ لذلك جاء قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ مُدافعا عن رسول الله ﷺ، ومُثْبِتًا أنّه في أتمّ حالاته العقلية وأكملها.

أمّا آية الضّحى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، فقد جاءت في سياق

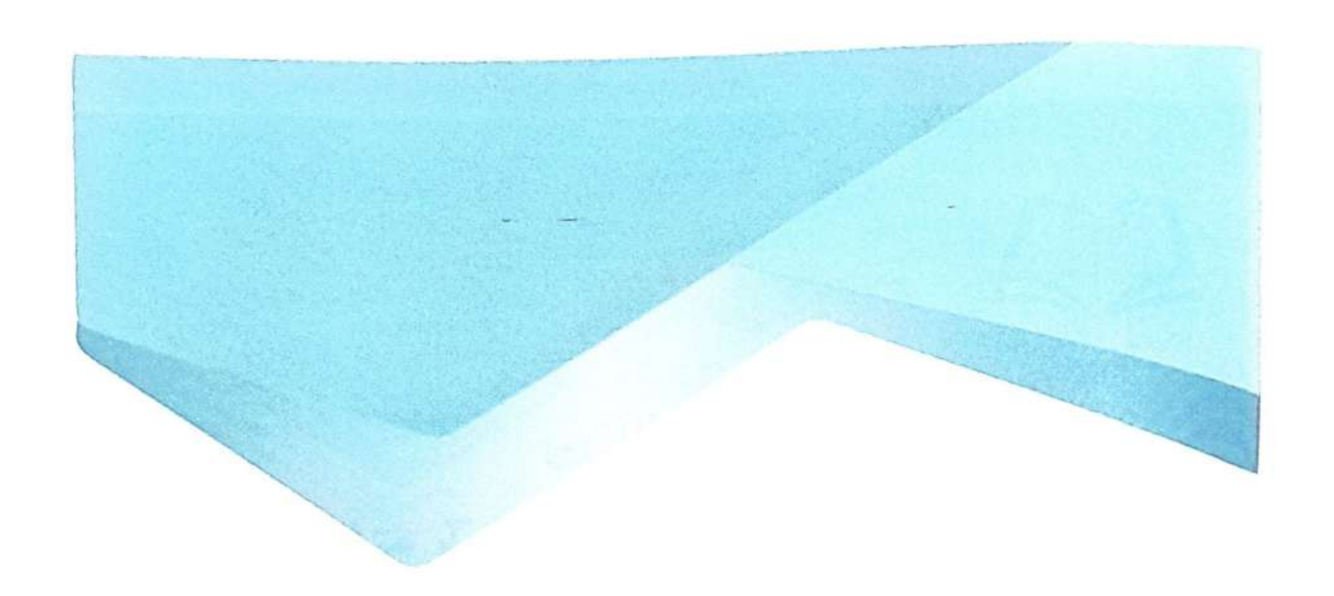
الامتنان على رسول الله ﷺ قبيل البِعثة، حيث كان في حياته قبل أنّ يوحِيَ الله إليه مُتحيّرًا، يسأل أسئلة حول مَنْ خلق هذا الكون الفسيح؟ يسأل عن خالق الإنسان؟ عن وظيفته في الحياة؟ وكان يعتزل الناس، وحُبّب إليه الخلاء، حيث كان يتحنّث في غار حراء الليالي ذوات العدد، وهناك اصطفاه الله تعالى، وهداه إلى طريق الرّشاد، وقال مُمْتنًا عليه بنعمة النبوّة والهداية: ووجدك ضالًا بمعنى حائرًا متحيّرًا، تبحث عن الحقيقة فهداك إلى طريق التّوحيد، وجعلك من المرسلين.

قال الإمام البغوي: «﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾: يعني ضالًا عمّا أنت عليه، ﴿ فَهَدَىٰ ﴾، أي: فهداك للتّوحيد والنّبوّة. قال الحسن والضّحّاك وابن كيسان: ووجدك ضالًا عن معالم النّبُوّة وأحكام الشّريعة غافلًا عنها، فهداك إليها»[1].

مما سبق عرضه وتحليله، يتّضح بجلاءٍ لا يترك مجالًا للرَّيب، أنّ السّور التي تتشابه فواصلُها تجمعها جملةُ علاقات ومناسبات لفظيّة ومعنويّة؛ حيث إنّها يُكمّل بعضها بعضًا في عرض معاني هذا الدّين العظيم، والآية الموجزة في هذه السّورة تزيدها نظيرتها في السّورة الثانية تفصيلًا وإيضاحًا، وتتجاذب ألفاظ هذه السّور وقوالبُها التّعبيريّة متناسقة الألوان والأشكال، ناطقةً بعظمة مُنزّل هذا الكلام الجليل المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والله أعلم بأسرار تنزيله.

* * *

(١) البغوي، معالم التنزيل، ج٨، ص ٤٥٦.



الفصل الثالث

السّورُ المُفتتَحة بأنساق تعبيريّة متشابهة





الفصل الثالث

السّورُ المُفتَتَحة بأنساق تعبيريّة متشابهة

يُناقشُ هذا الفصلُ موضوعًا يتفرَّعُ عن القضيّة الكبرى التي تسعى إلى توضيحها هذه المُقاربةُ التّفسيريّة، وهو يتعلَّقُ بِسُورٍ تتشابهُ بداياتُها في الأنساق التّعبيريّة المفتتح بها دون التّشابه في المواد المعجميّة، من مثل سورتي القارعة (٣٠) نزولًا، والحاقّة (٧٨) نزولًا، اللّتين تتحدّثان عن يوم القيامة، والسّور الأربع المُستَهلّة بالقسم بالملائكة والرّياح: الصّافّات (٥٦) نزولًا، والذّاريات (٦٧) نزولًا، والمُرسَلات (٣٣) نزولًا، والنّازعات (٨١) نزولًا.

فهذه السّورُ، وإنْ كانت بداياتُها لا تتشابَهُ من حيثُ الألفاظُ المُستَعمَلةُ إلّا أنَّه تمَّ افتتاحُها بكلمات مُتقاربةٍ في أبنيتها الصّرفيّة، وفي طريقة بناء الجمل والأنساق التعبيريّة المستعملة؛ مِمّا جعلها تتوافقُ في كثيرٍ من النّقاط، وكساها أثوابًا لفظيّةً مُتقاربةً، وجعلها تتكامَلُ فيما بينها، راسمةً صورةً كبيرةً للمواضيع التي تُقدِّمُها.

ولتيسير هذه الفكرة، وتقريب ملامحها، وتجلية أبعادها، أبسُطُ بين يديك، أخي القارئ، مقارنةً تدبُّريّة موجزةً للسّور الأربع: (الصّافّات والذّاريات، والمُرسلات، والنّازعات) في المبحث الأول، وأخرى لسورتي القارعة والحاقّة في المبحث الثاني.





المَبحثُ الأوّلُ

سُوَرُ: (والصّافّات، والذّاريات، والمُرسلات، والنّازعات)

إنَّ السّور المتشابهة في الصّيغ المُفتتح بها في مطالعها ، مثل ما نحن بصدد تقريره من تشابه وتناظر بين الصّافّات والذّاريات والمُرسلات والنّازعات ؛ تجمعُها دلالاتٌ معنوية ، وتَربِطُها ملامحُ لفظيّةٌ تجعلُ القارئَ المُتدبِّرَ يحكمُ بعقله المنطقي ، وذَوقه الأدبي بأنَّ هذه السورة من تلك ، وتلك السُّورة من هذه ، بل إنّهما ينتميان إلى أسرة واحدة ، وتسري في عروقهما دماءُ نسبٍ واحد ، كما يُمكنك من خلال ملامح وجهية وخَلقيّة لشخصين أو ثلاثة ، أن تحكم بأنَّهما أو بأنَّهم ينحدرون من أسرة واحدة ، وتجمعهما سُلالةٌ واحدة.

وقبل الشّروع في بيان ذلك ، يحسُنُ ذِكْرُ كلمةٍ موجزةٍ واصفةٍ للمضمون الرّئيس لكلّ سورةٍ ، وجوّها العام ، ومن ثَمَّ يَتِمُّ عرضُ وجوه التّشابه والتّوافق بينها ، ووجوه الاختلاف والافتراق.

سورة الصّافّات:

سورة الصّافّات مكيّةٌ ، وهي السّادسة والخمسون نزولًا ، بعد الأنعام ، وقبل لُقمان(١) ، والسابعةُ والثلاثون في ترتيب المصحف الشّريف. تحدّثت عن جملةٍ من قضايا القرآن المكيّ من إثبات نزول

---

(١) دروزة ، التفسير الحديث ، ج١ ، ص ١٥.

الوحي، وإثبات وحدانية الله تعالى في ألوهيّته، وفي ربوبيّته، وذكر أنواع من مخلوقاته العظيمة الشّأن، البديعة الصُّنع، التي تدلُّ على عظمة الخالق، وطلاقة مشيئته، وقدرته التي لا تُحَدُّ.

والرّاجحُ عند أهل التّفسير أنَّ المُقسَمَ به في مطلَع السّورة هو طوائفُ من الملائكة قيّضها الله تعالى لشُهود نزول الوحي؛ فالصّافّاتُ الملائكةُ التي تصُفُّ إعظامًا للوحي المُنَزّل، والزّاجرات الملائكةُ التي تزْجُرُ الشّياطين منعًا لها من استراق السّمع، والتّاليات هي الملائكة التي تتلو الذّكر(١).

وجاء فيها بيانُ أنَّ الله جلَّ ثناؤُه حفِظَ الوحيَ من أن يُستَرَقَ؛ إذْ قيّضَ شُهبًا ثاقبةً للشّياطين التي تُحاوِلُ أن تسترِقَ السّمع: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٧ ـ ١٠]، ثمّ تعرّضت الآياتُ إلى ذكر خلق الإنسان العجيب الذي خلقه الله تعالى من طينٍ لازب، وذكرت سُخريةَ الكافرين الذين يسخرون من الدّين الجديد مُكذّبين بالبعث والنّشر بعد الموت، ووصفت إيقافَهم بين يدي الله تعالى في ساحة الحشر، وتعرُّضَهم للسُّؤال والحساب، وذكرت تساؤُلَهم وتلاوُمَهم فيما بينهم، والجزاء الذي أُعِدَّ لهم، وأكْلَهم من شجرة الزّقّوم، وشُرْبَهم من الحميم شُربَ الهيم.

ثُمَّ عرّج البيانُ القرآني واصفًا حِقَبًا تاريخيّةً لجملةٍ من كوكبة المرسلين الكبار مثلَ نُوحٍ، وإبراهيم، وإسحاق، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس عليهم السلام أجمعين؛ حيثُ

---

(١) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥، ص ٥، والزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٢٣.

ذكرت الآياتُ جوانبَ ممّا دار بينهم وبين أقوامهم ، وجاء فيها وصفُ لطُرُق إهلاكهم ، ومصائرهم المُرعبة.

ثُمّ تناولت الآياتُ في نهاية السُّورة تنزيه الله تعالى عمّا وصفه به الواصفون ، وعمّا نسبه إليه المشركون؛ فهو جلّ ثناؤه غنيٌّ عن الصّاحبة والولد ، وتمّ في نهاية الجولة القرآنية توجيهُ النّصح لمحمد ﷺ بأن يُعرِضَ عن المشركين المكذّبين ، ويتربّصَ بهم إلى حين؛ وبشّره ربّه جلّ ثناؤه بأنّه قد قضى في حكمه السّابق أنَّ عباده المُرسلين هم المنصورون ، وأنَّ العاقبة للمتّقين ، وأنّه حين يأتي أجلُ إهلاك الكافرين وتدميرهم فقد ساء صباحُهم ، وعَظُمَ خُسرانُهم.

سورة الذّاريات:

سورة الذّاريات مكّيّةٌ باتّفاق أهل العلم بنزول القرآن[١] ، وهي السّابعة والسّتون نزولًا ، والحادية والخمسون في ترتيب المصحف الشّريف. جاء في مطلَعها قسَمٌ بالذّاريات فالحاملات فالجاريات فالمُقسّمات ، والمُقسَمُ عليه هو أنَّ ما وعد الله تعالى به الخلقَ هو حقٌّ وصِدقٌ ، وبأنَّ الدِّين لا محالةَ واقعٌ.

جاء في الجامع لأحكام القرآن عن عليّ رضي الله عنه، أنَّ الذّاريات هي الرّياحُ ، والحاملات هي السّحابُ المُوقَرَةُ بالماء ، والجاريات هي السُّفُنُ الجواري في البحر ، والمُقسّماتُ هي الملائكةُ[٢].

ثُمَّ جاء بعد ذلك قسَمٌ ثانٍ بالسّماء ذات الحُبُك ، أي ذات الزّينة بالمصابيح المُضيئة والكواكب النَّيِّرة، بأنَّ أمرَ النّاس في أمرٍ مُختلِفٍ ، قدْ هُدِيَ إليه مَنْ هُدِيَ ، وأُفِكَ عنه مَنْ أُفِكَ.

---

(١) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج١ ، ص ٢٤٩.

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج١٩ ، ص ٤٦٨.

ثُمَّ وصمَ البيانُ القرآنيُّ الخرّاصين الذين يحكمون بالظّنون من غير أدلّة صحيحةٍ ولا براهين قاطعة ، المُستهزئين بيوم الدّين بأنَّهم قُتِلوا ولُعِنوا ، وبأنَّ مصيرَهم إلى النّار ، ثُمَّ ذكر بالمُقابل المُتّقين الذين يكونون في جنّاتٍ وعيونٍ ، آخذين ما آتاهم ربُّهم من إكرامٍ ونعيم ، جزاءً لإيمانهم وإحسانهم العمل في دار الابتلاء ، ثُمَّ ولِيَ ذلكَ حديثٌ عن عظمة الخلق ودلالته على عظمة الخالق.

ثُمَّ جاء في السّورة حديثٌ موجزٌ عن جملةٍ من الأقوام الذين كذّبوا رسل الله مثل قوم نوح ، وفرعون وجنوده ، وعاد وثمود ، وأمثالهم مِمَّن ألحق الله تعالى بهم العذاب ، وأنزلَ بهم بأسه لكُفرهم وإجرامهم وإسرافهم في المعاصي وتنكُّبهم عن صراط الله المُستقيم.

سورة المُرسلات:

هي سورةٌ مكّيّةٌ عند جمهور أهل التّفسير ، وهي السّورةُ الثالثة والثّلاثون في التّرتيب المُصحفي ، نزلت بعد سورة الهُمَزة وقبل سورة ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾[1] .

بدأها الباري جلَّ ثناؤُه بالقَسَم بالمرسلات فالعاصفات فالنّاشرات فالفارقات فالمُلقيات ، وهي أنواعٌ من الرّياح ، أوطوائفُ من الملائكة كما جاء عند أهل التّفسير[2] .

جاء في مطلَعها القسمُ بأنَّ الدّين واقع ، وتمَّ تَعدادُ بعض الأحداث التي تسبِقُ قيامَ السّاعة مثلَ طَمْس النُّجوم ، وشَقِّ السّماء ،

---

(١) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج١ ، ص ٢٤٩ .

(٢) انظر الطبري ، جامع البيان ، ج٢٣ ، ص ٥٨٠ وما بعدها ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج٢١ ، ص ٤٩٤ إلى ٤٩٧ ، والكشاف ، ج٤ ، ص ٦٧٧ .

ونَسْف الجبال، وتأقيت الرُّسل، وجاء فيها تهويلٌ وتفخيمٌ ليوم الفصل والجزاء.

تكرَّر فيها قولُه تعالى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشرَ مرّات، وهذه الجُملةُ لازمةٌ تمَّ تكريرُها لإلحاق مزيدٍ من الرُّعب والفزع في قلوب المُشركين المُكذّبين بيوم البعث، تقعُ كأنَّها قذائِفُ تهزُّ قلوبهم هزًّا عنيفًا رغبةً في ردِّها إلى خالقها.

وقد ورد فيها ذِكرُ مصير المُكذّبين السّابقين بيوم الدّين، وَوَصْفُ مصيرهم المشؤوم في ذلك اليوم العسِر، وعرَّجَتْ على ذِكر مثوى المُتّقين الذين يتقلّبون بما وفّقهم الله تعالى إليه في ظلال وعيون وفواكه مِمّا يشتهون، وتمَّ خَتمُها بالدّعوة إلى الإيمان بهذا الحديث العظيم الذي أنزله الله عزَّ وجلَّ على قلب محمد ﷺ مُعجِزةً عقليّةً خالدةً إلى يوم الدّين.

سورة النّازعات:

سورةُ النازعات مكّيّةٌ باتّفاق أهل العلم بالتّنزيل، وهي التّاسعةُ والسّبعون من حيثُ التّرتيبُ المُصحفيّ، نزلت بعد سورة النّبأ وقبل سورة الانفطار(١).

تناولت قضيّةَ البعث بعد الموت، وجاء في مطلعها القسَمُ بالنّازعات والنّاشطات والسّابحات والسّابقات والمُدبّرات، وقد روى المُفسّرون أقوالًا في تحديد المخلوقات الموصوفات بتلك الأوصاف التي جاء القسمُ بها(٢).

---

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص ٢٥٠.
(٢) انظر: الطبري (تحقيق محمود شاكر)، جامع البيان، ج٢٤، ص ١٨٥، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٩، ص ١٩٠.

وقد تمحورت آياتُها حول إثبات النّشور بعد الموت ، بعد أن تُصبحَ العظامُ رميمًا ، وأبطلت أقاويل المُشركين الذين يُكذّبون بالبعث مُستمسكين بمزاعمَ واهيةٍ داحضةٍ ، وبيّنت بأنَّ تكذيبَهم ناشئٌ عن طُغيانٍ وتجبُّر ، وضربت لهم مثلًا من أحداث المُكذّبين الطّاغين ، حيثُ جاء فيها حديثٌ مُزلزِلٌ عن سلفِهم فرعون ، الذي طغى وعثا في الأرض فسادًا ، ولم يرتدِعْ حتّى أخذه الله نكالَ الآخرة والأولى.

وقد عرّجت في معرض حديثها عن البعث والنّشور على ذِكر خَلْقِ السماوات والأرض وما بينهما ، ودلالة ذلك على طلاقة مشيئة الخالق ، وعظيم قدرته.

ثمّ جاء في ختامها بيانُ أنَّ وظيفة الرّسول هي التَّذْكيرُ بقرب وقوع السّاعة ، والدّعوة إلى توقّي العذاب في ذلك اليوم المُرعِب ، وليس من شأنه أن يبيّن وقتَ وقوعها.

من خلال قراءة السّور الأربع (الصّافّات والذّاريات، والمُرسلات، والنّازعات) ، وتسليط أضواء البيان الكاشفة على آيها وكلماتها ، وترتيب موادّها ، وأنواع صِيَغها ؛ تتجلّى جُملةٌ من الرّوابط المُعنويّة واللّفظيّة بينها ، تجعلُ كلَّ ذي لُبٍّ سويٍّ يحكمُ بأنّها تتفجَّرُ من ينبوعٍ واحد ، وهي أغصانُ جِذعٍ واحد ، تفتّحت أكمامُها ، وأينعت أوراقُها بشتّى الأشكال والألوان ، وهي ـ على تنوُّعها وتعدُّدها ـ تحمِلُ ملامحَ نسبٍ واحد ، ومعالمَ سُلالةٍ واحدة ، وفيما يأتي شيءٌ من التّفصيل:

تلتقي سورة الصّافّات والذّاريات والمُرسلات والنازعات في جملة وجوه منها:

١ ـ تَشابُهُ صيغ القسم في مطالعها؛ إذ جاء القسم في مطالع السّور الأربع في شكل صيغة اسم الفاعل في حالة الجمع (فاعلات

ومُفعّلات ، ومُفْعِلات) في الأغلب: (الصّافّات ، الزّاجرات ، التّاليات ، الذّاريات ، الحاملات ، الجاريات ، المقسّمات ، العاصفات ، النّاشرات ، الفارقات ، المُلقيات ، النازعات ، النّاشطات ، السّابحات ، السّابقات ، المُدبّرات).

٢ ـ جاءت صيغة اسم المفعول مرّة واحدة: المُرسلات.

٣ ـ تناوَبَ الحرفان الواو والفاء في الرّبط بين الكلمات المُقسَم بها:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١ ـ ٣].

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١ ـ ٤].

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١ ـ ٥].

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٥].

وقد تعدَّدت أقوالُ المُفسّرين في توجيه العطف بالفاء تارة ، والعطف بالواو تارة أخرى في هذه المطالع.

جاء في الكشّاف في موضع تفسير سورة الصّافات: «فإنْ قُلتَ: ما حُكمُ الفاء إذا جاءت عاطفةً في الصّفات؟ قلتُ: إمّا أن تَدُلَّ على ترتُّب معانيها في الوجود ، كقوله:

يا لَهفَ زيّابَةَ للحارثِ الصْ صابِحِ فالغانِمِ فالآيِبِ

كأنّه قيل: صبّح فغَنِمَ فآبَ؛ وإمّا على ترتُّبها في التّفاوُتِ من بعض الوُجوه ، كقولك: خُذِ الأفضلَ فالأكملَ ، واعمل الأحسنَ فالأجملَ؛ وإمّا على ترتُّبِ موصوفاتها في ذلك ، كقولك: رَحِمَ الله المُحلِّقين

فالمُقصِّرين؛ فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساقُ أمْرُ الفاء العاطفةِ في الصِّفات. فإن قلتَ: فعلى أيِّ هذه القوانين هي فيما أنتَ بصدده؟ قلتُ: إنْ وَحَّدْتَ الموصوفَ كانت للدِّلالةِ على تَرَتُّب الصّفات في التّفاضُل، وإن ثَلَّثْتَه فهي للدِّلالة على ترتُّبِ الموصوفات فيه، بيان ذلك: أنَّك إذا أجريتَ هذه الأوصافَ على الملائكة وجعلتَهم جامعين لها؛ فَعَطفُها بالفاء يُفيدُ تَرتُّبًا لها في الفضل، إمّا أن يكونَ الفضلُ للصّفّ ثُمَّ للزّجر، ثُمَّ للتلاوة، وإمّا على العكس، وكذلك إن أردتَ العُلماءَ وقوّادَ الغُزاة.

وإنْ أجريْتَ الصّفةَ الأولى على طوائفَ والثّانيةَ والثّالثةَ على أُخَرَ؛ فقد أفادت تَرَتُّبَ الموصوفات في الفضل، أعني أَنَّ الطّوائفَ الصّافّات ذواتُ فضلٍ، والزّاجراتُ أفضلُ، والتّالياتُ أبهرُ فضلًا، أو على العكس، وكذلك إذا أردتَ بالصّافّات: الطّير، وبالزّاجرات: كلَّ ما يزجُرُ عن معصيةٍ، وبالتّاليات: كلّ نفسٍ تتلو الذِّكر؛ فإنَّ الموصوفاتِ مختلفةٌ»[١].

٤ - المُقسَمُ به في السّور الأربع هو الملائكةُ أو الرّياح أو السُّحُب أو آياتُ القرآن، على اختلاف بين أقوال المُفسّرين:

جاء في مفاتيح الغيب في موضع تفسير الصّافات: «في هذه الأشياء الثلاثة المذكورة المُقسَم بها، يحتملُ أن تكونَ صفات ثلاثة لموصوف واحد، ويحتملُ أن تكونَ أشياء ثلاثة متباينة»[٢]. ثُمّ فصّل القول في الأقوال الثلاثة، ومُلخّصُها أنّها الملائكةُ أو الصفوفُ الحاصلةُ من العلماء المُحقّين الذين يدعون إلى دين الله تعالى، أو

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٣٤.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٦، ص ٣١٣.

صفوفُ الغزاة المُجاهدين في سبيل الله تعالى ، أو صفات لآيات القرآن ، وذكرَ احتمالًا ثانيا مُفادُهُ أنَّ المُرادَ بالصّافات فالزّاجرات فالتّاليات طوائفُ مختلفة[١] .

وقد ذكر الإمامُ الطبريّ في مطلع تفسير سورة المُرسلات وُجوهًا مختلفةً للعلماء ، الذين روى عنهم المرادَ بالمرسلات وأخواتها العاصفات والنّاشرات والفارقات والمُلقِيات ؛ حيثُ ذكرَ أنَّ المرسلات هي الرياح أو الملائكة التي تُرسَلُ بالعُرف ، وروى عن جمع من العلماء بأنَّ العاصفات هي الرّياح ، وروى اختلافهم في النّاشرات حيثُ ذهب بعضُهم إلى أنّها الرّياح ، ورأى آخرون بأنّها المطر ، وعن آخرين بأنّها الملائكة تنشرُ الكتب ، وروى عن آخرين أنَّ المراد بالفارقات الملائكة أو آيات القرآن التي تُفرِّقُ بين الحقّ والباطل ، وروى إجماعهم بأنَّ المُلقيات هي الملائكة التي تُلقي الذِّكرَ على الرّسل وتُبلِّغُه[٢] .

وأيًّا ما كان المُرادُ بالطّوائف المَذكورة في مطلع كلّ سورة ، فالمعنى العام أنَّ الله تبارك وتعالى شرَّفَ هذه الطّوائفَ على غيرها بإقسامه بها ، ومجيءُ القسم بها بصيغٍ مُتشابهة يدلُّ على أنَّ بينها وشيجةَ قُرْبى قويّةً ، ورابطةَ نسبٍ متينةً .

هذا من ناحية ، ومن ناحيةٍ أخرى ، فإنَّ ملمحَي التّناظر والاتّساق في بناء السّور القرآنية يدعوان إلى ترجيح القول بأنَّ (الصّافّات) هي الملائكةُ ؛ لأنّه في نهاية السورة نفسها ورد قول الملائكة : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٥ ـ ١٦٦] .

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج ٢٦ ، ص ٣١٥ .
(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج٢٣ ، ص ٥٨٠ ـ ٥٨٩ .

فالملائكةُ هم الصّافّات ، وهم الصّافون ، وقد ورد اللفظ بالتّذكير والتأنيث دفعًا للوهم ، الذي قد ينجمُ عند ضعاف النفوس ومحدودي الإدراك ، أنَّ الملائكة إناثٌ نظرًا لمجيء اللفظ (الصّافات) بصيغة جمع المؤنث؛ فهم ليسوا إناثًا ، ولا ذكورًا ، بل هم خلقٌ آخرُ يختلف عن عالمي الإنس والجنّ.

والذي يُؤكِّدُ هذا الفهم (مراعاة التّناظر والاتّساق في الاختيارات اللفظية) ، أنَّ البيان القرآنيَّ حريصٌ على انتقاء الألفاظ التي تؤدّي الغرضَ المراد ، مع مراعاة الثّوب اللّفظي العام للسورة ذاتها؛ وكلّما كانت الألفاظ المؤدّية للغرض من نفس القالب اللفظي حسُنَ ذلك عند السّامع ، وراقه ، وهزَّ وِجدانه ، وأحدث لديه نشوةً ولذّةً معنويّة ، يجدُها ويستمتِعُ به كلُّ ذي مشرَبٍ أدبي بديع ، وذوق فنّي رفيع.

من ذلك في السّياق نفسه ، توظيفُ لفظ (المسبّحون)؛ حيثُ إنَّ اسم الفاعل من الفعل (سبّح) لم يرِدْ في القرآن كلّه بالصّيغة الاسميّة إلّا في سورة الصّافّات مرّتين: في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤] ، وفي قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦]؛ فقد انتقى البيان القرآني من صفات يونس عليه السلام صفةَ كونه من المُسبّحين ، وتناظر التعبير واتّسقَ بين لفظ (المُسبّحون) الذي ورد في حقّ الملائكة ، ولفظ (المُسبحين) الذي ورد في حقّ يونس عليه السلام.

بالمُقابل نجد أنَّ المشهد ذاته جاء ذكرُه في سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾؛ حيثُ لم يقل: لولا أنّه كان من المسبّحين ، وإنّما قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [ن: ٤٩] ، وبهذا تناظرَ آخِرُ السّورة مع أولها؛ حيثُ قال تعالى في حقّ محمد ﷺ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ

رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [ن: ٢] ، وقال في حقّ يونس: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [ن: ٤٩]. ألا ما أعظمَ هذا التّناظر في التّعبير القرآني ، وما أعظمَ هذا الاتّساق في البناء!!

٥ ـ تكرّرت مادّة (زجر) ٤ مرّات: ثلاثٌ منها في سورة الصّافّات: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ [الصافات: ٢] ، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩] ، وموضعٌ واحدٌ في سورة النازعات: في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣].

والمراد بالزّاجرات الملائكةُ التي تزجُرُ السّحابَ في سَوقه وتأليفه: قال ابنُ عطيّة: «الملائكة التي تزجُرُ السّحابَ وغير ذلك من مخلوقات الله تعالى» ، أو «آيات القرآن المُتضمّنة النّواهي الشّرعيّة»[١].

وجاء في الكشاف: «فالزاجرات السّحاب سَوْقًا»[٢].

والزّجرةُ في اللغة: «الصّيحةُ التي يُزجَرُ بها ، كالزَّجرة بالنَّعَم والإبل عند الحثّ ، ثُمَّ كثُرَ استعمالُها حتى صارت بمعنى الصّيحة وإن لم يكنْ فيها معنى الزّجر»[٣]. والمعنى ذاته ينطبِقُ على لفظ (الزجرة) في النّازعات. قال الزمخشري في بيان تعلّق الكلام بعضه ببعض: «فإنْ قلتَ: بمَ تعلّقَ قولُهُ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؟ قلتُ: بمحذوفٍ معناه: لا تستصعبوها ، فإنّما هي زجرةٌ واحدةٌ ، يعني: لا تحسبوا تلك الكَرَّةَ صعبةً على الله عزَّ وجلَّ ، فإنّها سهلةٌ هيِّنةٌ في قُدرته ، ما هي إلّا صيحةٌ واحدةٌ ، يريدُ النّفخةَ الثّانيةَ فإذا هم أحياءٌ

---

(١) ابن عطيّة ، المحرّر الوجيز ، ج٤ ، ص ٤٦٥.
(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ج٤ ، ص ٣٣.
(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج٢٦ ، ص ٣٢٦.

على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتًا في جوفها»[١].

هذا ، ولم تَرِد مادّة (زجر) في جميع القرآن الكريم إلا في هذه المواضع الأربعة من الصّافّات والنازعات ، وهذا شاهدٌ آخرُ على تشابه الثّوب اللّفظي للسّور المتشابهة الأنساق التعبيرية في مطالعها.

هذا الاستعمال ، أقصد استعمال كلمة (زجرة) بمعنى (صيحة) بتفسير جميع المفسرين ، يقود القارئَ إلى التّساؤل: لماذا جاء التعبير عن النّفخة الثانية بالصَّيحة تارة ، وبالزّجرة تارة أخرى؟

والجوابُ: إنَّ لكل سورةٍ ثَوبَها اللفظي ، واعتبارات يُراعيها البيانُ القرآنيُّ ، وهو ينتقي الموادَّ المُعجميّة التي تناسب الدّلالات المُرادة ، فالحديثُ عن الزّجرة في الصّافّات والنّازعات مُؤشّرٌ على استعمال مادة (صيحة) في سورة ﴿يسٓ﴾ ، التي تنسجمُ فيها ياء (صيحة) مع ياء ﴿يسٓ﴾[٢].

قال عزّ وجلّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

وهو أيضًا مؤشّرٌ دقيق على استعمال (صيحة) في سورة ﴿صٓ﴾ ، التي جاءت الكلمات المفتاحيّة فيها مُكوّنةً من حرف الصّاد وعائلته الأقرب فالأقرب.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥].

---

(١) الكشاف ، الزمخشري ، ج٤ ، ص ٤٩٦.

(٢) انظر: كتابنا: الأساور المرصّعة في أسرار الأحرف المقطّعة ، دراسة تحليلية لسورة يس.

٦ ـ التّشابُه في بناء العبارة المِفتاحيّة، حيثُ جاءت الجملةُ الأولى في مطلع كل سورة مُكوَّنةً من اسم الفاعل المُقسَم به في حالة الجمع (الصّافات، الذاريات، النازعات)، أو اسم المفعول المقسم به في حالة الجمع (المرسلات) مع معمولٍ منصوب، هو مفعول به أحيانًا في مثل: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾، ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾، أو مفعولٌ مُطلقٌ في مثل: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾، أو مفعولٌ لأجله مثل: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾.

وكذلك التّشابه في اختيار الكلمات المنصوبة، التي تنتهي براء عليها تنوين فتح مثل: (ذكرًا، وِقرًا، يُسرًا، أمرًا، نشرًا، ذِكرًا، عُذرًا أو نُذرًا، أمرًا).

وهذا الاختيارُ يُحدثُ إيقاعًا صوتيًا يُناسبُ الدلالات المرادة، ويجعلُ القارئَ يربطُ في ذهنه بين الآيات ونسيجها العام، ودلالاتها المتنوّعة.

٧ ـ في سورة الصّافّات جاء ذِكرُ تزيين السّماء الدّنيا بزينة الكواكب في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصّافّات: ٦]، وجاء في الذّاريات القسمُ بالسّماء ذات الحُبُك: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، والحُبُك جميع حبيكة، مثل: طُرُق جمع طريقة، والحبيكةُ الطّريقةُ في الرّمل وغيره، وقد عدَّد القرطبيُّ سبعة معانٍ للسّماء ذات الحُبُك هي:

الأول: ذات الخَلْقِ الحسن المُستوي، من حَبَك النّسّاجُ الثَّوبَ يَحبِكُهُ حَبْكًا، أي: أجادَ نسْجَه. قال ابنُ الأعرابي: كلُّ شيءٍ أحكمتَه وأحسنتَ عملَه فقد احْتَبَكْتَه.

الثاني: ذات الزّينة.

الثالث: ذات النّجوم.

الرابع: ذات الطّرائق.

الخامس: ذات الشّدّة.

السادس: ذات الصّفاقة.

السّابع: المرادُ بالطُّرق المَجرَّةُ التي في السّماء.

نخلُصُ إلى أنَّ هذه المعاني متقاربة، وتنطبِقُ كلّها على السّماء؛ فهي ذاتُ طرائق، وذات شِدّة، وذات نجوم تُزيِّنُها، وهي بهذه المعاني والدّلالات تتقاربُ وتتناظرُ مع تزيين السّماء بالكواكب في سورة الصّافّات.

٨ - ورد في الصّافّات أمْرُ رسول الله ﷺ أن يستفتِيَ قومَه عن مسألتين مهمّتين: مسألة خلقهم وخلق الكون من حولهم، ومسألة ادّعائهم أنَّ الملائكة إناثٌ، وظنّهم واعتقادهم الباطل بأنَّ الملائكةَ هم بناتُ الله.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: ١١].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٠].

هذا، ولم يرِدْ أمرُ رسول الله ﷺ بأن يستفتيَ قومه بهذه الصّيغة إلّا في هذه السورة، وهذا أيضًا من الاتّساق في بناء السورة، خصوصًا وأنَّ الاستفتاء الأوّل جاء في بداية السورة (الآية ١١)، والاستفتاء الثاني جاء في نهاية السورة (الآية ١٤٩) مِمّا يدلُّ على القصد والحكمة في عرض موادّ السورة الواحدة في تناظر واتّساقٍ جميلين.

من ناحية أخرى جاء في سورة الصّافّات دعوةٌ إلى المقارنة بين خَلْق الإنسان وخَلْق الكون، في صيغة استفهامٍ يهُزّ نفوسَ المُخاطَبين، ويدعوهم إلى التّفكُّر والتّدبُّر في خلقهم وفي خلق السماوات والأرض وما بينهما، ليُدرِكوا قيمةَ هذا الإنسان المُتكبِّر على خالقه: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

والاستفهامُ ذاتُه وردَ في سورة النّازعات في صيغة جديدة: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

ومن جميل التّناظُر أنَّ القرآنَ الكريمَ فصّل في جانب خَلقِ الإنسان في سورة الصّافّات، ووفّى الجانبَ الثّاني من المُعادَلة حقّه في النّازعات: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣].

٩ - جاء في سورة الصّافّات تساؤلٌ على ألسنة المُشركين المُنكرين للبعث؛ حيثُ قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصّافّات: ١٧]. كما ورد فيها ذِكْرُ نبأ الرّجلِ الذي كان له قرينٌ يُشكّكُه في قيام السّاعة، والبعث بعد الموت؛ حيثُ روى القرآنُ أنّه كان يقولُ لصاحبه: ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصّافّات: ٥٣].

والاستفهامُ ذاتُهُ تكرَّرَ على ألسنة المُشركين المُنكرين للبعث في سورة النّازعات، حيثُ جاء على ألسنتهم: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١١]، وهذا من الرّوابط الموضوعيّة بين السّورتين.

١٠ ـ جاء في الصّافّات حديثٌ عن يوم القيامة باسميه: يوم الدّين، ويوم الفصل: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصّافّات: ٢٠ ـ ٢١]، ثُمَّ جاء تفصيلُ الحديث عن يوم الدّين، وتساؤل المُشركين عنه في سورة الذّاريات: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذّاريات: ٥ ـ ٦]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذّاريات: ١٢]، وورد حديثٌ مُفَصَّلٌ عن يوم الفصل في سورة المُرسلات: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٢ ـ ١٤]، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٨ ـ ٣٩].

وبهذا التّوزيع يتجلّى كيفَ أنَّ سورةَ الصّافّات احتوت على أصول الشّبكة، التي منها تمَّ توزيعُ المواضيع والدّلالات على أخواتها الثلاث (الذّاريات، والمُرسلات، والنّازعات)، ولو مثّلنا العلاقة بين السّور الأربعِ برسم هندسيّ لوضعنا سورة الصّافّات مركزَ دائرة، وكانت أخواتها أنصافَ أقطار هذه الدّائرة، ولو شبَّهناها بشجرةٍ لكانت الصّافّاتُ جذعًا كبيرًا تتفرّعُ عنه أغصانُ السّور الثلاث.

١١ ـ جاء في الصّافّات حديثٌ مُكرَّرٌ عن الجحيم:

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصّافّات: ٢٣].

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨].

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

وهذا الاستعمالُ المُتكرّرُ يدلُّ على القصد، ويدلُّ على مراعاة الاتّساق في انتقاء الألفاظ التي تتناسبُ مع جوّ السّورة؛ فقد دعاهم

إلى أن يرشدوا المُشركين إلى صراط الجحيم تهكُّمًا بهم وسخريةً؛ فهم عطّلوا وسائل الإدراك لديهم في الحياة الدّنيا ، ولم يتّبِعوا صراطَ الله المُستقيم ، فجزاؤُهم في يوم الدين أُنْ يُهدَوْا إلى صراط الجحيم.

والزّقومُ شجرةٌ طلعُها كأنّه رؤوسُ الشّياطين ، وهي تقعُ في أصلِ الجحيم ، والمُشركون الذين ضلّوا عن سبيل التّوحيد الحقّ ، واقتفَوْا آثارَ آبائهم الضّالّين ، مرجِعُهم في يوم الدّين إلى الجحيم ، وإبراهيم عليه السلام لمّا أجمع قومُه المشركون أن ينتقِموا منه ، وأعدّوا له نارًا مُتأجِّجةً سمّوْها جحيمًا ، وقالوا: ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

واسمُ الجحيم ذاته يتكرّرُ في سورة النازعات ، حيثُ إنَّ الجحيمَ تُبَرَّزُ لأصحابها في يوم الطّامّة الكُبرى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] ، وأمّا الذي طغى وآثرَ الحياةَ الدُّنيا فإنَّ الجحيم هي مأواهُ الأخير: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

أمّا في سورة الذّاريات ، فقد تمَّ ذِكرُ النّار باسمها العام (النّار) ، وذلك تناسبًا مع ذكر (الجنّات) العام: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، وجاء بعدها ذكرُ حُسْن مصير المتّقين في جنّات وعيون: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥].

أمّا في سورة المُرسلات ، فجاء الحديثُ عن الجنّة والنّار عن طريق الكناية؛ فالنّارُ تمَّ ذِكرُها بهاء الكناية التي تعودُ عليها ، وجاء وصفُ شررها ولهبها: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢ ـ ٣٣] ، والجنّةُ تمّ ذكرُها بالكناية بتمتّع المُتّقين بما فيها من ظلالٍ وعيون: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: ٤١ ـ ٤٢].

فانظر، يا رعاك الله، كيف تمّت مقابلةُ الاسم الصّريح بالاسم الصريح في الذّاريات (النار) (جنات)، وجاء مقابلة هاء الكناية التي تعود على النار بالتّكنية عن النار وذكر لوازمها، وعدم التصريح باسمها في المرسلات. ألا فما أعظمَ هذا الاتّساق!!.

١٢ - جاء تسجيلُ تساؤُل أهل الجنّة فيما بينهم، وأهل النّار فيما بينهم في الصّافّات بالصّيغة نفسها مرّتين: سجّلت الآيةُ (٢٧) تساؤُلَ أهل النّار: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، وسجّلت الآيةُ (٥٠) تساؤُلَ أهل الجنّة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠].

١٣ - جاء في الصّافّات وصمُ أهل الجحيم بأنَّهم كانوا قومًا طاغين: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ [الصّافّات: ٣٠]، وأوردت الذّاريات الوصفَ ذاته للمشركين الذين كفروا بالإسلام، ووسموا رسول الله بوصفَي الشّعر والجنون: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

أمّا النّازعات، فجاء فيها ذِكرُ مادّة الطُّغيان في موضعين؛ ففرعونُ طغى وتجاوز كلّ حدّ في الكفر والتّجبُّر: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]، والجحيمُ هي المثوى الحقيقي لكلّ من طغى وآثر الحياة الدُّنيا على الآخرة: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النّازعات: ٣٧ - ٣٩].

فالسّمةُ البارِزَةُ للذين يصْلَوْنَ الجحيم في الصّافّات والذّاريات والنّازعات؛ هي الطُّغيانُ.

١٤ - جاء في الصّافّات تعليق عن الذين يستكبرون عن قول لا إله إلا الله، ويُصرّون على الشّرك العظيم؛ بأنّهم مُجرمون: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ

نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٤]، وجاء التّعليقُ ذاتُه في المرسلات بعد ذِكر الأوّلين والآخرين من المُكذّبين: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨].

والفرقُ بين العبارتين فقط هو أنَّ العبارةَ التي وردت في الصّافّات جاءت مُؤكَّدةً بحرف (إنّ): ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ...﴾، وسببُ ذلك ـ والله أعلمُ ـ مُراعاةُ الاتّساق العام لبناء جمل وعبارات سورة الصّافّات، حيث جاء أغلبُها مُؤكّدًا حسبَ ما يقتضي فنُّ القول:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ٤].

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصّافّات: ٦].

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ [الصافات: ٣١ ـ ٣٢].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٤].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ [الصافّات: ٣٨].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٦٠].

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصّافّات: ٦٣].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصّافّات: ٦٤]، وآياتٌ أُخرُ.

١٥ ـ والأمرُ ذاتُه ينطبِقُ على عبارة ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ حيثُ تكرّرت هذه الجملةُ في الصّافّات خمس مرّات، واحدة منها بدون توكيد في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام، وسببُ

ورودها غيرَ مُؤَكّدة ؛ هو سَبْقُ ورودها مُؤَكّدة في حقّه عليه السلام في السّياق ذاته: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصّافّات: ١٠٤ ـ ١٠٩].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ٨٠].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصّافّات: ١٢١].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصّافّات: ١٣١].

ووردت الجملةُ ذاتُها مؤكّدةً في المُرسلات: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المرسلات: ٤٤].

أمّا في بقيّة المواطن في السور الأخرى فجاءت بدون دخول (إنّا) المُؤكّدة عليها:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٤].

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢].

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤].

فأنت ترى، أخي القارئ، أنَّ عبارة ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ جاءت مؤكّدةً في السّورتين المُتناظرتين المُتقاربتين (الصّافات والمرسلات)، وجاءت العبارة بدون تأكيد ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ في سورٍ أخر.

١٦ - تحدّثت سورة الصّافات أنَّ الله تبارك وتعالى أنجى نوحًا وموسى وهارون عليهم السّلام من الكرب العظيم:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٦].

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ١١٥].

وفي إنجاء نوح عليه السلام من الكرب العظيم، وإنجاء موسى وأخيه هارون وقومهما من الكرب العظيم، أي: في توحيد النتيجة التي تجمعهما، على الرّغم من بُعد المسافة الزمنية بينهما، ما يشي بالعلاقة التلاحمية بين الرسالتين، وما يدلّ على ملمح الاتّساق في بناء سورة الصافات، كما تتمتَّعُ به أخواتُها المكيّات والمدنيّات.

١٧ - ومن الاتّساق اللّفظي أيضًا الذي تتفتّقُ أكمامُه في الصّافّات تكرير استعمال وصف (سقيم)، حيثُ ورد في قوله جلّ ثناؤه: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصّافّات: ٨٨ - ٨٩]، وفي قوله تقدّست أسماؤه: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ١٤٥].

جاء في المفردات: «السَّقَمُ والسُّقْمُ: المرضُ المُختصُّ بالبدن، والمرضُ قد يكونُ في البدن وفي النَّفس»[(١)].

وقال الزّمخشري في معرض حديثه عن قول إبراهيم: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ في الصّافّات: «إنّي مُشارِفٌ للسُّقم، وهو الطّاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العَدوى ليتفرّقوا عنه»[(٢)].

قد تكون ثمّة فروق دلاليّة دقيقة اقتضت توظيف لفظ (سقيم) مرّتين في الصافات، ولكن المؤكّد أنَّ الاتّساقَ العام، ومراعاة

---

(١) الراغب، المفردات، مادة سقم.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٤٩.

التّناظر والتّجاذب في توظيف الموادّ المُعجميّة مرعيٌّ ، وهذا ما تُؤكّدُه هذه المقاربة التّفسيريّة بشأن تشارك كل أسرةٍ أو مجموعة من السّور المتشابهة في مطالعها ، والمتّسقة في أثوابها اللفظية .

١٨ - ومن الاتّساق في المضامين ، عَرْضُ حادثة تبشير الملائكة لإبراهيم بالغلام الحليم في الصافات ، وتبشيره بالغلام العليم في الذّاريات :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصّافّات : ٩٩ ـ ١٠١] .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذّاريات : ٢٥ ـ ٢٨] .

والمُراد بالغُلام الحليم في الصّافّات ، هو إسماعيل عليه السلام ، بدليل أنَّه بعد البشارة بالغلام الحليم ، وبلوغه معه السّعي ، ووقوع حادثة الذّبح كما أخبرتنا بها الآياتُ ؛ جاء قوله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصّافّات : ١١٢] .

أمّا الغُلامُ العليم الذي جاءت به البُشرى في الحِجر والذّاريات ، فهو إسحاقُ عليه السلام .

١٩ - ومن الاتّساق اللفظي أيضا توظيف الوصف (معلوم) في سورتَي الصّافّات والمرسلات :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : ٤١] .

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : ١٦٤] .

﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [المرسلات : ٢٢] .

٢٠ - جاء في الصّافّات حديثٌ عن عباد الله المُخلَصين الذين يكونُ مُستقرُّهم في يوم الدين في جنّات النّعيم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤١ - ٤٧].

وجاء في الذّاريات حديثٌ عن مثوى المتّقين في جنّات وعيون: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥].

وجاء في المرسلات حديثٌ عن مثوى المتقين في ظلال وعيون: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ [المرسلات: ٤١].

وقد جاء كلُّ تعبير على ما يُناسبُ ويُلائمُ؛ ففي الصّافّات جاء ذِكرُ (عباد الله المُخلَصين)، وديدنُ القرآن أن يذكرَ في جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم مخلصون لله تعالى، أن يُدخِلَهم جنّات النّعيم:

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج: ٥٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١١ - ١٢].

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [ن: ٣٤].

وما جاء في سورة الذّاريّات (جنّاتٍ وعيون) أيضًا ، هو متناسبٌ مع ديدن القرآن في ذِكر مجازاة المُتّقين بأنّ لهم جنّاتٍ وعيونًا:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان: ٥١ ـ ٥٢].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات: ١٥].

وقد جاء التعبير مرّةً واحدةً بقوله (في ظلالٍ وعيون) ، وسببُ العدول إلى لفظ (ظلال) ـ والله أعلم ـ هو مراعاة الاتّساق والتّناظر مع ذِكرِ الظلّ الذي يُعدُّهُ الله للكافرين في النار في السياق ذاته؛ حيثُ إنّه ظلٌّ ذو ثلاث شُعب ، لا ظليل ولا يُغني من اللّهب؛ ففي معرض الحديث التّهكُّمي عن الظّلّ الذي لا يُغني من اللّهب ، حسُنَ ذِكرُ المُتّقين الذين يتنعَمون في ظلالٍ باردة تحت أشجار وارفة: ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٠ ـ ٤٢].

٢١ ـ جاء في سورة الصّافّات حديثٌ عن التقام الحوت يونس عليه السّلام وهو مُليمٌ: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات: ١٤٢] ، ومعنى (مُليم): أتى ما يُلامُ عليه. قال الزّجّاج: «قد ألامَ الرّجُلُ فهو مُليمٌ؛ إذا أتى ما يجبُ أن يُلامَ عليه» [١] ، وقال الزّمخشري: «وهو مُليمٌ: داخلٌ في الملامة» [٢].

---

(١) الطّيبي ، فتوح الغيب ، ج١٣ ، ص ٢٠٢.

(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ج٤ ، ص ٦١.

والوصفُ ذاتُه (مُليم) جاء توظيفُه في سورة الذّاريات في شأن عرض إغراق فرعون وجنوده ونَبْذهم في اليم. قال جلَّ شأنه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠]، والتّفسيرُ ذاته أيضًا ينطبِقُ على فرعون، مع الفارق في درجة اللّوم؛ إذْ إنَّ اللّومَ الذي جاء في نبيّ الله يونس عليه السلام؛ من قبيل اللّوم على مخالفة ما هو أَوْلى، أي: من باب قولهم: «حسنات الأبرار سيّئاتُ المُقرَّبين». أمّا لومُ فرعون فهو لومُ تقريع وتوبيخ على الكفر والطُّغيان والعصيان وسفك دماء الأبرياء، وغير ذلك من خطاياه العظيمة.

وقد انتبه العلّامةُ الزّمخشري إلى استعمال الوصف في حقّ نبي الله يونس عليه السلام، واستعماله في حقّ فرعون. قال في الكشاف: «فإنْ قُلتَ: كيفَ وصفَ اللهُ نبيَّ الله يونسَ صلوات الله عليه، بما وصفَ به فرعون في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]؟

قلتُ: مُوجِباتُ اللّوم تختلِفُ، وعلى حسَبِ اختلافِها تختلِفُ مقاديرُ اللّوم؛ فراكبُ الكبيرة مَلومٌ على مِقدارها، وكذلك مُقترِفُ الصّغيرة»[1].

أقول: لَعمْرُ الله، لقدْ أطلَّ الزّمخشريُّ في كشّافه على النّبع الفيّاض لمَلْمح الاتّساق اللّفظي بين السّور المتشابهة الأنساق التّعبيريّة في مطالعها، ولكنّه لم يُواصل الحَفْر، وإنَّه لخليقٌ ـ بما أضاف من تحليلاتٍ بلاغية في نصوص التّنزيل ـ أن يُلَقّبَ بالمُستَكشف الأوّل للبُعد الصّوتي للأحرف المُقطّعة، ولمراعاة مَلمَح التّناظر والاتّساق بين شخصيّات السّور القرآنيّة المتشابهة المطالع لولا توقُّفُه عن الحَفْر في غِمار لُجج البيان القرآني العميقة. وجاء كثيرٌ من المُفسّرين بعده

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص ٤٠٣.

ولكنَّهم لم يسيروا على مهيَعه ، ولم يُواصِلوا التّنقيبَ في نصوص التّنزيل بالأدوات البيانيّة الدّقيقة ، ولم يُسلّطوا أضواء القراءة النّاقدة على النّصوص؛ لذلك ظلّوا دهورًا ، وقَضَوْا أحقابًا في تَكرير ما قاله السّابقون ، دونما إعمال فِكر ثاقبٍ لمّاح فيما بين أيديهم من نصوص؛ إلّا ما كان من العلّامة محمد الطّاهر بن عاشور ، فإنّه قد أجاد وأبدع ، وحلّقَ في ذُرى التّحليل البلاغي لآيات القرآن ، ويُعَدُّ كتابُهُ التّحرير والتّنوير من أعظم الأسفار ، التي تناولت نصوص القرآن بالدّرس التحليلي البلاغي ؛ إنْ لم يكنْ أعظمَها على وجه الإطلاق.

وأُضيفُ هنا بأنّه إذا كانت الصّافّات أوقعت اللّوم على نبي الله يونس عليه السلام ، وإذا كانت الذّاريات أوقعت اللّوم على فرعون؛ فإنَّ نهاية الذّاريات أيضا تحدّثت عن محمد ﷺ ، وخاطبه ربّه في تشريفٍ وتكريم نافيًا عنه اللّوم ، ورافِعًا عنه الحرَج: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤].

فانظر إلى رَوعة هذا الاتّساق والانسجام بين نصوص التّنزيل في السّور التي تنتمي إلى أسرة واحدة ، وانظر إلى ردِّ العَجُز على الصّدر في السّورة الواحدة؛ فإذا كان يونس وفرعون مَلومين فما أنت بملومٍ يا محمد!!!

٢٢ ـ نظيرُ هذا الاتّساق أيضًا ، توظيفُ الفعل (نبذ) في معرض الحديث عن نبذ يونس عليه السلام بالعراء وهو سقيم ، ونَبْذ فرعون وجنوده في اليم ، والنّبْذ هو الطّرحُ والإلقاء بغير اعتداد بالشّيء الملقى. قال الراغب: «النّبذ: إلقاءُ الشّيء وطرْحُهُ لقلّة الاعتداد به»[(١)].

---

(١) الراغب ، المفردات ، مادة نبذ.

قال جلّ شأنه: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصّافّات: ١٤٥].

وقال تبارك اسمُه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

فانظر إلى مراعاة الاتّساق في توظيف فعل النّبذ في الموضعين: موضع الصافات وموضع الذّاريات، علمًا أنّه قد جاء التّعبير عن إهلاك فرعون في سورٍ ومشاهد أخر بالإغراق وبالنّبذ أحيانا أخرى:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥ ـ ٦٦].

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

فما الذي جعل البيان القرآني يعدلُ عن لفظ الإغراق، الذي تمّ توظيفه في كثير من المواضع إلى مادة (النّبذ) في الذاريات؟ إنّه مراعاة الاتّساق للثّوب اللّفظي للسور التي تنتمي إلى أسرة واحدة.

٢٣ ـ جاء توظيف المُركّب الوصفي (سلطان مبين) في الصّافّات والذّاريات:

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦ ـ ١٥٧].

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الذاريات: ٣٨].

فالقرآن الكريم تحدّى المشركين أن يأتوا بسلطانٍ مبين وحججٍ قواطع على ما يأفكون، أمّا موسى عليه السلام فقد أرسله الله تعالى بسلطان مبين إلى فرعون وقومه.

وحين أقول إنّ سورتَي الصّافّات والذّاريات اشتركتا في المركّب الوصفي (سلطان مبين)؛ لا يعني ذلك أنَّ هذا التعبير لم يرِدْ في القرآن الكريم، وإنّما ورد في سُوَرٍ أُخرى لمقتضيات أخرى، ولكن الذي تُعْنى به هذه الدّراسة هي بيانُ وشائج النّسب اللفظي بين السور المتشابهة المطالع، أمّا وجود التعبير ذاته في مواضع أخرى من الذّكر؛ فمن المؤكّد أنَّ لكل استعمال أسرارَه، ولله تعالى في قرآنه أسرارٌ لا تنفدُ، ولا يُمكن لبشرٍ مهما كان علمُه الإحاطةَ بها.

٢٤ - جاء في الصّافّات بيانُ أنَّ جندَ الله هم الغالبون: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣]، أمّا فرعون وجنوده فقد جاء أنّهم هم المغلوبون المنبوذون في الذّاريات: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٤٠].

٢٥ - جاء في الصّافّات خطابُ محمد ﷺ بأنْ يتولّى عن قومه حتّى حين:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٧٤].

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٧٨].

وجاء في الذاريات أمرُه أيضا أن يتولّى عنهم حالَ كونه ليس بملوم: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات: ٥٤].

٢٦ - جاء في الصّافّات والذّاريات والمرسلات والنّازعات حديثٌ

عن زُمرةٍ من الأنبياء وأقوامهم ، والملاحَظُ الآتي: أنّ سورة الصّافّات فصّلت القول في جانب الأنبياء ، وسورة الذّاريات فصّلت القول في شأن الأقوام المجرمين ، وسورة المُرسلات أوجزت القول في إهلاك المُكذّبين المُجرمين ، وروت سورةُ النّازعات جانبًا من قصّة موسى عليه السلام مع فرعون ، دون التّعرُّض إلى ذِكر غيره من الأنبياء والمرسلين ، وفيما يأتي تفصيلٌ لذلك:

أ - سورةُ الصّافّات احتفت بأنبياء الله المرسلين عليهم السلام ، وأشادت بفضلهم ، وذكرت أنّهم من عباد الله المؤمنين ، ومن عباده المُخلصين ، وأنّهم من زمرة المُحسنين الذين يُثيبهم الله تعالى خير ما يجزي به المُحسنين ، وجاء تشريفُهم بذكر السلام عليهم في نهاية كلّ مشهد:

نوح: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٨ - ٨١].

إبراهيم: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤ - ١١١].

موسى وهارون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٠ - ١٢٢].

إلياس: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٩ - ١٣٢].

ثُمَّ بعد أن ذكرَ كلَّ رسولٍ ونبيّ بما يتناسبُ مع فضله وخصائصه التي عُرِفَ بها ؛ جاء تكريمُ جميع المرسلين بالسّلام عليهم في نهاية

السورة: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٢]؛ فعلى الرّغم من أنّ الرسل يتفاوتون درجاتٍ في الفضل والمنزلة ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] إلّا أنَّ الله الكريم الوهّاب أنعم عليهم جميعًا، وشرّفهم جميعًا بذكر التسليم عليهم في نهاية هذه السورة المباركة.

ب ـ سورة الذّاريات تناولت وصف العذاب الذي ألحقه الله تعالى بالأقوام المُجرمين، الذين كذّبوا أنبياء الله ورسله؛ حيثُ جاء وصفٌ مُختصرٌ لإهلاك كل فريق منهم: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الذاريات: ٣١ ـ ٤٦].

ج ـ أمّا سورة المرسلات فقد صرّحت بإهلاك جميع المكذّبين السّابقين، وبشّرت المعاصرين واللاحقين من أهل الإجرام بأنّهم سيُصيبُهم العذابُ نفسُه، ويلقَوْن المصيرَ ذاته إن لم يُؤمنوا الإيمان الصحيح: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٨].

د ـ أمّا سورة النازعات، فقد أبرزت جانبًا من قصّة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وعرضته بما ينسجم ويتّسقُ مع الجوّ العام

الذي تتميّز به: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥ ـ ٢٦].

ممّا سبق يتّضح للقارئ المتدبّر كيف أنّ السور الأربع تناولت موضوع الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم بطريقة تكامليّة: الصّافات فصّلت القول في جانب المرسلين، والذّاريات فصّلت القول في جانب المُكذّبين المُهلَكين، والمرسلات أوجزت في شأن الحديث عن المُهلَكين، والنّازعات أبرزت قصّة موسى عليه السلام بما يتوافق مع جوّها العام، وأبرزت طغيان فرعون وعُتُوّه وسوء مصيره.

٢٧ ـ سورةُ الصّافّات عَجّبَتْ من شأن المُشركين الذين لم ينتفِعوا بالدّعوة والنُّصح الشّفوي، وكانوا يستعجلون مجيء العذاب: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات: ١٧٥ ـ ١٧٦]، وجاءت سورة الذّاريات تُوبِّخُهم وتُواجِهُهم بالعذاب الذي كانوا به يستعجلون: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذّاريات: ١٤].

٢٨ ـ من الاتّساق اللّفظي في سورة الذّاريات توظيف الوصف (عقيم)؛ حيثُ جاء مرّةً في وصف امرأة إبراهيم التي كانت عقيمًا لا تلِد، فتعجّبت حين بشّرتها الملائكة ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، وورد اللّفظُ نفسُه في وصف الرّيح، التي أرسلها الله تعالى على عادٍ فدمّرتهم: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١].

واللافتُ للانتباه أنَّ امرأةَ إبراهيم نفسَها لمّا بشَّرتها الملائكةُ في سورة هود قالت متعجِّبةً: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]؛ حيثُ إنّها اكتفت بوصف نفسها بأنّها

عجوزٌ فقط ، بينما اقتضى سياقُ سورة الذّاريات زيادة الوصف (عقيم) لبيان حالة العُقر التي كانت متجذِّرَةً فيها ، ولا يخفى ما في ذِكر هذه الكلمة من اتّساقٍ لفظي مع الرّيح العقيم.

٢٩ - تمَّ توظيفُ الجار والمجرور ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مرّتين في الصّافّات ، ومرَّةً في الذّاريات:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصّافّات: ١٧٤].

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٨].

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات: ٤٣].

وهذا يدلُّ على النّسيج اللغوي المُشترك بين هاتين السورتين ، وهو مِمّا يدلُّ على شِدّة الارتباط بينهما.

٣٠ - جاء في سورة الذّاريات أنَّ فرعونَ وقومَه اتّهموا موسى عليه السّلام بالسّحر والجنون ، وتشاوروا في الصِّفة التي يُلصِقُونها به؛ فهو لديهم إمّا ساحِرٌ وإمّا مجنون: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩].

وفي نهاية الذّاريات أمر الله تعالى محمدًا ﷺ أن يتولّى عنهم ، ولا يكترِثَ بمقولاتهم ومزاعمهم الباطلة؛ فهم كالذين من قبلهم ما جاءهم رسولٌ إلّا اتّهموه بالسِّحر أو الجنون: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

أمّا في سورة الصّافّات ، فقد وصف المشركون رسولَ الله ﷺ بصفتَي الشّعر والجنون: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦].

فإذا كان فرعونُ وقومُه قد استقرّوا على رأيٍ واحد في حقّ موسى

عليه السلام في وصفهم له بالسّاحر أو المجنون؛ فإنَّ مشركي العرب الذين واجههم محمدٌ ﷺ بدعوة التّوحيد ، وجاءهم بالمعجزة العقلية الخالدة: القرآن الكريم ؛ فإنّهم - لفرط حيرتهم ، وضلالهم ، وجحودهم - تحيّروا في الصِّفة التي ينسبون إليها رسولَ الله ﷺ؛ فقالوا تارة: هو شاعر ، وقالوا: ساحر ، وقالوا: مجنون ، وقالوا: مُعَلَّمٌ مجنون ، وقالوا: كاهن ، وغيرها من الصّفات ، وهم يعلمون أنّ الأوصاف والألقاب التي يُطلقونها عليه ليست من الحقّ في شيء ، والرّسول ﷺ يعلمُ أنّه براءٌ من كلّ ما ألصقوا به من التُّهم ، وهل يضُرُّ السّحابَ نبحُ الكلاب؟

٣١ - دأَبُ المُشركين في حياتهم اليومية ، وهو ما سجّله عليهم القرآن ، أنَّهم يسألون عن وقت قيام السّاعة ، وعن زمن مجيء يوم البعث. وفي هذا الإطار ، جاء في سورة الذّاريات حديث عن استفسارهم وسؤالهم عن يوم الدِّين: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]. أمّا في سورة النّازعات فقد سألوا النَّبيَّ ﷺ عن موعد السّاعة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

٣٢ - صوّرت سورة الصّافّات الذين ظلموا بأنّهم يُحشرون هم وأزواجهم، ويكونون في حالةٍ من الذِّلّة والمهانة، بحيثُ لا يرفعون رؤوسهم لفرط ما اقترفوا من كفرٍ وظلم ، وجاء تصويرُهم بأنّهم مُستسلِمون: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦]. والأمرُ ذاته ينطبقُ على سورة المرسلات ، التي صوّرتهم بأنّهم لا ينطِقون ولا يُؤذَنُ لهم فيعتذرون: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

٣٣ - ذكرت سورة الذّاريات قصّة إبراهيم عليه السلام وضيفه

المُكرَمين ، وقد جاءت بدايةُ القِصّة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] ، وجاء في النّازعات عرضٌ لمشهدٍ من قصّة موسى عليه السلام ، وتمَّ تسجيل افتتاحية المشهد بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥].

وفي افتتاح القصّتين بهذه الجملة المشتركة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ . . .﴾ بخطاب محمّد ﷺ ما يشي بالقرابة الشّديدة التي تجمع بين السورتين؛ وهذا التّعبير من الأساليب التي يستعملُها البيانُ القرآني لمواساة الرسول ﷺ ، والتّخفيف عنه مِمّا يُلاقيه من أعباء الرِّسالة.

ممّا سبق عرضه ، يتّضح للقارئ المتدبّر في آي الذّكر الحكيم أنّ هذه السور الأربع (الصّافات والذّاريات والمرسلات والنازعات) يجمعها ـ مع العلم بتفرّقها في أزمنة نزولها ، وتفرّقها في مواقعها في المصحف ـ كثير من الأنسجة اللغويّة ، والموضوعات؛ ذلك لأنّها تنحدر من أسرة واحدة هي أسرة القسم بأنساق تعبيريّة متشابهة في مطالعها ، وهذا التوافق والاتّساق في أبنيتها اللغويّة والمضمونيّة لونٌ من ألوان إعجاز هذا الذّكر الحكيم ، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه؛ فلا قدرة لبشر فصيح بليغ ، ولا استطاعة لجماعة من العلماء والبلغاء مهما أوتوا من قوّة العارضة ، وسحر البيان ، وجودة مهارات الكتابة الأدبيّة ؛ أن ينسجوا كلامًا مثل كلام الله تعالى في اتّساقه وإحكامه وتناغم أبنيته اللغوية وتوافقها. إنّ هذا القرآن لهو الذّكر المبين ، ولهو المعجزة العقليّة الخالدة بحقّ ويقين.

* * *



المَبْحَثُ الثَّانِي

سورتا القارعة والحاقّة

سورةُ القارعة مكّيّةٌ في قول جمهور علماء التّنزيل ، وهي السّورة الثلاثون[1] نزولًا بعد سورة قريش ، وقبل سورة القيامة ، وهي من قصار المُفصّل ، وتقعُ في إحدى عشرة آية.

تتحدّثُ سورةُ القارعة عن يوم القيامة الذي يقرعُ الآذان ، وتُقرَعُ فيه القلوبُ بسبب ما يُصيبُها فيه من فزعٍ عظيم. قال الطبري: «القارعةُ: السّاعةُ التي يقرَعُ قلوبَ النّاس هولُها»[2].

وقد جاء الحديثُ عن يوم القيامة فيها بأسلوب التّهويل والتّفخيم ، وجاء فيها وصفُ أحوال النّاس ، والجبال ، وذِكرُ أحوال الذين تثقُلُ موازينُهم بالأعمال الصّالحة الحسنة ، والذين تخِفُّ موازينُهم بما اقترفت أيديهم من معاصٍ وأعمال سيّئة.

أمّا سورةُ الحاقّة ، فهي سورة مكيّةٌ أيضًا ، وهي السّورة الثامنة والسّبعون[3] نزولًا. جاء فيها بأنَّ القيامةَ هي الحاقّةُ ، أي: هيَ حقٌّ واقعٌ ، وهي آتيةٌ لا محالة.

---

(1) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج١ ، ص ٢٤٩.

(2) الطبري ، جامع البيان ، ج٢٤ ، ص ٥٩٢.

(3) دروزة ، التفسير الحديث ، ج١ ، ص ١٥.

قال الإمامُ الطّبري: «السّاعةُ الحاقّةُ التي تَحُقُّ فيها الأمورُ، ويجبُ فيها الجزاءُ على الأعمال»[١]، وقال القرطبيُّ: «وقيلَ: سُمِّيَت حاقَّةً لأنَّها تكونُ من غير شكٍّ»[٢].

يتّسمُ أسلوبُها بإيجاز العبارة، وقوّة الألفاظ، وروعة التّصوير، وغيرها من خصائص القرآن المكيّ.

جاء في مطلعها حديثٌ فيه تهويلٌ وتعظيمٌ لشأن يوم القيامة كما هو الشّأنُ بالنِّسبة لنظيرتها القارعة، وتحدّثت عن ثلّة من الأقوام السّابقين الذين كذّبوا رسل الله كعاد وثمود وقوم فرعون، ووصفت مصائرهم المُرعبة، وجاء فيها حديثٌ عن تطايُر الصّحف، ووصفٌ للذين يُؤتَوْنَ كُتُبَهم بأيمانهم، ووصفٌ للذين يُؤتَوْنَ كُتُبَهم بشمائلهم، ثمّ فصّلت القول في قضيّة طالما تناولها القرآن المكيّ وهي اختلافُ الكافرين في شأن الأوصاف التي أطلقوها على رسول الله ﷺ، وختمها الباري جلّ ثناؤه بوصف حقيقة الأمر، وبيان أنَّ محمدًا ﷺ هو رسولُه حقًّا وصِدقًا، وأنَّ القرآنَ الكريمَ هو الوحيُ المُنَزَّلُ عليه مُعجزةً عقليةً خالدة، وحجّةً على الخلق أجمعين.

والذي حدا بي إلى المقارنة بين هاتين السّورتين أنّهما تنتميان إلى أسرة واحدة، حيث إنّهما تتشابهان في الأنساق التعبيريّة التي جاءت في مفتتحهما، وهذا بحدّ ذاته مؤشّر على ما بينهما من وشائجَ وأواصر تربِطُهما من حيثُ اللّفظ ومن حيثُ المعنى، وفيما يأتي إيجاز لهذه المعاني:

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٢٣، ص ٢٠٥.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٢١، ١٨٨.

١ - تبدأ السّورتان بكلمتينِ هما وصفان ليوم القيامة ، وقد جاءتا على صيغة اسم الفاعل : (الحاقّة ، القارعة) .

٢ - لَمْ تُسبَق الكلمتان بأدوات أو أفعال أو أسماء ؛ فهما السّورتان الوحيدتان اللّتان تتحدّثان عن يوم القيامة وقد افتُتِحتا بلفظ مفردٍ مرفوع يُعرَبُ مبتدأ : الحاقّةُ ، القارعةُ .

وقد وردت أسماء يوم القيامة في بدايات سُورٍ أُخرَ مسبوقة بأدوات أو كلمات مثل : ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ وغيرها .

٣ - تتشابهُ السّورتان في البناء اللّفظي الهندسي لافتتاحيّة كلٍّ منهما ، أي : تتشابهان في عدد الكلمات ، وكيفية بناء الجمل ، وأنواع الجمل ، وطريقة تناسقها :

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة : ١ - ٣] .

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة : ١ - ٣] .

٤ - سورةُ القارعة هي السورة الثلاثون من حيثُ تاريخُ النّزول ، وبعد فترةٍ أنزل الله تعالى سورة الحاقّة ، ولإفادة أنَّ سورة الحاقّة هي نظيرةُ سورة القارعة ومُكمِّلتُها ؛ جاءت افتتاحيّةُ التّهويل والتّفخيم في بداية السّورة : ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ ، وفي الإجابة عن هذا التّساؤل العظيم جاء ذكرُ الحاقّة باسمها الثّاني (القارعة) في قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة : ٤] .

وفي جمع البيان القرآنيّ بين الاسمين (الحاقّة) و(القارعة) في سورة الحاقّة في الآية الرّابعة منها دلالةٌ على أنّهما تصدُران من نبع واحدٍ ، وإشارةٌ إلى أنّهما مترابطتان بل مُتكاملتان تُشكّلان بناءً لغويًّا واحدًا .

٥ - جاء في القارعة ذِكرُ مشهد وزن الأعمال، وبيانُ أَنَّ الذين تثقُلُ موازينُهم بأعمالهم الصّالحة يكونون في عيشةٍ راضية، أي: عيشةٍ مرضيّةٍ يرضى عنها صاحبُها: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦ - ٧]. قال البيضاوي: «جُعِلَ الفِعلُ لها مجازًا، وهو لصاحِبِها؛ وذلك لكونها صافيةً عن الشّوائب دائمةً مقرونةً بالتّعظيم»(١).

وأمّا الذين تَخِفُّ موازينُهم، وتطيشُ سِجلّات أعمالهم فهم أصحاب النّار، وتنتهي رحلةُ حياتهم إلى الهاوية التي من أخصّ خصائصها أنّها نارٌ حاميةٌ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٨ - ١١].

هذا المشهد بِشِقّيْه في سورة القارعة، يُقابِلُه في سورة الحاقّة مشهدٌ هو تتِمّةٌ له، حيثُ يُصوِّرُ البيانُ القرآنيُّ الفريقين: فريقَ الفائزين، وفريقَ الخاسرين، وتُصوِّرُهم وهُم تُسَلَّمُ لهم صحائفُ أعمالهم: الذين آمنوا، وصحّت عقائِدُهم، وأسلموا، وصلُحَت أعمالُهم في الدّنيا؛ تُؤتيهم الملائكةُ كُتُبَهم بأيمانهم، والذين كفروا بالله، وعصوا، وضلّوا عن سواء الصّراط؛ يُؤْتَوْنَ كتُبَهم بشمائلهم، ومن وراء ظهورهم. وهذا المشهدُ (مشهدُ تطايُر الصّحف) هو مرحلةٌ تلي محطّةَ وزن الأعمال؛ فثمّتَ تسلسلٌ للأحداث حيثُ تبدأُ عمليةُ الحساب في القارعة، وتليها مرحلةُ إصدار الأحكام، وإيتاء الصّحف بالأيمان والشَّمائل في الحاقة.

والذي يُميِّزُ مشهد الحاقّة، وهو مِمّا يعنينا بيانُه في هذا الدّراسة،

---

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥، ص ٢٤١.

أنَّه مشهدٌ جاء فيه بسْطٌ ووصفٌ تفصيليٌّ دقيقٌ للحالة التي يكونُ عليها كلُّ فريق؛ فالفائزُ يومئذٍ يكونُ في حُبورٍ وسرور، يمشي ويُكلِّمُ مَن يَعرِفُ ومَنْ لا يعرِف جذلانَ رافعًا عقيرته: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٠]، ويشرحُ لكلّ منْ يلقاه سببًا مُهمًّا من أسباب فوزه، وهو يقينُه بلقاء الله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، ثُمّ يُقرِّرُ البيانُ القرآنيّ مصيرَه الجميلَ المُبهجَ السّارَّ: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢١ ـ ٢٤].

والشّأنُ ذاتُه ينطبِقُ على المشهد الذي يصِفُ فريق الخاسرين؛ حيثُ تصِفُ الآياتُ حسرتَهم العظيمة، وندمهم الكبيرَ حيثُ لا ينفعُ النَّدم، وتُصوِّرُهم الألفاظُ وهم يتمنّونَ أنَّهم لم يُبعَثُوا، ويتمَنَّوْنَ أن لو كانت موتَتُهم الأولى هي القاضيةَ التي لا نشرَ بعدها، ولا حساب: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩]، ثُمّ يُوالي البيانُ القرآني واصفًا ما يحلُّ بهم، وما يُقالُ لهم في ذلك الموقف العصيب: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢].

٦ ـ من الرّوابط اللّفظيّة القويّة بين السّورتين، وصفُ الفائز في السّورتين بأنَّهُ في عيشةٍ راضية. ففي سورة القارعة جاء قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٧]، وفي سورة الحاقّة جاء قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١ ـ ٢٣]. ولا يخفى أنَّ تكرُّرَ هذه الجملة الواصفة لنهاية الحالة التي يكون فيها أهلُ النّعيم هو إيذانٌ بأنَّ هذه السّورة من تلك، وأنَّهما من نسيجٍ واحد.

٧ - ويجمعُ السّورتين من النّاحية اللّفظيّة أيضًا تشابُهُهُما في جانب الإيقاع الصّوتي للفواصل؛ حيثُ تنتهي غالبيةُ فواصلِ السّورتين بتاء مربوطة قبلها ياءٌ أو حرفٌ صحيحٌ مفتوحٌ: (الحاقّة، القارعة، الطّاغية، عاتية، خاوية، باقية، ......).

والذي يلفِتُ الانتباهَ أكثرَ في الجانب الإيقاعيّ للسّورتين؛ توفُّرُهما على فواصل تنتهي بهاء ساكنة يُسمّيها النّحاة هاء السّكت، ولم يتكَرَّرْ ذلك في القرآن كلّه: (ما هيهْ، حسابِيَهْ، كِتابِيَهْ، مالِيَهْ، سُلطانيه).

مِمّا سبق، تتبلْوَرُ في ذهن كلّ قارئٍ مُتدبِّرٍ في البيان القرآني، ويصِحُّ لديه صِحّةً لا أثارةَ من ريبٍ فيها، بأنَّ تشابُهَ السّورتين في المحتوى، وفي الجانب اللّفظي والإيقاعي؛ مِدعاةٌ للحكم الجازم بأنَّهما سورتان مُتكاملتان تُتمِّمُ إحداهما الأُخرى، وهما مُتلاحِمتان، نسيجُهما واحدٌ، وثوبُهما اللّفظيُّ واحد، وهذا واحدٌ من أسرار تشابه افتتاحيّة كلٍّ منهما، ولدى علّام الغيوب في قرآنه حِكَمٌ وأسرارٌ يقصُرُ الإدراكُ البشريُّ عن التّعرّف عليها جميعها، بلهَ إداركها والإحاطة بها.

* * *



المبحث الثالث

أسرة سُوَر: الواقعة، والتّكوير، والإنفطار، والانشقاق، والزّلزلة

١ ـ من بين سور المفصّل ، تطالعنا خمس سُوَر تبدأ بأداة الشَّرط (إذا) التي تتضمّن معنى الظرفية ، وهي الواقعة والتّكوير والانفطار والانشقاق. وهذه المجموعة من السّور تجمع بين أسرتين قرآنيتين: أسرة السّور المتشابهة المطالع ، وأسرة السّور المتشابهة الأنساق التّعبيريّة في بداياتها.

فإذا جئنا إلى أسرة السّور المتشابهة المطالع ، فإنَّ لدينا سورتَي الانفطار والانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]. و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]. وإذا نظرنا إلى المجموعة بحكم ابتدائها بنفس طريقة بناء الجملة ، فإنّها كلّها تبدأ بأداة (إذا) متبوعة بفعل ماضٍ ، كما هو الشأن بالنسبة لسورتَي الواقعة والزّلزلة ، ومتبوعة باسم كما هو الشأن في التكوير والانفطار والانشقاق.

فلنشرع الآن في تحليل سورتَي الانفطار والانشقاق بحكم اشتراكهما في المطلعين:

العلاقة بين سورتي الانفطار والانشقاق:

٢ ـ تشترك السورتان في ابتداء كلّ منهما بأداة (إذا) متبوعة باسم

السّماء: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ [الانفطار: ١]. ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾ [الانشقاق: ١].

٣ - تشترك السّورتان في نفس الموضوع، إذ كلتّاهما تتحدث عن علامات وأمارات تحدث قبيل قيام السّاعة، مثل: انفطار السّماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور في سورة الانفطار، والحديث عن انشقاق السّماء، وإنصاتها لنداء خالقها في سورة الانشقاق: ﴿ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴾ [الانشقاق: ٢].

٤ - تشترك السّورتان في مناداة الإنسان، كلّ الإنسان، حيث يناديه ربّه يوم القيامة، يوم يقف بين يديه فردًا وحيدًا، عاريًا حافيًا، لا مال يصاحبه، ولا أحدًا من أفراد أسرته يؤانسه، ولا صديقًا حميمًا يشفع له.

يناديه فيقول له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

والشأن ذاته يتكرّر في سورة الانشقاق، حيث يناديه مولاه قائلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]. والمعنى: يا أيّها الإنسان إنّك ساعٍ إلى ربّك سعيًا، وكّل ما تقدّمه من عمل فإنّك ستجده عند الله محضَرًا.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد، عش ما شئت فإنّك ميّت، وأحبب ما شئت فإنّك مُفارقه، واعمل ما شئت فإنّك ملاقيه»[1].

٥ - تشترك السّورتان في حديثهما عن الفريقين: فريق المؤمنين

---

(١) رواه أبوداود الطيالسي.

النّاجين، وفريق الكافرين الخاسرين. تحدَّثت سورة الانفطار عن المؤمنين بوصفهم بصفة البر: (الأبرار)، وعن المشركين بوصفهم الفجّار. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤].

أمّا سورة الانشقاق فتحدّثت عن الفريقين، دون أن تسميَهما، وإنّما جيء باسم الموصول (مَنْ) للحديث عن الفريقين، وذلك لإبراز صلة الموصول التي جاءت في حيّز اسم الموصول في العبارتين: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ١٢].

٦ ـ جاء في السّورتين حديث المشركين المكذّبين في عهد النبّوة، حيث واجهتهم سورة الانفطار بحديث مباشر فيه تبكيت وتقريع: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، وأنذرتهم بأنّ عليهم ملائكة تكتب وتسجل كلَّ ما يصدر منهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، وفي هذا تهديد شديد، وتلميح لما سينالهم من العذاب.

بينما في سورة الانشقاق، نجد أنّ البيان القرآني التفت عنهم، وتحدّث عنهم بأسلوب الغيبة، فهم لا يستحقون أن يواجَهُوا بالخطاب: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٠ ـ ٢٤].

٧ ـ تحدّثت سورة الانفطار عن يوم الدّين، وبأنّ الفجّار يَصْلَوْنَ الجحيم في يوم الدين، ثم جاء الاستفهام الذي يفيد التّهويل: ﴿وَمَآ

أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٨]. وهذا الاستفهام يفيد التّهويل والتّعجيب من هذا اليوم العظيم.

جاء في أنوار التنزيل: «تعجيبٌ وتفخيم لشأن اليوم، أي: كُنهُ أمره بحيث لا تدركه دراية دارٍ»(١).

هذا اليوم العظيم الفظيع هو الذي جاء الحديث عنه في سورة الانشقاق بذكر ما سيقع فيه، وبيان أنّ الذي يؤتى كتابه بيمينه سوف يُحاسب فيه حسابًا سهلًا يسيرًا وينقلب إلى أهله مسرورًا. أمّا الذي يؤتى كتابه وراء ظهره فإنّه سوف يدعو على نفسه بالثّبور والهلاك، ولات حين مناص. وأخبرت سورة الانشقاق أنّ الذين كفروا وكذّبوا بالله تعالى وبيوم الدّين بأنّ عذابًا أليمًا ينتظرهم، وأمّا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلهم جزاء الحسنى وأجرٌ غير ممنون:

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الانشقاق: ٢٤ ـ ٢٥].

العلاقات بين أسرة الواقعة والتكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة:

٨ ـ هذه السّور الخمس يجمعها على تفرّقها في التّرتيب المصحفي وفي أزمنة النّزول؛ أنّها كلّها تتحدّث بداياتها عن أحداث تقع قبيل الساعة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ١ ـ ٥]. ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

---

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج٥، ص٢٩٣.

٩ ـ تشترك سورتا الواقعة والزّلزلة في ابتدائهما بفعل ماض بعد أداة (إذا) ﴿إِذَا وَقَعَتِ . .﴾ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾؛ حيث تتحدّث كلتاهما عن الزّلزلة الكبرى ، التي ترجف منها الأرض رجفًا ، وهي زلزلة كبرى تهتز منها الكرة الأرضية من جميع أقطارها ، وهي التي عبّر عنها مطلع سورة الحج : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

١٠ ـ تتحدّث السّورتان (الواقعة والزّلزلة) عن أصناف النّاس في ذلك اليوم العصيب ، حيث تنقسم الخلائق إلى فريقين: فريق في الجنّة ، وفريق في السّعير. وقد عبّرت سورة الزّلزلة عن اختلاف مصائر النّاس في ذلك اليوم الشّديد بأنّهم يكونون أشتاتًا: ﴿يَوْمَئِذٖ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتٗا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] ، ثم فصّلت القول فيهم بأنّ الذين عملوا الصّالحات ، وكانت صحائفهم حافلة بأعمالهم الخيريّة ؛ فإنّهم سيرون نتائج عملهم الصّالح ، وأنّهم سيُجزون على الذّرّات. والعكس أيضًا صحيح ، حيث إنّ الذين عملوا السّيّئات سيُجزون على أعمالهم السيّئة التي اجترحوها ، ولو كانت صغيره مثل الذّرّات؛ فهذا يوم الميزان الحقّ الذي لا يضيع فيه النقير ولا الفتيل ولا القطمير ولا الخردل ولا الذّرات: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

أما سورة الواقعة ، ففصّلت القول في الثّواب والعقاب ، فالنّاس يكونون في ذلك اليوم العصيب أزواجًا ثلاثة: أصحابَ الميمنة والسابقين ، وأصحابَ المشأمة. ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ [الواقعة: ٧] ،

وبدأ الحديث عن ثواب أهل الجنات ابتداء بالسابقين المقرّبين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ٢٦].

ثم توالى الحديث عن أصحاب الميمنة من قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٢٧ ـ ٤٠].

ثمّ جاء دور الحديث عن أصحاب الشِّمال ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٨].

ثم تحدّثت سورة الواقعة عن قضايا تتعلّق بالقرآن المكيّ، الذي كان يعالج في أغلب نصوصه قضية الإشراك بالله تعالى، والتّكذيب بيوم الدّين، وقضية الخلق وتفرّد الله المعبود بصفة الخالقية. . .إلى غير ذلك. إلى أنّ وصل الحديث إلى مشهد من مشاهد خروج الرّوح، وشهود عملية الاحتضار التي يعيشها النّاس يوميًّا في حياتهم الدّنيا، ولا يعتبرون بها: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

الواقعة والتّكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة:

إذا نظرنا الآن في هذه الأسرة القرآنية من زاوية السّور المتشابهة الأنساق التّعبيرية في بداياتها، دون أنّ تتحد المواد المعجمية؛ فإنّنا نقف على ما يأتي:

١١ ـ ترتبط السّور الخمس كلّها في أنّ بداياتها تتحدّث عن أحداث تقع قبيل قيام السّاعة.

١٢ ـ ترتبط سورتا التّكوير والانفطار في جواب (إذا) الشّرطية الظرفية؛ فقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] هو جواب (إذا) بعد اثنتي عشرة جملة تعاطفت في جملة الشّرط. وفي سورة الانفطار جاءت جملة ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] جوابًا للأداة (إذا) بعد أربع جمل وردت في صدر جملة الشّرط.

١٣ ـ تشترك سور(الواقعة، والتّكوير، والانشقاق) في وقوعٍ جملة قسم يتعلّق بالنّجوم والظواهر الكونية الفلكيّة في وسط كلٍّ منها، وهي قوله تعالى:

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦].

وهذه الأنساق التّعبيريّة القسمية تدلُّ دلالة واضحة على مدى التّرابط والتّقاطع اللّفظي بين هذه السّور الثلاث (الواقعة/ التكوير/ الانشقاق)، التي تنتمي إلى أسرة تتشابه الأنساق التعبيرية في مطالعها.

١٤ ـ تشترك سورتا التّكوير والانشقاق في الحديث عن موقف المشركين من القرآن الكريم في كّلٍ منهما، حيث جاء في نهاية

التكوير: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧ ـ ٢٨]، وجاء في نهاية سورة الانشقاق قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الانشقاق: ٢٠ ـ ٢١].

* * *



الخاتمة

بعد هذه الجولة التّدبّريّة في مجموعات السّور القرآنيّة ، وإيضاح نماذج من الرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة التي تربطُ بينها ، يمكن للباحث وقارئ هذه الصّفحات أن يطمئنّ إلى النّتائج الآتية :

١ ـ السّور القرآنيّة نوعان : سورٌ تتفرّدُ في مطالعها حيث لا توجدُ سورةٌ أخرى تشبهها في المطلع الذي خصّها الله تعالى به ، مثل سورة الأنفال ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ ، وسورة النّور ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ ، وسورة محمد ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، وسورة المسد ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، ومثيلاتها .

وثمّة سورٌ قرآنيّة تتشابه مطالعُها وهي ضربان :

القسم الأول : السّور المتشابهة المطالع التي تبدأ بالأحرف المقطّعة مثل أسرة ﴿ الٓمٓ ﴾ ، وأسرة ﴿ الٓر ﴾ ، وأسرة ﴿ طسٓمٓ ﴾ ، وأسرة ﴿ حمٓ ﴾ ونظائرها . هذه السّور تربط بينها علاقات ووشائج لفظيّة هندسيّة وثيقة أوضحتها في كتابي «الأساور المرصّعة في أسرار الأحرف المقطّعة» .

القسم الثاني : السّور المتشابهة المطالع ، التي بدأها الباري جلّ ثناؤه بكلام عربيّ فصيح بليغ مفهوم ، جاء على سنن العرب في كلامهم من مثل : سورتي الفرقان والملك ، اللّتين تشتركان في البدء

بعبارة التمجيد والثّناء ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى . . .﴾ ، ومثل سور الحمد الخمس التي تبدأ بعبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . .﴾ ، والمسبّحات ، ونظائرها .

٢ - تقوم المقاربة التّفسيريّة التي يحملها هذا الكتاب على إيضاح العلاقات والرّوابط والتّقاطعات اللّفظيّة والمضمونيّة ، التي تربطُ بين السّور التي تتشابه مطالعها؛ وتُثبت بالأدلة المبسوطة في طيّ البحث بما لا يدع مجالا للرّيب ، أنّ السّور المتشابهة المطالع تُكوِّنُ أسَرًا فيما بينها ، وثمّة علاقات داخليّة تجمعها ، ويخدم بعضها بعضًا في التّفسير ، حيث إنّها تتكامل أحيانًا ، ويوضح بعضها بعضًا أحيانًا أخرى ، وجاءت هذه المضامين التي تتقارب وتتكامل وتتقاطع في أثواب لفظيّة تتناسبُ وتتماشى مع روح السّورة ، التي ورد فيها كل مضمون وجوّها العام .

والذي حثّ الباحث على ولوج غمرة هذه اللّجّة البحثيّة العظيمة ، أنّ كلام الله المحكم الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، من المستحيل أن تكون فيه بدايات ومطالع متشابهة لبعض السّور القرآنيّة ، ثم لا تكون هناك روابط ولا مناسبات أو علاقات تجمع بينها أو توحّدها .

٣ - ثمّة سورٌ قرآنية تتشابه فواصل كثير من مقاطعها وآياتها ، وهذا أيضا بدوره يدعو للدّراسة والبحث ، وهو ما اضطلعت بجانب منه هذه المقاربة التفسيريّة في الفصل الثاني .

٤ - أيضا عملت هذه المقاربة التّدبّريّة على إيضاح العلاقات والرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة بين السّور ، التي تتشابه الأنساق التعبيرية في مطالعها دون أن تتّحد أو تتشابه من النّاحية المعجميّة ، من مثل أسرة ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ ، و﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ ، و﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ ،

و﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴾ ، وسورتَي ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ و﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ ، ونظائرهما.

٥ ـ آملُ أن تكون هذه الدّارسة قد فتحت الباب على مصراعيه أمام الباحثين الأكاديميين والدّارسيين في علوم القرآن ، أن يخوضوا في لجّة علم مقارنات السّور من الزّوايا التي تحملها هذه المقاربة ، ولا يكتفون بالبحث في المناسبات التي تربط بين مطالع السّور وخواتيمها ، وأبشّر الباحثين الفضلاء ، والقرّاء الكرام بأنّ هذا النّوعِ من المقارنات العلميّة التّحليليّة بين السّور القرآنيّة ، سيفتح نوافذ واسعةً وأبوابًا لفكّ شيفرات كثيرٍ من القضايا والأسئلة القرآنيّة الخالدة ، التي ما زال الفكر البشريّ يقف متردّدًا حيالها ، ولم يظفر على نتائج تثلج الصّدور في الإجابة عنها ، كما هو الشّأن في المثال الذي أوضحته في فصل السّور التي تتقاطع فواصلها ، حيث بيّنت هذه المقاربة بأنّ الجواب الصّحيح الذي تشفع له الأدلّة اللّفظيّة للاستفهام الإنكاري الوارد في سورة الكهف: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٩] ؛ هو الجواب الذي تصرّح به سورة الجنّ في مطلعها: ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴾ [الجن: ١] ، والأدلّة مبسوطة في المبحث المخصّص للمقارنة بين سورتَي الكهف والجنّ.

وبعدُ ، فأحمدُ الله جلّ جلاله أن وفّقني للكتابة في هذا الشّأن الجلل من شؤون الكتاب العزيز ، وأعترفُ بأنّ هذا الجهد هو جُهد المُقلّ المقرّ بالعجز البشري ، المتلفّع بدثار القصور الإنساني ، وفي الوقت ذاته يشرئبّ إلى التّعرّف على أسرار الكتاب المعجز الذي لا تنتهي عجائبه ، ولا تنفد غرائبه؛ وإن كان حالفني التّوفيق فذلك محض فضلك وتوفيقك يا رب ، وإن جانبني في مسائلَ أخطأتُ في

فهمَها أو تحليلَها ، أو شطّ بي القلم في تفسيرها ؛ فعفوك أوسع لي ، وبنور هداياتك أستهدي ، فأنت الموفّق إلى خير ، والهادي إلى سواء الصّراط .

وكتبه امحمد صافي المستغانمي في الشّارقة يوم الثلاثاء ١٧ من أكتوبر الموافق لـ ٢٧ محرم ١٤٣٩ لهجرة المصطفى ﷺ .

* * *



فهرس الآيات

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ... الظَّالِمُونَ﴾	٤٥	١٥٠
﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... الظَّالِمِينَ﴾	٥١	١٤٤_١٥٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾	٥٤	١٥٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... مُؤْمِنِينَ﴾	٥٧	١٤٤_١٥٣_١٥٧
﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ... لَا يَعْقِلُونَ﴾	٥٨	١٥٥
﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ... سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾	٦٠	١٤٥
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ... الْمُفْسِدِينَ﴾	٦٤	١٤٧
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ... جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾	٦٥	٣٨١
﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾	٦٧	٢٢٩
﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ... رَحِيمٌ﴾	٧٤	١٤٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ... الْمُعْتَدِينَ﴾	٨٧	١٥٣
﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ... مُؤْمِنُونَ﴾	٨٨	١٥٢_١٥٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... تُفْلِحُونَ﴾	٩٠	١٥٣
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ... مُنْتَهُونَ﴾	٩١	١٤٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... أَلِيمٌ﴾	٩٤	١٥٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾	٩٥	١٥٣
﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ... تُحْشَرُونَ﴾	٩٦	١٥٧
﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ... عَلِيمٌ﴾	٩٧	١٥٨
﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ... رَحِيمٌ﴾	٩٧_٩٨	١٤٩
﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	١٠٠	١٥٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... حَلِيمٌ﴾	١٠١	١٥٣
﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ... لَا يَعْقِلُونَ﴾	١٠٣	١٥٥

﴿قُلْ أَغَيْرَ . . . مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	١٤	١٠١
﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ . . . الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾	١٨	١٠١ـ١١١
﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ . . . مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾	١٩	٩٤
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ . . . لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾	٢١	١١٧
﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ . . . كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾	٢٢	٩٤
﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ . . . ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾	٢٥	١١٦
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ . . . وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٢٧	١٠١
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾	٢٧	١٠٢
﴿وَقَالُوٓا إِنْ . . . وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾	٢٩	١١٠
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ . . . كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾	٣٠	١٠١ـ١٠٢
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾	٣٠	١٠٢
﴿قَدْ خَسِرَ . . . سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾	٣١	١١٠ـ١١٦ـ١١٨
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ . . . سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾	٣١	١١٢
﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ . . . أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	٣٢	٩٧
﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	٣٢	١١٢
﴿قَدْ نَعْلَمُ . . . يَجْحَدُونَ﴾	٣٣	١١٧
﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ . . . الْمُرْسَلِينَ﴾	٣٤	٨٧ـ١١٧
﴿وَلَا مُبَدِّلَ . . . الْمُرْسَلِينَ﴾	٣٤	١١٧
﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ . . . نَصْرُنَا﴾	٣٤	١٠١
﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَـٰتِ﴾	٣٩	٩٧
﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا . . . مُّسْتَقِيمٍ﴾	٣٩	١٠٤
﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ . . . كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾	٤٠	١١٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ فَلَوْلَآ إِذْ . . . يَعْمَلُونَ ﴾	٤٣	٨٩
﴿ وَمَا نُرْسِلُ . . . وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾	٤٨	٩٥
﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ . . . يَفْسُقُونَ ﴾	٤٩	٩٧
﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾	٥٠	٩٣
﴿ وَلَا تَطْرُدِ . . . ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾	٥٢	١١٤
﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ . . . مُّبِينٍ ﴾	٥٩	٩١
﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾	٦٦	٩٦
﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ . . . ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾	٦٨	١١٨
﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ . . . ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾	٧٠	٩٧
﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ . . . ٱلْخَبِيرُ ﴾	٧٣	١١٢ـ١١١
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾	٨٢	١٠٠
﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ . . . صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾	٨٧ـ٨٣	١٠٤
﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ . . . ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾	٨٤	٣٧٨
﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ . . . ٱقْتَدِهْ ﴾	٩٠	١٠٤
﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ . . . وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾	٩٢	٩٦
﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ . . . يُحَافِظُونَ ﴾	٩٢	١١٢
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ . . . مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾	٩٣	١١٧
﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا . . . تَزْعُمُونَ ﴾	٩٤	١١٥
﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾	١٠١	٩١
﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ . . . وَكِيلٌ ﴾	١٠٢	١٠٣
﴿ لَّا تُدْرِكُهُ . . . ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾	١٠٣	١٠٣
﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ . . . لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾	١٠٩	٩٢

﴿ قُلْ إِنَّمَا . . . لَا يُؤْمِنُونَ ﴾	١٠٩	٩٢
﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ . . . مُّقْتَرِفُونَ ﴾	١١٣	١١٣
﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ . . . ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾	١١٥	١١٧
﴿ وَإِن تُطِعْ . . . إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾	١١٦	١٠٦
﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا . . . بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾	١١٨	١٠٦
﴿ وَمَا لَكُمْ . . . هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾	١١٩	١٠٦
﴿ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ . . . كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾	١٢٠	١٠٦
﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾	١٢١	١٠٦
﴿ وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ . . . يَذَّكَّرُونَ ﴾	١٢٦	١٠٥
﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ . . . يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾	١٣٠	٩٧
﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ . . . كَـٰفِرِينَ ﴾	١٣٠	٩٧
﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ . . . كَـٰفِرِينَ ﴾	١٣٠	١١٨
﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾	١٣٣	١١٥
﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ . . . ءَاخَرِينَ ﴾	١٣٣	١١٥
﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ . . . يَحْكُمُونَ ﴾	١٣٦	١٠٦ـ١٠٧
﴿ وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ . . . يَفْتَرُونَ ﴾	١٣٨	١٠٧
﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى . . . عَلِيمٌ ﴾	١٣٩	١٠٧
﴿ قَدْ خَسِرَ . . . مُهْتَدِينَ ﴾	١٤٠	١١٦
﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ . . . عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾	١٤٢	٨٩
﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ . . . تَذَكَّرُونَ ﴾	١٥١ـ١٥٢	١٠٨
﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا . . . لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾	١٥٣	١٠٥ـ١٠٨
﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا . . . رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾	١٥٤	١١٨
﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ . . . لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾	١٥٥	١٠٨

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ. . . غُرُورًا﴾	٦٤	٥٠
﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾	٦٥	٢٨٧_١٦٥
﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي. . . رَحِيمٗا﴾	٦٦	١٦٥
﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾	٧٠	٧٠
﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ. . . سَبِيلٗا﴾	٧٢	٢٩٤
﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ. . . خَلِيلٗا﴾	٧٣	٢٩٨
﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ. . . قَلِيلًا﴾	٧٤	٢٩٨
﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ. . . عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾	٧٥_٧٤	٢٩٨
﴿وَإِن كَادُواْ. . . إِلَّا قَلِيلٗا﴾	٧٦	٢٩٨_٥٠
﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ. . . كَانَ مَشۡهُودٗا﴾	٧٨	٢٨٥
﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ. . . مَّحۡمُودٗا﴾	٧٩	٢٩٢_٢٨٧
﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي. . . نَّصِيرٗا﴾	٨٠	٢٩٩
﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾	٨١	٦٣
﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ. . . خَسَارٗا﴾	٨٢	٢٨٥
﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ. . . أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾	٨٤	٢٩٤
﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ. . . عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾	٨٧	٢٨٧
﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾	٨٧	٢٩٧
﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ. . . ظَهِيرٗا﴾	٨٨	٢٨٥
﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا. . . كُفُورٗا﴾	٨٩	٢٩٠_٢٨٥
﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ. . . رَّسُولٗا﴾	٩٣_٩٠	٢٩٩_٢٧٨_٢٧٧
﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾	٩٣	٣٠١_٣٠٠_١٦٤
﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ. . . بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾	٩٤	٣٠٠
﴿قُلۡ كَفَىٰ. . . خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾	٩٦	١٦٥

﴿وَلَمۡ تَكُن . . . وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾	٤٣	٩٨_١١١
﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم . . . مُّقۡتَدِرًا﴾	٤٥	٩٧
﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ . . . وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾	٤٦	٩٨
﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾	٤٧	٣٢٢
﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ . . . لَّكُم مَّوۡعِدٗا﴾	٤٨	١١٥
﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾	٤٩	٣٢٢
﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ . . . بَدَلٗا﴾	٥٠	٣٢٥
﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ . . . بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾	٥٢	٩٤
﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ . . . قُبُلٗا﴾	٥٥	٣٢٤
﴿وَمَا نُرۡسِلُ . . . أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾	٥٦	٩٥
﴿إِنَّا جَعَلۡنَا . . . إِذًا أَبَدٗا﴾	٥٧	١١٦
﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ . . . مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾	٥٧	١١٧
﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ . . . إِذًا أَبَدٗا﴾	٥٧	٣٢٤
﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾	٥٨	١١٥
﴿وَرَبُّكَ . . . مَوۡئِلٗا﴾	٥٨	١١٦
﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ . . . عَجَبٗا﴾	٦٣	٣٨
﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ . . . عَجَبٗا﴾	٦٣	١١٩
﴿قَالَ ذَٰلِكَ . . . لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾	٦٤_٦٥	٣٨
﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ . . . عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾	٦٦	٣١٧
﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي . . . عُسۡرٗا﴾	٧٣	٣٢٠
﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ . . . طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾	٨٠	٣٢٠
﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ . . . عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾	٨٧	٣٩
﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾	١٠٢	٩٨
﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم . . . صُنۡعًا﴾	١٠٣_١٠٤	١١٦

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ . . . يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾	١٠٤	٩٨
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ . . . وَزۡنٗا﴾	١٠٥	١١٦ـ١١٧
﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ . . . وَرُسُلِي هُزُوًا﴾	١٠٦	٩٨
﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ . . . بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾	١٠٩	٤٤
﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ . . . أَحَدَۢا﴾	١١٠	١١٨ـ٣١٨
﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا . . . رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾	١١٠	٣٢٢
	١٩ ـ مريم	
﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾	٧	٢٢٩
﴿أَنَّىٰ يَكُونُ . . . عِتِيّٗا﴾	٨	٣١٤
﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾	١٢	٢٢٩
	٢٠ ـ طه	
﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾	١ـ٢	٣٣٥ـ٣٤٥
﴿طه . . . لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾	١ـ٣	٣٣٦
﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾	٤	٣٣٤
﴿وَإِن تَجۡهَرۡ . . . وَأَخۡفَى﴾	٧	٣٣٩
﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ . . . ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾	٨	١٦٥
﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾	١١ـ١٢	٢٢٩
﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾	١٣	٣٤٦
﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾	١٤	٣٤١
﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾	١٥	٣٤٧
﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ . . . هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾	١٦	٣٤٧
﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾	٢٣	٣٤٧
﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾	٢٥	٣٤٩
﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ . . . يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾	٢٥ـ٢٨	٣٤٨

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ... فَتَشْقَىٰٓ﴾	١١٧	٣٣٦
﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾	١١٩	٣٥١
﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾	١٢١	٣٥١
﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم ... وَلَا يَشْقَىٰ﴾	١٢٣	٣٣٦
﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ ... لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾	١٣٠	٣٤٨
﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾	١٣١	٣٤٣
﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾	١٣٣	٣٤٣
٢١ ـ الأنبياء		
﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ ... ٱلْأَوَّلُونَ﴾	٥	٣١٣
﴿مَآ ءَامَنَتْ ... أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾	٦	٦٢
﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ... ٱلْمُسْرِفِينَ﴾	٩	٦٢
﴿وَكَمْ قَصَمْنَا ... قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾	١١	٦٣
﴿فَمَا زَالَت ... خَٰمِدِينَ﴾	١٥	٦٥
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ... زَاهِقٌ﴾	١٨	٦٣ـ٦٤
﴿وَتَٱللَّهِ ... إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾	٥٧ـ٥٨	٦٤
﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ ... إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾	٩٣	٦٥
﴿وَحَرَٰمٌ ... لَا يَرْجِعُونَ﴾	٩٥	٦٢
٢٢ ـ الحج		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ... عَظِيمٌ﴾	١	١٢١ـ١٢٢
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ ... ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾	١ـ٢	٤٠٣
﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾	٢	١٢٣
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ ... شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾	٣	١٢٣
﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾	٣	١٢٥
﴿كُتِبَ عَلَيْهِ ... عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾	٤	١٢٥

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ . . . رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾	٥٧	٢٩٥
﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾	٥٨	٢١٦
﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾	٥٩	٣٠٢ـ٢١٣
﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾	٦٠	٢١١
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ . . . وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾	٦٠	٣٠٢ـ٢٩٤ـ٢١٣
﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى . . . وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾	٦١	٢١٤ـ٢٠١
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ . . . شُكُورًا﴾	٦٢	٢٨١
﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ . . . هَوْنًا﴾	٦٣	٢١٣
﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ . . . مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾	٧٦ـ٦٣	٢١٩
﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ . . . قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾	٦٣	٢٩٢ـ٢٢٠
﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾	٦٤	٢٩٣
﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا . . . كَانَ غَرَامًا﴾	٦٥	٢٨٣
﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ . . . ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾	٦٧	٢٩١
﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ . . . يَلْقَ أَثَامًا﴾	٦٨	٢٩١ـ٢٨٩
﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾	٧٠	٢١٦
	٢٦ ـ الشعراء	
﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾	٢ـ١	١٧
﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾	٢٧	٥٨
﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾	٣٤	٥٨
﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ . . . أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾	٦٦ـ٦٥	٣٨٥
	٢٧ ـ النمل	
﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ . . . فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾	١٧	٤٨
﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾	١٨ـ١٧	٤٩
﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا . . . نِعْمَتَكَ﴾	١٩	٤٨

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ . . . ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾	٣٠	٢٣٦
﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ . . . إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾	٣٢	٢٤٣_٢٣٥
﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ . . . وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾	٣٥	١٥٥
﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ . . . تَخْشَىٰهُ ﴾	٣٧	٢٣٥
﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ . . . شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾	٤٠	٢٤٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . . ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾	٤١	٢٤٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . . رَحِيمًا ﴾	٤٣_٤١	٢٣٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾	٤٥	٢٢٩
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ . . . وَنَذِيرًا ﴾	٤٥	٢٣١
﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ . . . وَكِيلًا ﴾	٤٨	٢٣٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ . . . جَمِيلًا ﴾	٤٩	٢٣٢
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ . . . تَعْتَدُّونَهَا ﴾	٤٩	٢٤٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾	٥٠	٢٣١
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ . . . رَّحِيمًا ﴾	٥٠	٢٣٣
﴿ قَدْ عَلِمْنَا . . . رَّحِيمًا ﴾	٥٠	٢٤١
﴿ ۞ تُرْجِي مَن . . . حَلِيمًا ﴾	٥١	١٣٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . . إِنَىٰهُ ﴾	٥٣	٢٤٥
﴿ إِن تُبْدُواْ . . . بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾	٥٤	٢٤٠
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ . . . تَسْلِيمًا ﴾	٥٦	٢٤٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ . . . وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٥٩	٢٣١
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل . . . رَّحِيمًا ﴾	٥٩	٢٤١
﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ . . . تَبْدِيلًا ﴾	٦٢_٦٠	٢٤٥_٢٤٤
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . . وَجِيهًا ﴾	٦٩	٢٤٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . . سَدِيدًا ﴾	٧٠	٢٤٥_٢٣٦

﴿لَن نُّؤۡمِنَ . . . بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾	٣١	٩٦
﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ﴾	٣١	١٠٢
﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ . . . مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾	٣١_٣٣	١٠٢
﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ . . . بِمُعَذَّبِينَ﴾	٣٥	٧٤_١١٣
﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ . . . ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾	٣٧	١١٣_١١٤
﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ . . . مُحۡضَرُونَ﴾	٣٨	٧٤
﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ . . . سِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾	٤٣	٩٦
﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ . . . كَانَ نَكِيرِ﴾	٤٥	٨٧
﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾	٤٨	٦٣
﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ . . . مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾	٥١	١٠٣

٣٥ ـ فاطر

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ . . . شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾	١	٨١
﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾	١	٨٦_١٠١
﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ . . . ٱلۡحَكِيمُ﴾	٢	٨٢
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . . تُؤۡفَكُونَ﴾	٣	٨٧
﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ . . . تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾	٤	٨٢_٨٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . . ٱلۡغَرُورُ﴾	٥	٨٢_٨٣_٨٨
﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ . . . ٱلۡغَرُورُ﴾	٥	٩٧
﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ . . . ٱلسَّعِيرِ﴾	٦	٨٨
﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . كَبِيرٞ﴾	٧	٨٩
﴿فَلَا تَذۡهَبۡ . . . بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾	٨	٨٣_٩٠
﴿أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ . . . كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾	٩	٨٣
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾	١٠	٨٣
﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم . . . يَسِيرٞ﴾	١١	٨٣

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ . . . إِلَّا نُفُورًا ﴾	٤٢	٩٢
﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ . . . عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾	٤٤	٩٩
٣٦ ـ يس		
﴿ إِن كَانَتْ . . . هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴾	٢٩	٣٧٠
﴿ مَا يَنظُرُونَ . . . وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾	٤٩	٣٧٠
﴿ إِن كَانَتْ . . . لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾	٥٣	٣٧٠
﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ . . . مُّبِينٌ ﴾	٦٩	٣١٣
٣٧ ـ الصافات		
﴿ وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا . . . ذِكْرًا ﴾	١ـ٣	٣٦٥
﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾	٢	٣٦٩
﴿ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾	٤	٣٧٧
﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾	٦	٣٧١ـ٣٧٧
﴿ وَحِفْظًا . . . شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾	٧ـ١٠	٣٦٠
﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ . . . طِينٍ لَّازِبٍ ﴾	١١	٣٧٢ـ٣٧٣
﴿ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾	١١	٣٧٧
﴿ أَءِذَا مِتْنَا . . . ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾	١٦ـ١٧	٣٧٣
﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾	١٩	٣٦٩ـ٣٧٧
﴿ وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا . . . بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾	٢٠ـ٢١	٣٧٤
﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾	٢٣	٣٧٤
﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾	٢٦	٣٩١
﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾	٢٧	٣٧٦
﴿ وَمَا كَانَ لَنَا . . . قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴾	٣٠	٣٧٦
﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا . . . كُنَّا غَـٰوِينَ ﴾	٣١ـ٣٢	٣٧٧
﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾	٣٤	٣٧٦ـ٣٧٧

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾	١٣١	٣٧٨
﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾	١٤٢	٣٨٣_٣٨٢
﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ . . . يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	١٤٤_١٤٣	٣٦٨
﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾	١٤٥	٣٨٥_٣٧٩
﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ . . . شَٰهِدُونَ﴾	١٥٠_١٤٩	٣٧٢
﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ . . . كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾	١٥٧_١٥٦	٣٨٥
﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾	١٦٤	٣٨٠
﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ . . . ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾	١٦٦_١٦٥	٣٦٧
﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾	١٦٦	٣٦٨
﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾	١٧٣	٣٨٦
﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾	١٧٤	٣٩٠_٣٨٦
﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ . . . يَسْتَعْجِلُونَ﴾	١٧٦_١٧٥	٣٨٩
﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾	١٧٨	٣٩٠_٣٨٦
﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ . . . رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	١٨٢_١٨٠	٣٨٨
٣٨ ـ ص		
﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ . . . عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾	٢_١	٧٠
﴿وَمَا يَنظُرُ . . . مِن فَوَاقٍ﴾	١٥	٣٧٠
﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى . . . ٱلْخِطَابِ﴾	٢٣	٧٠
﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	٧٤	٣٢٦
﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ . . . ٱلْمُخْلَصِينَ﴾	٨٣_٨٢	٧٠_٦٧
٤٠ ـ غافر		
﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً . . . بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾	٤٠	٤٥
﴿وَمَا يَسْتَوِى . . . مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾	٥٨	٩٣

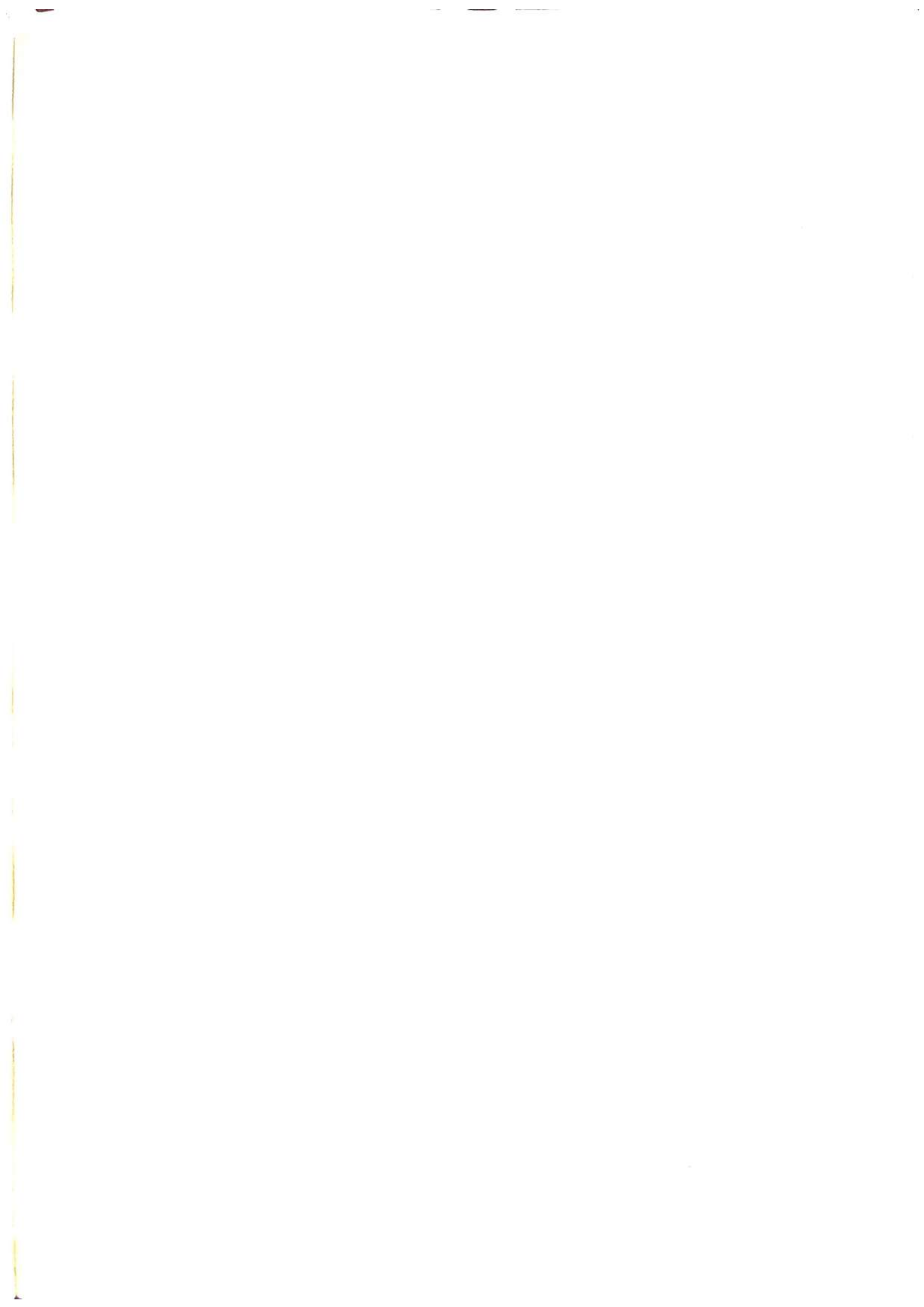
﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ... ٱلْعَظِيمِ ﴾	٢١	١٨٩
﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... يَسِيرٌ ﴾	٢٢	١٩٠
﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾	٢٤	١٦٦
﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ... ٱلْحَمِيدُ ﴾	٢٤	١٩٠
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾	٢٥	١٦٦
﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ... لِلنَّاسِ ﴾	٢٥	١٩١
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا... فَٰسِقُونَ ﴾	٢٦	١٨٩
﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا... مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾	٢٧	١٦٩ـ١٨٩
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ... وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	٢٨	١٦٦ـ١٩١ـ١٩٢ ١٩٣
﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ... ٱلْعَظِيمِ ﴾	٢٩	١٧١ـ١٩٠
٥٨ ـ المجادلة		
﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ... غَفُورٌ ﴾	٢	١٣٨ـ١٣٩
٥٩ ـ الحشر		
﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ... ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾	١	١٦٦ـ١٨٢
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ... يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾	٢	١٧٠
﴿ مَا قَطَعْتُم... ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾	٥	١٨٩
﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾	٦	١٦٦ـ١٨٣
﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ... ٱلْعِقَابِ ﴾	٧	١٩١
﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ... هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾	٨	١٨٢
﴿ وَمَن يُوقَ... هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾	٩	١٩٢
﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾	١٠	١٦٦
﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو... رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾	١٠	١٨٦
﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ... إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾	١١	١٧٠

﴿وَإِن فَاتَكُمْ . . . بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾	١١	١٥٨_١٥٢
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ . . . رَّحِيمٌ﴾	١٢	١٤٩
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ . . . أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾	١٣	١٥٤
٦١ ـ الصف		
﴿سَبَّحَ لِلَّهِ . . . ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾	١	١٨٢
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ . . . مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾	٢	١٩٣
﴿إِنَّ ٱللَّهَ . . . بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾	٤	١٨٠
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ . . . ٱلْفَٰسِقِينَ﴾	٥	١٦٨
﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾	٥	١٨٩
﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى . . . مُّبِينٌ﴾	٦	١٦٨
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ . . . ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	٧	١٩٤
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ . . . أَلِيمٍ﴾	١٠	١٩٣
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . تَعْلَمُونَ﴾	١١_١٠	١٩٥_١٨٥
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾	١٢_١٠	١٨٧
﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا . . . وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	١٣	١٩٥
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . ظَٰهِرِينَ﴾	١٤	١٦٩
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . إِلَى ٱللَّهِ﴾	١٤	١٩٤
٦٢ ـ الجمعة		
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ . . . ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾	١	١٨٢_١٦٧
﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ . . . ٱلْعَظِيمِ﴾	٤	١٩٠
﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ . . . ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	٥	١٩٥
﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ . . . بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾	٧_٥	١٧١
﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا . . . صَٰدِقِينَ﴾	٦	١٨١
﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ . . . تَعْمَلُونَ﴾	٨	١٩٤

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾	١٩	٢١٦
﴿أَمَّنۡ هَٰذَا . . . فِي غُرُورٍ﴾	٢٠	٢١٣
﴿أَمَّنۡ هَٰذَا . . . ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾	٢٠	٢١٦
﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾	٢١	٢١١
﴿أَفَمَن يَمۡشِي . . . عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾	٢٢	٢١٩
﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ . . . نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾	٢٦	٢٠٨
﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾	٢٨	٢١٠
﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ . . . بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾	٢٨ـ٣٠	٢١٨
﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ . . . مُّبِينٖ﴾	٢٩	٢١٤
٦٨ ـ القلم		
﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾	٢	٣١٢ـ٣٦٨ـ٣٦٩
﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾	٣٤	٣٨١
﴿لَّوۡلَآ أَن . . . وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾	٤٩	٣٦٨ـ٣٦٩
٦٩ ـ الحاقة		
﴿ٱلۡحَآقَّةُ . . . مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾	١ـ٣	٣٩٥
﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾	٣	٢٦٧
﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾	٤	٣٩٥
﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾	١٩	٣٩٧
﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾	٢٠	٣٩٧
﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ . . . دَانِيَةٞ﴾	٢١ـ٢٣	٣٩٧
﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ . . . ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾	٢١ـ٢٤	٣٩٧
﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ . . . عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾	٢٥ـ٢٩	٣٩٧
﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . . . فَٱسۡلُكُوهُ﴾	٣٠ـ٣٢	٣٩٧
﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا . . . ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾	٣٨ـ٤٣	٢٥٢

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا . . . أَن يَسْتَقِيمَ﴾	٢٧ـ٢٨	٤٠٦
	٨٢ ـ الانفطار	
﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾	١	٣٩٩ـ٤٠٠ـ٤٠٢
﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾	٥	٤٠٥
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ . . . مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾	٦ـ٨	٤٠٠
﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾	٩	٤٠١
﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ . . . مَا تَفْعَلُونَ﴾	١٠ـ١٢	٤٠١
﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ . . . لَفِى جَحِيمٍ﴾	١٣ـ١٤	٤٠١
﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ . . . مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾	١٧ـ١٨	٤٠١ـ٤٠٢
	٨٣ ـ المطففين	
﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . . . يُخْسِرُونَ﴾	١ـ٣	٢٦١
﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ . . . لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٣ـ٦	٢٦٥
﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾	٧	٢٦٦ـ٢٦٧
﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾	٨	٢٦٦
﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾	١٤	٢٦٦
﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾	١٥	٢٦٦
﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾	١٨	٢٦٦
﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾	١٩	٢٦٦
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ . . . حَٰفِظِينَ﴾	٢٩ـ٣٣	٢٦٣
﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ . . . يَفْعَلُونَ﴾	٣٤ـ٣٦	٢٦٤
	٨٤ ـ الإنشقاق	
﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾	١	٣٩٩ـ٤٠٠ـ٤٠٢
﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾	٢	٤٠٠
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ . . . فَمُلَٰقِيهِ﴾	٦	٤٠٠

٨٩ ـ الفجر		
﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾	٥	٤٠
٩٠ ـ البلد		
﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾	١	٢٥١
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾	٤	٢٥٣
﴿أَيَحْسَبُ أَن . . . مَالًا لُّبَدًا﴾	٥ـ٦	٢٥٤ـ٢٥٥
﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾	٧	٢٥٥
﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ . . . ذَا مَتْرَبَةٍ﴾	١١ـ١٦	٢٥٦
﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ . . . نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾	١٧ـ٢٠	٢٥٦
٩٢ ـ الليل		
﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . . . سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾	١ـ٤	٣٤٤
﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾	٤	٣٤٦ـ٣٥١
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ . . . لِلْيُسْرَىٰ﴾	٥ـ٧	٣٤٠
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ . . . لِلْعُسْرَىٰ﴾	٥ـ١٠	٣٤٧
﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾	١١	٣٤٧
﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾	١٢ ـ١٣	٣٣٢
﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا . . . كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾	١٤ـ١٦	٣٣٥ـ٣٥٠
﴿ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾	١٨	٣٤١ـ٣٤٢
﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ . . . رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾	١٩ـ٢٠	٣٤١
﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾	٢٠	٣٣٣
٩٣ ـ الضحى		
﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾	١ـ٢	٣٤٤ـ٣٥١
﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾	٣	٣٤٥
﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ . . . رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾	٣ـ٥	٣٣٢ـ٣٣٣





فهرس المصادر والمراجع

ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد ، التّحرير والتنوير ، الدار التونسيّة للنّشر ، تونس ، ١٩٨٤م.

ابن عطية الأندلسي ، عبد الحق بن غالب ت ٥٤٢هـ ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ.

ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، دار العقيدة ، الإسكندرية ، ط١ ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

ابن هشام ، عبد الملك بن هشام ، السيرة النّبويّة ، تحقيق: مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، دار إحياء التراث العربي ، ومؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

أبو السعود ، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

أحمد مختار عمر ، دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٢٧٦هـ/ ٢٠٠٦م.

أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، علم الكتب القاهرة، ط٥، ١٩٩٨.

الآلوسي، روح المعاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد أحمد الأمد، وعمر عبد السلام السلامي، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: قاسم الشماعي الرفاعي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: محمد عبد الله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع.

البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

دروزة، محمد عزت، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز.

الزّبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: نواف الجراح، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠١١م.

الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر

عطا، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

الزمخشري، محمود جار الله، أساس البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

الزمخشري، محمود جار الله، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدّرّ المصون، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

الشّعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، شركة ميديا بروتك، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م.

الشهاب الخفاجي، أحمد بن محمد بن عمر، عناية القاضي وكفاية الرّاضي على تفسير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٦، ص ١١٩.

الشّوكاني، محمد بن علي بن عبد الله، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

الطّبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المكتبة العصرية صيدا - بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن،

تحقيق محمود شاكر أبو فهر ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ط٢ .

طنطاوي ، محمد سيد ، التفسير الوسيط ، دار السعادة ، القاهرة .

الغرناطي ، ابن الزبير ، البرهان في تناسب سور القرآن .

فرهود ، محمد السعدي ، لباب التفاسير ، المؤسسة العربية الحديثة ، ط١ .

الفيروزابادي ، محمد بن يعقوب ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق: محمد علي النجار وعبد العليم الطحاوي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة .

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤ .

القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: محمد رضوان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢١ .

القيسي ، مكي بن أبي طالب ، الهداية إلى بلوغ النهاية ، تحقيق مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م .

محمد يونس ، وصف اللغة العربية دلاليًا ، جامعة الفاتح ، طرابلس ، ١٩٩٣ .

المدني ، محمد محمد ، المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء ، وزارة الأوقاف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٢م الموافق لـ ١٣٨٢هـ .

مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، الجامع الصّحيح ، دار الفكر ، بيروت .

النّجار ، زغلول ، تفسير الآيات الكونية ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة.

* * *



الفهرس

الفصل الأوّل

السُّور المتشابهة المطالع



الفصل الثّاني

السّورُ المتشابهة الفواصل

الفصل الثالث

السّورُ المُفتَتَحة بأنساق تعبيريّة متشابهة

❋ ❋ ❋



الدكتور امحمد محمد صافي المستغانمي، يحمل شهادة دكتوراه في اللغة العربيّة، في تخصّص البلاغة العربيّة. تقلّب في عدد من الوظائف في ميدان التربية والتّعليم في الجزائر، وفي دولة الإمارات العربيّة المتّحدة. يشغل الآن منصب الأمين العام لمجمع اللغة العربيّة بالشّارقة، وهو عضو اتّحاد المجامع اللغوية والعلمية، وعضوٌ بالمجلس العلمي للمعجم التاريخي للغة العربيّة. مُعدّ ومقدّم برامج تلفزيونية مثل "البيان القرآني" في قناة المجد العلميّة، وبرنامج "في رحاب سورة" في قناة الشارقة الفضائيّة. له عدة من المؤلفات منها: تصريف القول في القصص القرآني: دراسة مقارنة لقصة موسى عليه السّلام، والخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، وكيف تصبح فصيح اللسان، ومفاتيح النّجاح وسُنن السعادة: رؤية تأصيليّة، وبلاغة النّظم في لغة الجسم في القرآن الكريم، والأساور المرصّعة في أسرار الأحرف المقطّعة، وجواهر الدّرر في علم مقارنات السّور، وأخرى تحت الطبع.



يُمثّلُ هذا الكتاب رؤيةً تأصيليّةً لعلم مقارنات السّور الذي يُعنى بإيضاح العلاقات والرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة بين مجموعات السّور القرآنيّة التي أطلق عليها المؤلف عنوان "الأُسر القرآنيّة". يتميّز هذا الفرع العلميّ من علوم القرآن بالبحث في الرّوابط الدّقيقة، وبيان الهندسة اللفظيّة الموزّعة في طيّات السّور المتشابهة المطالع، والسّور المتشابهة الفواصل، والسّور التي تبدأ بأنساق وأنماط تعبيريّة متشابهة من غير أن تتّحد مطالعها في الموادّ المعجميّة المستعملة، وهو ميدان واسع فسيح يفتح أبواباً أمام الباحثين الأكاديميين وعشّاق البيان القرآني لمزيد من التّدبّر في نصوص التّنزيل، وتذوّق جماليّات البناء المحكم للسّور القرآنيّة. كما تجيب هذه المقاربة التّفسيريّة عن جملة من الأسئلة القرآنيّة الخالدة، وتساعد في توجيه كثير من آيات المتشابه اللفظي، وتثبت بما لا يدع مجالاً للشّك جانباً من أسرار المجموعات القرآنية التي تتشابه مطالعها مثل أسرة سور الحمد، وسور المسبّحات، وأسرة تبارك وغيرها، وجوانب أخرى من العلاقات بين السّور المتشابهة الأنساق في مطالعها مثل أسرة الصّافات والذّاريات والمرسلات وأخواتها.

ISBN 978-614-415-285-0
9 786144 152850



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com